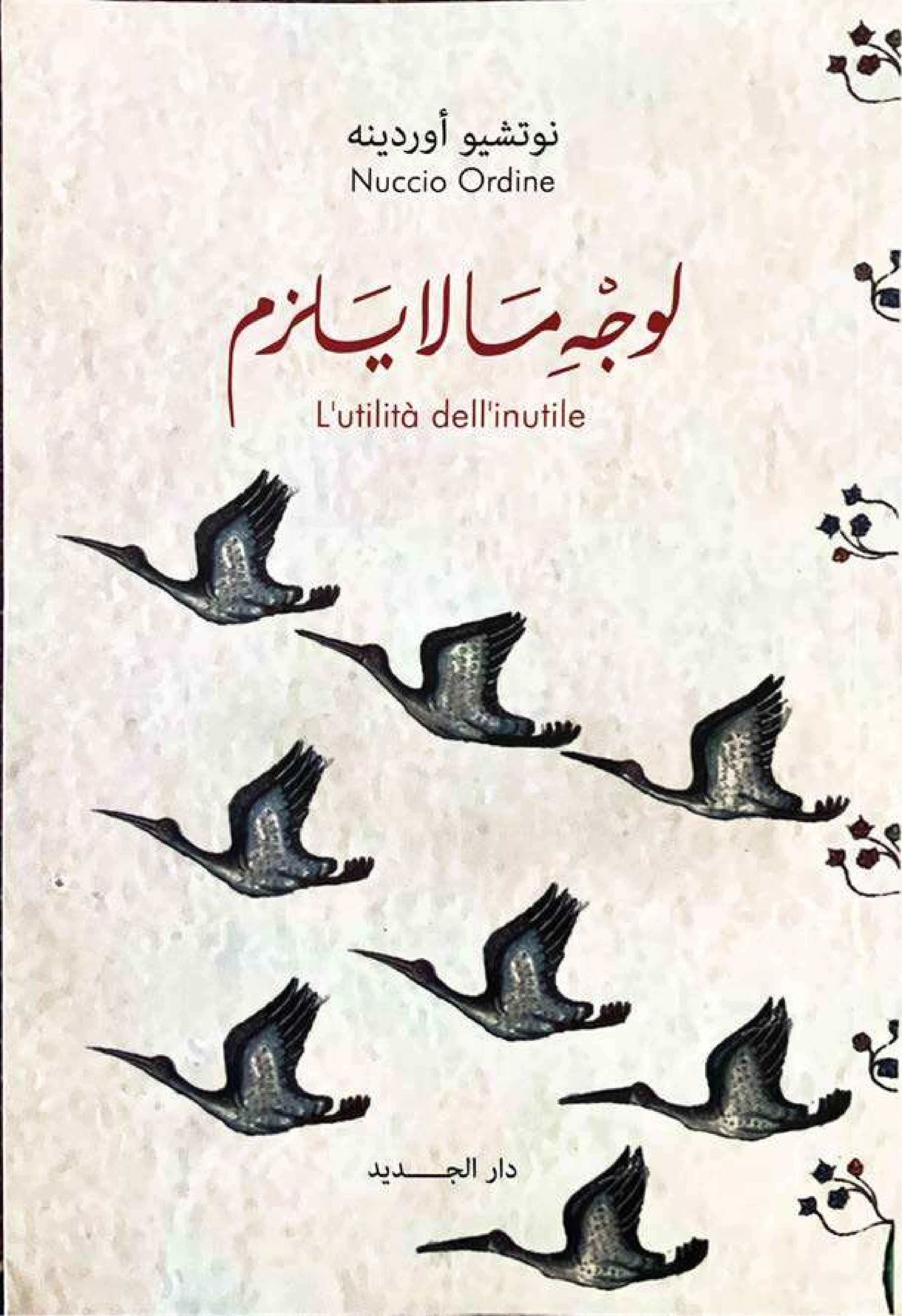


نوتشيو أوردينه

Nuccio Ordine

لوجهِ ما لا يلزم

L'utilità dell'inutile

دار الجديد


محمد خطاب

https://t.me/kotokhatab



نوتشيو أوردينه
Nuccio Ordine



يليه

في لُزومِ المعارِفِ التي لا لُزومَ لها

بقلم

أبراهام فلكسنر



دار الجـــديد

دار الجـــديد

حقوق التَّرْجَمَة العربيّة محفوظة
الطبعـــــة الأولـــى، ٢٠١٩

دارة محسن سليم، حارة حريك
صنـــدوق بريـــد: ٥ - ٢٥
الغبيـــري بيروت ـ لبنان
هاتف: ٠٥ ٣٦ ٥٥ ١ ٩٦١
www.dar-al-jadeed.com
daraljadeedbeirut@gmail.com

ISBN 978-9953-1-139-1
خطوط الغلاف: علي عاصـــي

صدر هذا الكـــتـاب، في طبعتــه الإيطاليّة، تحت عنـــوان:
L'utilità dell'inutile

هذه التَّرْجَمَةُ بَلْ هذا التَّلْخيص...

... وَما يَـزالُ بَعْضُـهُـم، كُلَّمـا نَقَلَ كِـتابًا مِـنْ لُغَةٍ مِـنَ اللُّغـاتِ إلـى العَرَبِيَّـةِ، يَحْتَـجُّ لِمـا دَعـاهُ إلـى نَقْـلِ هـذا الكِـتابِ إلَيْهـا بِحُجَّـةٍ مِـنْ قَبيلِ أنَّ نَقْلَـهُ هـذا الكِـتابَ، أوْ ذاكَ، يَسُـدُّ نَقْصًا ـ (فادِحًـا... يا لَـلْهَوْلِ!) ـ يَعْتَوِرُ المَكْـتَبَةَ العَرَبِيَّةَ بِعُـوارِهِ، أو يَـرْأَبُ صَدْعًـا يَعيـبُ بُنْيانَهـا.

وَحَـقَّ لِـدارِ الجَديـدِ أنْ تَـتَـكاسَلَ، وأنْ تَحْتَجَّ لِما دَعاها إلى نَقْلِ هذا الكِـتابِ بِتِلْكَ الحُجَّةِ، مُثَنِّيَةً عَلَيْهـا، مَثَـلًا، بـأنَّ هذا الكِـتابَ قَـدْ تُرْجِـمَ، حتّى الآنَ، بِبِضْـعِ عَشَـرَةِ لُغَـةٍ، وأنَّـهُ لا يَليـقُ بالعَرَبِيَّـةِ أنْ تَــتَخَلَّفَ عَـنْ رَكْبِ اللُّغـاتِ، وما يَجْري مَجْرى هـذا الكَلامِ السّـاقِطِ مِنْ تَفاهاتٍ ومِـنْ حَماقات.

بَيْدَ أنَّنـا لا نَفْعَـلُ، ولا يَعْنينـا أنْ نَفْعَـلَ، لِسَـبَبَيْنِ اثْنَيْـنِ: أوَّلًا لِقليـلِ اقْتِناعِنـا بـأنَّ مِـنْ شَـأْنِ أيِّ كِـتابٍ، سَـواءٌ أكانَ مَوْضوعًـا بِالعَرَبِيَّـةِ ابْتِـداءً أمْ مُتَرْجَمًا إلَيْها، أنْ يَسُدَّ ثَقْبًا أو أنْ يُصْلِـحَ نَقْصًا أو ما شـابَهَ، أيْ أنْ يُرَتِّـبَ لِوَظيفَـةٍ مِـنْ قَبيـلِ الرَّتْقِ أو التَّرْميـمِ؛ وثانِيًا لأنَّ هذا الكِـتابَ، والمَكْـتوبُ يُقْـرَأُ مِـنْ عُنوانِـهِ، لا يَقْبَـلُ أصْلًا أنْ يُنْقَـلَ إلـى العَرَبِيَّـةِ لِهَـذِهِ الغايَـة.

كُلُّ ما فـي الأمْـرِ أنَّ صَديقًـا عَزيـزًا، الأُسْـتاذَ يوسـف مُعَـوَّض، أهْـدى دارَ الجديـدِ لِنَحْـوِ عـامٍ خـلا، فـي سِـياقِ مـا بَيْنَـهُ وبَيْنَهـا مِـنْ حَبْـلِ كَلامٍ وقِـراءَةٍ مَوْصولَيْـنِ، هذا الكِـتابَ، وَوَقَـعَ الكِـتابُ مِنّـا، بَعْدَ مُطالَعَتِهِ، مَوْقِـعَ الحَفـاوَةِ بِهِ، وأخْطَرَتْ لنـا هـذِهِ الحَفـاوَةُ فِكْـرَةَ نَقْلِـهِ إلـى العَرَبِيَّـةِ!

وإذْ تَعَـذَّرَ علـى دارِ الجَديـدِ أنْ تَتَّصِـلَ بِمُتَرْجِـمٍ يَنْقُـلُ النَّـصَّ مِـنَ الإيطالِيَّـةِ، لُغَتِـهِ الأصْلِيَّـةِ، إلـى

العَرَبِيَّـةِ، وإذْ وَافَـقَ مُؤَلِّفُـهُ الأُسـتاذُ نوتشـيو أوردينـه علـى أنْ يُنْقَـلَ الِكـتابُ مِـنَ الفَرَنْسِـيَّةِ التـي وَقَـفَ بِنَفْسِـهِ علـى تَرْجَمَـةِ كِـتابِهِ هـذا إلَيْهـا، ارْتـأتْ دارُ الجَديـدِ، نَظَـرًا إلـى تَـنَوُّعِ مـادَّةِ الكِـتابِ وثَرائِهـا، أنْ يُتَرْجَـمَ الكِـتابُ على مَرحَلَتَيْـنِ اثْنَتَيْـنِ، فأوْكَلَـتْ، بِدايَـةً، إلـى الأُسـتاذِ مُحَمَّـد علـي بَـدَوي أن يُعِـدَّ مُسَـوَّدَةَ تَرْجَمَـةٍ، فَفَعَـلَ مَشْـكورًا واضِعًـا مَعارِفَـهُ الثَّرَّةَ فـي تَصَرُّفِ هـذا العَمَـلِ، ثُـمَّ تَعَهَّـدَتْ، دارُ الجديـدِ، بِقَلَمِهـا، تَوْجيـهَ هَـذِهِ التَّرْجَمَـةِ الوُجْهَـةَ التي قَـرَأَتْ، هِيَ، علـى هَـدْيٍ مِنْهـا، هـذا الكِـتاب.

مِـنْ ثَـمَّ، وبالنَّظَرِ إلـى النَّصِّ العَرَبِيِّ الـذي انْتَهَيْنا إلَيْـهِ مِـنْ مَنْظـورِ «الأصْـلِ» الـذي اعْتَمَدْنـا عَلَيْهِ، أي طَبْعَتَـيِّ النَّـصِّ الفَرَنْسِـيِّ الأوْلـى والثّانِيَـةِ، لا نَـرى غَضاضَةً في القَـوْلِ إنَّهُ أدْنى إلـى التَّلْخيصِ، بالمَعْنـى الـذي تَدَبَّـرَتْ بِـهِ العَرَبِيَّـةُ التَّلْخيـصَ، مِنْـهُ بالتَّرْجَمَـةِ الحَرْفِيَّـةِ؛ (ومِـنْ نافِلِ القَـوْلِ إنَّ

التَّلْخيص، بِهَذا المَعْنى، أبْعَدُ ما يَكونُ عَنِ الإيجازِ والاخْتِصار).

أخْذًا بِمَذْهِبِ التَّلْخيصِ هذا، وتَلْبِيَةً لِهذهِ النِّيَّةِ في نَقْلِ هذا النَّصِّ إلى العَرَبِيَّةِ، وبِناءً على أنَّ مَتْنَ **لِوَجْهِ ما لا يَلْزَمُ** وحواشِيهِ وهوامِشَهُ مَبْنًى واحِدٌ أحَدٌ، بدا لَنا أيْضًا أنَّ اطِّراحَ المَراجِعِ التي يُحيلُ إلَيْها المُؤَلِّفُ، وإضافَةَ عَدَدٍ مِنَ الهَوامِشِ المُخْتارَةِ التي تَأْخُذُ بِيَدِ القارِئِ في شِعابِ هذا النَّصِّ المَوْسوعِيِّ على قَليلِ صَفَحاتِهِ، لَيْسَ مِمّا يُخالِفُ ما قَصَدَ إلَيْهِ الأكاديميُّ نوتشيو أوردينه مِنْ وَراءِ وَضْعِهِ هذا الكِتابَ الذي يَصِفُهُ هو نَفْسُهُ بِـ«البَيانِ» («المانيفستو»)، ولا هوَ مِمّا يَتَقَوَّلُ عَلَيْهِ ما لَمْ يَقْصِدْ إلَيْه.

لِوَجْهِ ما تَمَتَّعْنا بِهِ خِلالَ مُطالَعَتِنا هذا الكِتابَ/ البيانَ إذًا، بَلْ عِرْفانًا بِما تَمَتَّعْنا بِهِ، نَقَلْنا هذا

الكِـتابَ إلى العَرَبِيَّـةِ علـى النَّحْـوِ المَذْكـورِ، فَعَسـى أنْ نَـكونَ قَدْ أصَبْنا في ما ذَهَبْنـا إلَيْه مِـن اجْتِهـادٍ، وأن تُؤْجَـرَ مُتْعَتُنـا بِمِثْلِهـا!

نَقـولُ قَوْلَنـا هـذا، ويَنْعَقِـدُ أمَلُنـا علـى هـذا المُؤَمَّـلِ، غَيْـرَ أنَّـهُ لَيْـسَ مِمّـا نَمُـلُّ مِنْـهُ أنْ نُـرَدِّدَ المَـرَّةَ تِلْـوَ المَـرَّةِ قَوْلَ القاضـي البيسـانِيِّ مِنْ أنَّهُ «لا يَكْـتُبُ أحَدٌ كِـتابًا في يَوْمِهِ إلّا قالَ في غَدِهِ: لَـو غُيِّـرَ هذا لَـكانَ أحْسَـنَ، ولـو زيدَ هذا لَـكانَ يُسْتَحَسَـنُ، ولـو قُدِّمَ هذا لَـكانَ أفْضَـلَ، ولو تُرِكَ هـذا لَـكانَ أجْمَلَ، وهذا أعْظَـمُ العِبَرِ، وهو دَليلٌ علـى اسْـتيلاءِ النَّقْصِ علـى جُمْلَةِ البَشَـر»؛ فأنْعِمْ بِـهِ مِـنْ نَقْـصٍ وأنْعِمـي، وتَمَتَّـعْ وتَمَتَّعي...

دار الجـــديد

بيروت، تشرين الأوّل ٢٠١٨

إلى روزاليا

«وَمِنْ آياتِ الفَلْسَفَةِ
أنَّها تَـكْشِفُ لَنا جَدْوى ما لا جَدْوى
مِنْهُ، أو قُلْ: مِنْ آياتِها أنَّها تُعَلِّمُنا أنْ نُمَيِّزَ
بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ لِكَلِمَة جَدْوى».

پيار هادو[*]

مَدْخَل

(*) پيار هادو، (١٩٢٢-٢٠١٠)، فَيْلَسوفٌ فَرَنْسِيٌّ مُتَبَحِّرٌ في الفَلْسَفَةِ القَديمَةِ، ولا سِيّما الفَلْسَفَةَ النيوأفلاطونيّة.

حَـقُّ الطِّبـاقِ الذي أتَّخِـذْهُ عُنْوانًا لِهذا الكِـتابِ أنْ أُبَيِّـنَ بَعْـضَ مَقاصِدِه.

فالجَـدْوى أو اللُّـزومُ اللَّـذانِ يَـدورُ عَلَيْهِمـا كَلامـي هُنا، لا شـأنَ لَهُما بالجَدْوى أو اللُّزومِ اللَّذَيْن يُـقالُ باسْـمِهِما، على سَـبيلِ المِثالِ، إنَّ العُلومَ الإنْسـانِيَّةَ، والمَعـارِفَ النَّظَرِيَّـةَ عُمومًا، لا لُـزومَ لها ولا جَدْوى مِنهـا. وإنَّمـا اصْطَنِـعُ لِهَذَيْـنِ المَفْهومَيْـنِ، فـي الصَّفَحـاتِ التّالِيَـةِ، مَعْنًى أكْـثَرَ انْبِسـاطًا وكُلِّيَّة.

فَمَـدارُ تَفْكيـري، وَمَـدارُ حَديثـي، هُنا، علـى لُزومِ، المَعـارِفِ التـي لا صِلَـةَ، ولا رَحِـمَ، بَيْـنَ قَدْرِهـا وَقيمَتِها مِـنْ حَيْـثُ هـي كـذا ـــ وعلـى جَدْواهـا اسْـتِطرادًا ـــ وبَيْـنَ الغايـاتِ والمَـآرِبِ النَّفْعِيَّـةِ، أيًّا تَـكُنْ هـذِهِ الغايـاتُ والمَـآرِب.

نَعَمْ، لِبَعْضِ المَعارِفِ والعُلومِ غايَةٌ مُضَمَّنَةٌ في نَفْسِها؛ ولأنَّ هذهِ المَعارِفَ، وهذهِ العُلومَ، مُتَرَفِّعَةٌ عَنِ الغاياتِ وعَنِ المَآرِبِ العَمَلِيَّةِ والرِّبْحِيَّة، فَمِنْ شَأْنِها أنْ تُساهِمَ إسْهاماتٍ حاسِمَةً في تَطَوُّرِ الفِكْرِ، وفي تَرَقّي السُّلوكِ البَشَرِيِّ والحَضارَةِ الإنْسانِيَّة.

وإذْ هَوْ كَذلِكَ، فلا مُؤَدّى لاسْتِعْلاءِ المَنْطِقِ الرِّبْحِيِّ على ما سِواهُ إلّا تَقْويضُ أُسُسِ المُؤَسَّساتِ والمَرافِقِ التي يُفْتَرَضُ بِها أنْ تَرْعى هَذِهِ المَعارِفَ والعُلومَ في مَنأى مِنْ هاجِسِ الرِّبْحِ الآنِيِّ وَوَسْواسِ الاسْتِخْدامِ العَمَلِيِّ، وأعْني بِهَذِهِ المُؤَسَّساتِ والمَرافِقِ المَدارِسَ والجامِعاتِ والمَراكِزَ العِلْمِيَّةَ والمُخْتَبَراتِ والمَكْتَباتِ وما يُعادِلُها مِنْ دورِ الثَّقافَةِ والفُنون.

بِالطَّبْعِ، يُمكِنُ لِلمَتاحِفِ ولِلمَواقِعِ الأَثَرِيَّةِ أنْ تَدُرَّ عَوائِدَ مالِيَّةً لا يُسْتَهانُ بِها أحْيانًا غَيْرَ أنَّ السَّبَبَ المُوجِبَ لإنْشاءِ هذا المُتْحَفِ أو ذاكَ، والسَّبَبَ المُوجِبَ لِرِعايَةِ هذا المَوقِعِ الأثَرِيِّ

أو ذاكَ، لَيْسَ في الجَدْوى، بالمَعْنى التِّجاريِّ، مِنْهُ، وإنَّما في أصْلِ فِكْرَةِ وُجودِ هذا المُتْحَفِ، أوْ ذاكَ، وفي أصْلِ فِكْرَةِ المُحافَظَةِ على هذا المَوْقِعِ الأثَرِيِّ، أو ذاكَ، وإتاحَتِهِ أمامَ الزُّوّار. مَقولُهُ: إنَّ وُجودَ هذا المُتْحَفِ أو ذاكَ يَنْبَغي ألّا يَرْتَبِطَ، بِخِلافِ ما يُرَوِّجُ لَهُ البَعْضُ، بِما يَدُرُّهُ مِنْ عَوائِدَ أو لا يَدُرُّه.

وعلى غِرارِ المَتاحِفِ والمَواقِعِ الأثَرِيَّةِ، المَكْتَباتُ ومَراكِزُ التَّوْثيقِ وما يَجْرى مَجراها مِمّا يَجِبُ أنْ يُنْزَلَ في مَنْزِلَةِ الوَقْفِ الجَماعِيِّ المَوْقوفِ للخَيْرِ العامِّ، ومِمّا يَجِبُ أنْ يُرْتَخَصَ في سَبيلِ وُجودِهِ وبقائِهِ الغالي والنَّفيس.

أبْني على هذا لأُضيفَ بأنَّ صِفَةَ الوَقْفِ هذِهِ حُجَّةٌ كافِيَةٌ وافِيَةٌ للمُخالَفَةِ على أولَئكَ الذينَ يَستَبيحونَ كُلَّ شَيءٍ بِذَريعَةِ أنَّ الأوْقاتَ عَصيبَةٌ، وأنْ الزَّمَنَ زَمَنُ ضائِقَةٍ اقْتِصادِيَّةٍ وأنَّ أحْكامَ السّوقِ والمُضارَبَةِ تُبَرِّرُ التَّضْييقَ

المُطَّرِدَ على ما لا لُزومَ لَهُ، ولا نَفْعَ مِنْهُ، بِداعي ضَبْطِ النَّفَقاتِ وما شابَه.

مِنْ ثَمَّ، لا ضَيْرَ مِنَ القَوْلِ، بِلا وَجَلٍ ولا تَرَدُّدٍ، إنَّ لُزومَ المَعارِفِ غيرِ المُجْدِيَةِ هو السَّدُّ المَنيعُ الذي يُمْكِنُ أنْ يَحولَ دونَ أنْ يَغْمُرَنا طُوْفانُ فِكْرَةِ الجَدْوى ــ الجَدْوى بِمَعْنى أَوَّلِيَّةِ المَنافِعِ الاقْتِصادِيَّةِ البَحْتِ ــ وأنْ نَغْرَقَ في لُجَجِه.

فالجَدْوى، بِالمَعْنى المَذْكورِ، أشْبَهُ بِقاتِلٍ مُحْتَرِفٍ تَسيلُ على يَدَيْهِ، دونَ أنْ يَرُفَّ لَهُ جَفْنٌ، دِماءُ الذّاكِرَةِ والعُلومِ الإنْسانِيَّةِ واللُّغاتِ القَديمَةِ وحُرِّيَّةِ البَحْثِ والفُنونِ والفِكْرِ النَّقْدِيِّ أعني: تَسيلُ على يَدَيْهِ دِماءُ كُلِّ المَعارِفِ والمَلَكاتِ التي تتأسَّسُ عَلَيْها الحَضارَةُ والتي يُفْتَرَضُ أنْ تَكونَ الغايَةَ المَرْجُوَّةَ لأيِّ جَهْدٍ بَشَرِيّ.

لِقُرونٍ خَلَتْ، في القَرْنِ الثّامِنَ عَشَرَ، كَتَبَ جان جاك روسّو[*]:

[*] جان جاك روسّو: أديبٌ فَيْلسوفٌ عالِمٌ كانَتْ ولادَتُهُ في جنيف سَنَةَ ١٧١٢. يُعْتَبَرُ روسّو مِنْ وُجوهِ التَّنْويرِ الأوروبِيِّ حَيْثُ كانَ لأفْكارِهِ ونَظَرِيّاتِهِ تأثيرٌ بالِغٌ في السِّياسَةِ والتَّرْبِيَةِ والآداب.

«كانَتِ الأخْلاقُ والفَضائِلُ حَديثَ السّاسَـةِ القُدامى، أمّـا أهْـلُ زَمانِنـا فَلَيْـسَ على ألْسِـنَتِهِم سِـوى حَديثِ التِّجـارَةِ والمال».

مُـؤَدّاهُ: كُلُّ مـا لا يَسْـتَجْلِبُ النَّفْعَ المـادِيَّ، والرِّبْحَ المُباشَـرَ، كَمالِـيٌّ نافِـلٌ لا فائِـدَةَ مِنْـهُ ولا لُـزومَ لَهُ، بَـلْ مُضَيِّـعٌ للوَقْـتِ وصـادٌّ عمّـا يَعودُ بالكَسْـب.

أمّـا رائِـدُ عَصْـرِ الأنـوارِ دِنيـه ديـدرو(*) فَيُلاحِـظُ بِـدَوْرِهِ أنَّ

«كُلَّ مـا لا جَـدْوى مِنْهُ، ولا لُزومَ لَـهُ، مُحْتَقَرٌ ومَوْضِعُ ازْدِراء... [فـ] الوَقْـتُ [فـي زَمانِنـا] أثْمَـنُ مِـنْ أنْ يُنْفَـقَ [علـى مـا يُحْمَـلُ على مَحْمَـلِ] التُّرَّهـاتِ التي لا طائِـلَ مِنْهـا».

أمّا الكَلِمَةُ الفَصْلُ فَتَبْقى لِشارل بودلير(**)، ولأبْياتِهِ الخالِدَةِ التي يَصِفُ فيها مِحْنَةَ الشّاعِرِ بَيْنَ النّاس. لا يَجِدُ بودلير ما يُشَبِّهُ بِهِ الشّاعِرَ إلّا طائِرَ القَطْرَس

(*) دنيـه ديـدرو، (١٧١٣ ـ ١٧٨٤)، مَوْسـوعِيٌّ وَفَيْلَسـوفٌ فَرَنْسـيٌّ مِـنْ أعْلامِ التَّنْويـرِ الأوروبِّيّ.

(**) شـارل بودليـر، (١٨٢١ ـ ١٨٦٧)، شـاعِرٌ وناقِـدٌ فَرَنْسـي. أشْـهَرُ دواوينـه **أزهار الشَّـرّ**.

الذي يَحولُ جَناحاهُ الماردانِ، ما إنْ يَحُطَّ على يابِسَةٍ، بَيْنَهُ وبَيْنَ السَّيْرِ، ويَصيرُ أُضْحوكَةَ النّاظرين:

كذاكَ بَيْنَ النّاسِ حالُ الشّاعِرِ
حَظُّـهُ بَيْنَهُـم كَحَـظِّ الطّـائِرِ
يَقْتَحِمُ الإعْصـارَ في الظَّـلامْ
ولا يَـخْشـى رَمْيَـةَ كُـلِّ رامْ
لكِنَّـــهُ عـلى الأرْضِ أسيـرُ
يُذْهِلُــهُ التَّصْفيــقُ والصَّفيـرُ
مِن ثِقَـلِ جَناحِهِ العِمْــلاقِ
يُعْجِزُهُ المَشْيُ مَشْيَ ذي السّاقِ(*)

لا تَدَّعي صَفَحاتُ هـذا الكِـتابِ الصَّغيـرِ أنَّهـا تُحيطُ إحاطَةً مُسْتَغْرِقَةً بالمَوْضوعِ الذي تَـتَصَدّى لَـهُ. جُلُّ أمْرِهـا أنَّهـا رَجْـعُ صَدىً لأفكارٍ وتَأمُّلاتٍ أخْطَرَهـا لـي هـذا المَوضـوع. وإذْ ذَهَبْـتُ إلـى وَصْفِهـا بـ«البيـانِ»، («مانيفسـتو»)، علـى بَيِّنَةٍ مِنْ أنَّهـا لا تَسْتَوْفي، مِـنْ حَيْـثُ الإحاطَـةُ مُقْتَضيـاتِ «البَيـانِ»، فَتَدْليلًا علـى طَبيعَتِهـا «المُلْتَزِمَةِ» وهي

(*) تَرْجَمَة عبد الهادي الإدْريسي.

طَبيعَةٌ لَمْ تَنْفَكَ سِـمَةً تَسِـمُني شَـخْصِيًّا، وَتَسِـمُ ما أنْشَـطُ لَه.

لَقَـدْ أرَدْتُ هذِهِ الصَّفَحـاتِ إطارًا أُدْرِجُ تَحْتَهُ جُمْلَةً مِـنَ المُخْتاراتِ ومِـنَ التَّأَمُّلاتِ التـي تَجَمَّعَتْ لَدَيَّ خِـلالَ السَّـنَواتِ الطِّـوالِ التـي قَضَيْتُها فـي التَّعْليمِ والبَحْـث. وأعْتَـرِفُ، ابْتِـداءً، بأنَّـني جَمَعْـتُ هَـذِهِ المُنْتَخَبـاتِ وهَـذِهِ التَّأَمُّـلاتِ علـى سَجِيَّتي، ومِـنْ ثَـمَّ فَلَعَلَّهـا أقْـرَبُ مـا تكـونُ إلـى مُسَـوَّدَةٍ بِرَسْـمِ أنْ تُسْتَـكْمَلَ وتُسْـتَتَمَ مِنْهـا إلـى الكِـتابِ الـذي يَسْـتَوْفي الغَرَضَ مِنْه. وبِهذا الاعْتِبارِ، وشـأنَ كُـتُبِ المُنْتَخَبـاتِ والمُخْتـاراتِ، فَلَعَـلَّ شَـيْئًا أهْمَلْتُـهُ أو مَـرَرْتُ دونَـهُ أنْ يَبْـدوَ للمُطالِـعِ أجْـدَرَ بالإثْبـاتِ مِمّـا كانَ إثْباتُـه.

علـى بَيِّنَةٍ مِنْ هَـذِهِ العُيوبِ الأصْلِيَّةِ، رَسَـمْتُ لِهذا البَيـانِ أنْ يَدورَ على مـداراتٍ ثَلاثَةٍ:

- مَـدارٍ أوَّلٍ خَصَصْتُـهُ بِجَـدْوى الأدَبِ بِلِحـاظِ مـا يَبْـدو عَلَيْـهِ الأدَبُ مِـنْ لاجَـدْوى ومِـنْ نُفـول؛

- ومَـدارٍ ثـانٍ خَصَصْتُـهُ بالعَواقِـبِ الفادِحَـةِ التـي

تَسْتَجرُّها سِيادَةُ المَنْطِقِ النَّفْعِيِّ على التَّعْليمِ والبَحْثِ العِلْمِيِّ وسِواهُما مِنَ النَّشاطاتِ الثَّقافِيَّة؛

- ومدارٍ ثالِثٍ أرَدْتُ مِنْ وَرائِهِ مَزيدَ إيْضاحٍ لِما رَمَيْتُ إلَيْه، فَعَرَضْتُ على مَتْنِ صَفَحاتِهِ أمْثِلَةً بالِغَةً على ما بَيْنَ اللُّزومِ وأضْدادِهِ مِنْ جَدَلٍ واسْتَعَدْتُ مُخْتاراتٍ بِقَلَمِ عَدَدٍ مِنْ أعْيانِ الأدَبِ، على مَرِّ العُصورِ، تُسَفِّهُ هاجِسَيِّ الحِيازَةِ والتَمَلُّكِ، وتُبَيِّنُ الطَّبيعَةَ الوَهْمِيَّةَ للشَّأْنِ والقَدْرِ اللَّذَيْنِ نَنْسِبُهُما لَهُما وتُدَلِّلُ على ما يَتَرَتَّبُ مِنْ أثَرٍ فادِحٍ مِنْ جَرّاءِ اسْتِعْلاءِ ذَيْنِكَ الهاجِسَيْنِ ولا سِيَّما على سَعْيِ الإنْسانِ إلى الكَمالِ وسَعْيِهِ إلى الحُبِّ والحَقيقَة.

كَذلِكَ فَلَقَدِ اسْتَحْسَنتُ أنْ أسْتَكْمِلَ تأمُّلاتي بأنْ أُضيفَ إلَيْها بَحْثًا فَذًّا وَضَعَهُ أبراهام فلكسنر(*)

(*) أبراهام فلكسنر، (١٨٦٦ - ١٩٥٩)، مُرَبٍّ أميركيٌّ كانَ لَهُ دَوْرٌ حاسِمٌ في إصْلاحِ القِطاعِ التَّرْبَويِّ/التَّعْليميِّ في الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ الأميركِيَّةِ وكندا، ولَهُ يَعودُ الفَضْلُ بِتأسيسِ «مَعْهَدِ الدِّراساتِ المُتَقَدِّمَةِ» المُلْحَقِ بِجامِعَةِ برينستون.

سَـنَةَ ١٩٣٧ ونُشِـرَتْ مِنْـهُ نُسْـخَةٌ مُنَقَّحَـةٌ بَعْدَ ذَلِكَ بعامَيْـنِ اثْنَين.

ولِمَـنْ لا يَعْـرِفُ، فـإنَّ الفَضْـلَ فـي إنْشـاءِ «مَعْهَدُ الدِّراسـاتِ المُتَقَدِّمَـةِ» التَّابِـعِ لِجامِعَةِ پرينسـتون إنمـا يعودُ لَـهُ ولإصْـرارِه. والمَعْهَـدُ المَذْكـورُ إنَّما أُنْشِـئَ لإتاحَـةِ الفُرْصَـةِ أمـامَ العُلْمـاءِ والباحِثينَ لِيَنْصَرِفـوا إلـى عُلومِهِـم وأبْحاثِهِـم مُتابِعيـنَ نِداءَ الفُضـولِ فـي مَنْأى مِـنْ أيِّ مُوجِـبٍ أو اشْـتِراطٍ نَفْعـيٍّ أو عَمَلـيّ.

وَحَسْـبُنا أنْ نُذَكِّـرَ بـأنَّ عِظامًـا مِـنْ مِثْـلِ ألبـرت آينْشـتاين(*) وروبرت أوپنهايمر(**) قَدْ قَضيا بَعْضًا مِـنْ عُمْرِهِمـا فـي هـذا المَعْهَـدِ لِنُـدْرِكَ مَكانَتَـهُ كَصَـرْحٍ عِلْمـيٍّ نَسـيجَ وَحْـدِه.

(*) ألبِرْت آينشـتاين، (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥)، عالِمٌ ألمانيُّ المَوْلِدِ، سويسـرِيُّ الجِنْسـيَّةِ وأميركيُّهـا، مَوْلـودٌ لأبَوَيْـنِ يَهودِيَّيـن، وهـو واضِـعُ نَظَرِيَّتَـيْ النِّسْـبِيَّةِ الخاصَّـةِ وَالعامَّـةِ. حـازَ فـي عـامِ ١٩٢١ جائِـزَةَ نوبـل فـي الفيزياء.

(**) روبـرت أوپنهايمـر، (١٩٠٤ ـ ١٩٦٧)، فيزيائـيٌّ أمريكـيٌّ شَـغَلَ مَنْصِـبَ المُديـرِ العِلْمـيِّ لـ«مَشْـروع مانهاتـن» الـذي أثْمَـرَ تَصْنيـعَ أوَّلِ سِـلاحٍ نَـوَوِيٍّ اسْـتُخْدِمَ فـي تاريـخِ البَشَـرِيَّةِ.

فـي هـذا النَّـصِّ الرّائِـعِ الـذي أضْفنـاهُ إلـى كِـتابِنا هـذا، يَـرْوي لَنـا فلكسـنر سـيرَةَ بَعْـضِ الاكْـتِشافاتِ العِلْمِيَّـةِ الكُبْـرى مُبَيِّنًا فـي مَعْرِضِ رِوايَتِـهِ كَـيْفَ أنَّ أبْحاثًا عِلْمِيَّةً حُمِلَـتْ أوَّلَ الأمْـرِ علـى مَحْمَـلِ النّافِلَةِ والتي لا لُـزومَ لها ولا جَـدْوى مِنها لِخُلُـوِّ نِيَّـةِ أصْحابِها مِـنْ أيِّ غَـرَضٍ عَمَلِـيٍّ أو نَفْعِيٍّ، مَهَّدَتِ السَّـبيلَ إلى اخْتِراعاتٍ، مِـنْ قبيـلِ الكَهْرَبـاءِ والتَّواصُـلِ اللّاسِـلْكيِّ، غَيَّرَتْ وَجْـهَ البَشَـرِيَّةِ.

فـي مـا يَعنينـي، لا بُـدَّ لـي مِـنَ الاعْتِـرافِ بـأنَّ بَحْـثَ فلكسـنر هـذا أعانَـني علـى تَبْديدِ مـا قَدْ يَغْشـى مَواقِفـي مِـنْ الْتِبـاس.

فَبِطَبيعَـةِ الحـالِ، ومِمّـا لا أحْتـاجُ إلـى التَّأكيـدِ عليـه، أنَّـهُ لَيْـسَ فـي نِيَّتـي أنْ أنْصُـبَ المَعـارِفَ الإنْسـانِيَّةَ مَنْصِـبَ العَـداءِ مِنَ المَعـارِفِ العِلْمِيَّةِ علـى نَحْوِ ما سـادَ ابْتِـداءً مِنْ خَمْسـينيّاتِ القَرْنِ العِشْـرين تَحْتَ تَأْثيرِ بَحْثٍ شَـهيرٍ نَشَرَهُ أيّامذاكَ

تشـارلز پرسي سـنو[*]. ولو أنَّني سَعَيْتُ إلى ذَلِكَ لَـكُـنْتُ كَمَـن يُحـاوِلُ نَفْـخَ النَارِ في رَمـادٍ بارِدٍ، أو كَمَـنْ يُحَمِّـلُ نَفْسَـهُ حِمْـلًا ثَقيـلًا ويَمْشـي بِهِ فـي رِمـالٍ مُتحَرِّكَـة، وَلَأَثْبَـتُّ علـى نَفْسـي قَليـلَ فَهْمـي لِمـا يَحُمُّ مِنَ ضـرورَةِ الدَّعْـوَةِ إلى وَحْدَةِ المَعـارِف أي إلـى ذَلِـكَ «الحِلْـفِ الجَديدِ» الذي رافَـعَ عَنْـهُ، فـي صَفَحـاتٍ وَضيئَـةٍ، حامِـلُ جائِزَةَ نوبـل إليـا پريغوجيـن[**] وهـي الوَحْـدَةُ التـي يَتَهَدَّدُهـا اليَـوْمَ الإفْـراطُ فـي تَبْعيـضِ المَعـارِفِ والتَّخَصُّصـاتِ العِلْمِيَّـةِ وتَجْزِئَتِها.

ومِمّـا نَديـنُ بِهِ لفلكسـنر في بَحْثِـهِ هذا، مـا يُبَيِّنُهُ بالدَّليـلِ القاطِـعِ مِـنْ أنَّ العُلـومَ شـاهِدٌ علـى لُزومِ مـا لا يَلْـزم، ومِـنْ أنَّ لِـرُوّادِ العُلـومِ البَحْـثِ يَـدًا لا تَــتَدَنّى عَـنْ يَـدِ عُلمـاءِ الإنْسـانِيّاتِ فـي الحَـرْبِ

(*) تشـارلز پرسـي سـنو، (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠)، أديـبٌ وكيميائـيٌّ بريطانِـيّ. مِـنْ أشْـهَرِ آثـارِهِ **الثَّقافَـتان**، (١٩٥٩)، الـذي يَرْثـى فيـه للقَطيعَـةِ بَيْـنَ مَنْ يُسَـمّيهم «المُثَقَّفيـنَ الأدَبِيّيـن» وَمَـنْ مَـنْ يُسَـمّيهم «المُثَقَّفيـنَ العِلْمِيّيـن».

(**) إليـا پريغوجيـن، (١٩١٧ ـ ٢٠٠٣)، كيميائـيٌّ وفيزيائـيٌّ بلجيكـيٌّ مِـنْ أصْـلٍ روسِـيّ. حـازَ جائِـزَةَ نوبـل عـام ١٩٧٧.

علـى تَسَـلُّطِ مَنْطِـقِ الرِّبْـحِ وتَسَـيُّدِهِ، وفـي الدِّفاعِ عَـنْ حُرِّيَّـةِ البَحْـثِ العِلْمِـيِّ ومَجَانِيَّـةِ المَعْرِفـة.

بِشَـهادَةِ جُمْلَـةٍ مِمّـا انْتَهـى إلَيْنـا مِـنْ تَأَمُّـلاتِ أرسـطو(*)، وبشـهادَةِ عَدَدٍ مِـنْ أخْبـارِ إقليدس(**) وأرخميـدس(***) وغَيْرِهِما، لَـمْ يَفُتْ أهْلَ العُصورِ الخَوالـي التَّمْييـزُ بَيْـنَ بابَيْـنِ مِـنَ العِلْـمِ: عِلْـمٍ تَأَمُّلِـيٍّ مُتَرَفِّـعٍ عَـنِ الرِّبْحِيَّـةِ وعَنِ المَنافِـعِ الآنِيَّةِ، وعِلْـمٍ ذي وُجْهَـةٍ تَطْبيقيَّـةٍ نَفْعِيَّـةٍ عَمَلِيَّـة.

فَمِمّـا يَتَعَـذَّرُ، حَـدَّ الاسْـتِحالَةِ، أنْ تُـكالَ القِيَـمُ، وأنْ تُقـاسَ، بِمَوازيـنِ الكَيْـلِ والقِيـاسِ الصّالِحَـةِ لِكَيْـلِ الكَمِيّـاتِ. وَبِما أنَّ هـذه المَوازينَ لا تَصْلُحُ بِطَبيعتهـا لكَيْـلِ الكَيْفِيّـاتِ وقياسِـها لا بُـدَّ مِـنَ

(*) أرِسْـطُو، (٣٨٤ ق.م. ـ ٣٢٢ ق. م)، فَيْلَسـوفٌ يُونانـيٌّ، تَـتَلْمَذَ علـى أفلاطـون وتَلْمَـذَ الإسـكندر الأكبر.

(**) أقليـدس: فَيْلَسـوفٌ ورِياضِـيٌّ يُونانـيٌّ كانَ مَوْلِـدُهُ حوالـى ٣٠٠ قَبْلَ الميلاد. لَـهُ تُنْسَـبُ «الهَنْدَسَـةُ الإقليديَّـة»، وَكِتابُـهُ **العَناصِـر** دُسْـتورٌ مِـنْ دَسـاتيرِ العِلْـمِ الرِّياضِـيِّ فـي تاريخِ البَشَـرِيَّة.

(***) أرخميـدس، (٢٨٧ ق.م. ـ ٢١٢ ق. م)، عالِـمُ فَلَـكٍ وطَبيعيّـاتٍ وفيزيائيّـاتٍ ومُهَنْـدِسٌ ومُخْتَـرِعٌ يُونانيّ.

التَّسْـليمِ بـأنَّ كُلَّ الاسْـتِثْماراتِ لا تُـزانُ بِعَوائِدِهـا المُباشَـرَةِ فَحَسْـب.

بَـلْ أكْـثَرُ مِنْ ذلكَ: إنَّ المَعـارِفَ، بِحَدِّ ذاتِها، هي سَـدٌّ مَنيـعٌ يَقْطَـعُ الطَّريقَ علـى أوْهـامِ الجَبَروتِ التـي يُزَيِّنُها امْتِـلاكُ الثَّرَواتِ والمُقَـدَّراتِ الماليَّة.

نَعَـم، لِلْمـالِ أنْ يَشْـتَرِيَ كُلَّ ما لَـهُ مِـنْ ثَمَـن: يَشْـتَري المـالُ لِصاحِبِـهِ مَقْعَـدًا فـي المَجْلِـسِ النِّيابـيِّ، أو فـي مَجْلِـسٍ مِـنْ مَجالِـسِ القَضـاء... يَشـتري لَـهُ وَجاهَـةً اجتماعيَّةً أو مَنْصِبًـا حُكومِيًّا؛ نَعَـم، يَشْـتَري المـالُ هـذهِ «الأشْـياءَ» وسِـواها كَـثيرٌ غَيْـرَ أنَّـهُ لَيْـسَ للمـالِ أنْ يَشْـتَرِيَ لِصاحِبِـهِ العِلْـمَ والمَعْرِفَـةَ!

فَثَمَـنُ العِلْـمِ والمَعْرِفَـةِ مِـنْ طَبيعَـةٍ مُخْتَلِفَةٍ كُلَّ الاخْتِـلافِ عَمّـا يُمْكِـنُ للمـالِ أنْ يَشْـتَريه: حَتّـى شـيكٌ علـى بَيـاضٍ، شـيكٌ مَفْتوحٌ، لا يُمْكِنـهُ أنْ يُحْـرِزَ لِحامِلِـه، تِلقائِيًّـا، مـا يَصْبو إلى إحْـرازِهِ مِنْ عِلْـمٍ ومَـنْ مَعْرِفَة. فلا إحْـرازَ للعِلْـمِ والمَعْرِفَةِ إلّا

مِـنْ طَريـقِ بَـذْلِ الجَهْدِ، ولا بَـذْلَ لِجَهْدٍ إلّا شَـوْقًا إلـى أمْـرٍ أو تَوْقًـا مَشْـبوبًا إلَيْه.

نَعَـم، لِطالِـبِ الوَجاهَـةِ العِلْمِيَّـةِ أن يَشْـتَريَ دَرَجَـةً عِلْمِيَّـةً، ولكـنْ هَـلْ تَزيدُهُ هذه الشَّـهادَةُ المُشْـتَراةُ كما تُشْـرى السِّـلَعُ عِلْمًـا؟ بالطَّبْع كلّا!

ثُـمَّ لنـا أنْ نَذْهَـبَ إلـى أبْعَـدَ مِمّـا ذَهَبْنـا إلَيْـه: فَمِـنْ شـيمَةِ المَعـارِفِ أنْ تَـتَحَدّى قَوانيـنَ السّـوقِ علـى وَجْـهٍ آخَـرَ: لا يَنْتَقِصُ مِـنْ مَعارِفِ الواحِـدِ مِنّـا شَـيئًا أنْ يُشْـرِكَ الآخريـنَ بِمَعارِفِـه. بَـلْ لَعَـلَّ هـذا الإشْـراكَ أنْ يُنَمِّيَهـا وأنْ يُضاعِفَها! فَعِنْدَمـا يُعَلِّـمُ واحِـدٌ مِـنَ النّـاسِ واحِـدًا آخَـرَ نَظَرِيَّـةَ النِّسْـبِيَّةِ، أو يُفَسِّـرُ لَـهُ صَفْحَـةً مِـنْ أدَبِ ميشـال دو مونتينـه(*) لا يُقَلِّـلُ هـذا التَّعْليمُ مِنْ عِلْمِـهِ، هـو، بالنِّسْـبِيَّةِ أو بـأدَبِ دو مونتينـه في شَـيْءٍ بَـلْ يُتيـحُ لَـهُ أنْ يُثْـرِيَ عِلْمَـهُ بِهِمـا مِـنْ خِـلالِ التَّفاعُـلِ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ مَـنْ يُعَلِّـم، وهكـذا

(*) ميشـال دو مونتينـه، (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢)، أديـبٌ ومُفَكِّـرٌ فَرَنْسِـيٌّ مِـنْ أعْـلامِ عَصْـرِ النَّهْضَـةِ الأوروبِـيّ.

يَنْقَلِبُ العاطي كاسِبًا، والمُفْضِلُ مُفْضَلًا عَلَيْه، وهو ما يُخالِفُ قَوانينَ السّوقِ ومَنْطِقَه.

يَتَعَذَّرُ، نَعَم، في عالَمٍ، يَحْكُمُ فيهِ، وعَلَيْه، «الكائِنُ الاقْتِصاديُّ»، (الـ«هومو إيكونوميكوس»)، ـ يَتَعَذَّرُ أَنْ نُدْرِكَ بِيُسْرٍ لُزومَ ما لا يَلْزَمُ وجْدواه، ولا جَدْوى ما يَلْزَمُ وَنُفولَهُ، ومِصْداقُ هذا التَّعَذُّرِ أنَّ الكَثيرَ مِنَ السِّلَعِ النّافِلَةِ تُباعُ مِنّا بِوَصْفِها مِنَ الضَّروريّات!

وبِمِقْدارِ ما يَتَعَذَّرُ ذَلِكَ، يُفْجِعُ، كُلَّ الفَجيعَةِ، ما نَراهُ مِنِ انْصِرافِ الكَثيرينَ مِنْ بَني البَشَرِ إلى تَكْديسِ الثَّرَواتِ والاسْتِئْثارِ بالسُّلْطَةِ، وَيُفْجِعُ كُلَّ الفَجيعَةِ ما نَراهُ على الشّاشاتِ وفي وَسائِلِ التَّواصُلِ الاجْتِماعِيِّ مِنْ تَقَمُّصِ «النَّجاحِ» على صُورَةِ مُقاوِلٍ أو رَجُلِ أعْمالٍ يَتَيَسَّرُ لَهُ، بِطُرُقِ الاحْتِيالِ، بِناءُ إمْبراطوريَّةٍ مُتَرامِيَةِ الأطْرافِ، أو على صورَةِ سِياسِيٍّ فاسِدٍ لا يُفْلِتُ مِنْ نَيْلِ العِقابِ على جرائِمِهِ فَحَسْب بَلْ يُهينُ مَفْهومَ التَّمْثيلِ الشَّعْبيِّ بأَنْ يَجْعَلَ بَرْلَمانَ البَلَدِ الذي

يَنْتمـي إلَيْـهِ يُصَـوِّتُ علـى قوانيـنَ وتَشـريعاتٍ يُفيـدُ مِنْهـا هو شَـخْصِيًّا، بَـلْ يُفْجِـعُ، كُلَّ الفَجيعَةِ، أنْ يَتَحَـوَّلَ الرِّبْـحُ والإثْـراءُ إلـى أرْضِ ميعـادٍ تَهْفـو إلَيْهـا القُلـوبُ ويُهْـرَعُ النّـاسُ إلَيْهـا لا مُباليـنَ بِمـا تَـدوسُ عَلَيْـهِ أقْدامُهُـم فـي هَرَعِهـم هـذا مِـنْ ذَخائِـرَ طَبيعيَّـةٍ لا تَـوازُنَ بيئِيًّـا بِدونِهـا ولا كَرامـةً بَشَـرِيَّة.

ضِـفْ إلَيـهِ أنَّ النـاسَ فـي سِـباقِهِم المَجنـونِ هـذا إلـى أرْضِ الميعـادِ تِلْـكَ يُعْمـونَ عُيونَهُـم بأيْديهِـم عَـنْ مُتَـعِ الحَيـاةِ والكَـوْنِ وجَمالاتِهِمـا: عَـنْ جَمالِ غُـروبِ الشَّـمْسِ أو جَمـالِ السَّـماءِ المُرَصَّعَـةِ بالنُّجـومِ، عَـنْ جَمـالِ زَهْرَةٍ تَـتَفتَّحُ أو فَراشَـةٍ تَطيرُ أو طِفْلٍ يَبْتَسِـمُ ولا يُسْـتَهانَنَّ بِهَـذِهِ الجَمالاتِ على بَسـاطَتِها فَهَيْهـاتَ مِمَّـنْ لا يَتَذَوَّقُ هـذهِ التَّفاصيلَ أنْ يَسْتَمْتِـعَ بِمـا هـو فَوْقَهـا وأكْبَـرَ مِنها.

ولَكَـمْ أصـابَ أوجيـن يونسـكو(*) عِنْدما قـال: «مَنْ

(*) أوجيـن يونسـكو، (١٩٠٩ ـ ١٩٩٤)، مُؤَلِّفٌ مَسْـرَحِيٌّ فَرَنْسـيٌّ رومانيُّ الأصْل. مِنْ أشْـهَرِ مَسْـرَحِيّاتِهِ المُعَرَّبَة **الكَراسـي** و**المُغَنِّيَـة الصَّلْعاء**.

لا يَفْقَـهُ لُـزومَ مـا لا يَلْـزَمُ ونُفـولَ مـا يَلْـزَمُ، لا يَفْقَهُ مِـنَ الفَـنِّ شَـيْئًا». ومِـنْ قَبْـلِ أنْ تَوَصَّـلَ يونسـكو إلـى قَناعَتِـهِ هـذِهِ كانَ مُثَقَّـفٌ يابانِـيٌّ، هـو النّاقِـدُ أوكاكـورا كاكـوزو، (١٨٦٢ ـ ١٩١٣)، قَـدْ ذَهَـبَ إلى مـا مُفـادُهُ أنَّ اللَّحْظَـةَ التـي انْفَصَـلَ فيهـا الإنْسـانُ عَـنِ الكائِنـاتِ الحَيَّـةِ الأُخْـرى هـي تِلْـكَ اللَّحْظَـةُ التـي انْحَنـى فيهـا لِأوَّلِ مَـرَّةٍ وقَطَـفَ فيهـا زَهْـرَةً لِيُهْديهـا لِصاحِبَتِـه:

«فإنَّمـا دَلَـفَ الإنْسـانُ إلـى مَلَـكوتِ الفَـنِّ عِنْدمـا أحْسَـنَ تَصْريـفَ مـا لا لُـزومَ لَـهُ مِـنْ فِعْـلٍ ومِـنْ سُـلوك».

مُنْتَهـى القَـوْلِ: لا شـاعِرِيَّةَ مُمْكِنَةً إلّا فـي مَنأى مِنَ العَجَلَةِ ومِنْ حِسـاباتِ الرِّبْحِ والخِسـارَة.

يَقولُ راينر ماريا ريلكه(*):

«لا يَكـونُ الفنـانُ فنّانًـا حَقًّـا إلّا مَتـى أعْـرَضَ عَـنِ الحِسـابِ وعَـنِ الإحْصـاء... لا يَكـونُ الفَنّـانُ فَنّانًـا حَقًّـا إلّا متـى أشْـبَهَ شَـجَرَةً لا تَسْـتَعْجِلُ دَورانَ

(*) راينـر ماريـا ريلكه، (١٨٧٥ـ ١٩٢٦)، شـاعِرٌ نِمْسـاوِيٌّ مِـنْ أبْرَزِ آثـارِهِ **مَرْثِيّات دوينو** و**رَسـائِل إلى شـاعِرٍ شـابٍّ**.

> النُّسْغِ فـي أغْصانِها وعُروقِها ــ شَـجَرَةً تَصْمُـدُ لِعواصِـفِ الرَّبيـعِ واثِقَـةً مِـنْ أنَّ الرَّبيـعَ علـى الأبـواب...».

نَعَمْ، حاجَتُنا إلى النّافِلِ وما لا لُزومَ لَهُ كحاجَتِنا إلى الهَواء.

أعودُ عَوْدي إلى يونِسْكو:

> «الشِّعْرُ والخَيـالُ والإبْـداعُ أشْـكالٌ مِـنَ التَّنَفُّـسِ الـذي لا حَيـاةَ مِـنْ دونِـه».

وهـو كَذَلِـكَ: فَهَـذِهِ النَّشـاطاتُ التـي يَعُدُّهـا الكَثيـرونَ نافِلَـةً وغَيْرَ ذاتِ نَفْـعٍ وجدَوى هي ما يَمُدُّنـا بِمـا نَحْتـاجِ إلَيْـهِ مـن عَـزْمٍ لِنَتَصَـوَّرَ عالمًا أفْضَـلَ مِـنَ العالَـمِ الـذي نَعيـشُ فيـهِ أو لِنُؤَلِّفَ عَوالِـمَ مِثالِيَّـةً تَنْتَفـي فيهـا المَظالِـمُ والفَـوارِقُ المُؤْلِمَـةُ التـي تَسـودُ علـى عالَمِنـا هـذا.

ويَزيـدُ مِـنْ إلْحـاحِ حاجَتِنـا إلى النّافِـلِ وما لزومَ لَـهُ مـا يكـونُ فـي أوْقـاتِ الأزمـاتِ الاقْتِصاديَّـةِ مِـنْ تَقْديمٍ لِهاجِسِ اسْـتِجلابِ المَنافِـعِ. فالأنانِيَّةُ بأسْـوأِ مـا يُمْكِن أن تَـتَهَيَّأَ عَلَيْه مِـنْ هَيْئَةٍ تَصيرُ

البُوصَلَةَ التي يُؤْتَمُّ بِها، وخَشَبَةَ الخَلاصِ التي لا نَجاةَ إلّا على مَتْنِها.

ففي هَذِه الأوْقاتِ، أكْثَرَ مِنْ سِواها، يَلْزَمُنا أنْ «نَفْقَهَ، على ما يَقولُ عالِمانِ مَشْهودٌ لَهُما[*]، بِأنَّ جَدْوى ما لا جَدْوى مِنه هو رَفيقُ الحَياةِ والإبْداعِ والحُبِّ والرَّغَباتِ لأنَّ ما لا جَدْوى مِنْهُ هو الشَّجَرَةُ التي تُثْمِرُ لنا الثَّمَراتِ التي نَحْنُ بأمَسِّ الحاجَةِ إلَيْها، وأمَسُّ ما نَحتاجُ إلَيْهِ أحيانًا هو أنْ نَعِيَ أنَّ الحَياةَ لَيْسَتْ دائِمًا مُسابَقَةً للوَقْتِ تَحْتَ عُنوانِ عَدَمِ إضاعَتِه!».

ويَحْضُرُني هُنا ما قالَهُ ماريو فارجاس لوسّا[**] بِمناسَبَةِ تَسَلُّمِهِ جائِزَةَ نُوبل عام ٢٠١٠:

«إنَّ عالَمًا خاليًا مِنَ الآدابِ والفُنونِ لَهُوَ عالَمٌ مَبْتورُ الرَّغَباتِ، مَنْزوعٌ مِنَ المِثاليّات، مُعطَّلٌ عَنِ الإقْدامِ، بَلْ قُلْ لَهُوَ عالَمٌ مِنَ الكائِناتِ الآلِيَّةِ المُفْتَقِرَةِ إلى ما يَجْعَلُ الكائِنَ البَشَرِيَّ يَسْتَحِقُّ هَذِهِ المَرْتَبَةَ؛ وإنَّما يُرَتِّبُ هذا الاسْتِحْقاقُ للكائِنِ البَشَرِيِّ ما

(*) هُما عالِما النَّفْسانِيّاتِ ميغال بنساياج وجيرار شميت.

(**) ماريو ڤارچاس لوسّا، (١٩٣٦ ـ)، كاتِبٌ وصِحافِيٌّ وسِياسِيٌّ مِنَ الپيرو.

نَعْرِفُهُ لَهُ مِنَ قُدْرَةٍ على أنْ يَنْحِتَ نَفْسَهُ في الحُلْمِ والخَيالِ، بِوَصِفِهِ آخَرَ، أوْ حتّى آخَرين».

لا بُدَّ للواحِدِ مِنّا، والواحِدَةِ، أنْ يَقِفَ على جَدَلِ الجَدْوى وعَدَمِها واللُّزومِ وعَدَمِهِ لِيَتَحَقَّقَ بِنَفْسِهِ مِنْ أحَدِ تِلْكَ التَّناقُضاتِ الصّارِخَةِ التي يَعْمُرُ بِها التّاريخ: لَيْسَ مِنْ بابِ الصُّدْفَةِ أنَّ المَكْتَباتِ والأعْمالَ الفَنِيَّةَ تَدْفَعُ، في مَراحِلِ التّاريخِ التي يَتَعَزَّزُ فيها التَّعَصُّبُ ويَشْتَدُّ عَضُدُهُ، أثْمانًا مُساوِيَةً لِتِلْكَ التي يَدْفَعُها البَشَرُ المُغْضوبُ عَلَيْهِم باسمِ ذَلِكَ التَّعَصُّب!

في هذه المَراحِلِ مِنَ التّاريخِ يَشْتَدُّ النَّكيرُ على كُلِّ ما يَبْدو نافِلًا وغَيْرَ ذي جَدْوى، أو يُوسَمُ بِوَسْمِ النّافِلِ وغَيْر ذي الجَدْوى واسْتِطْرادًا بِوَسْم اللّالُزوم: ألَيْسَ بالاسْتِنادِ إلى فَتاوى مِنْ هذا القَبيلِ أنْ أُحْرِقَتْ في الإسْكَنْدِرِيَّةِ عَشَراتُ الكُتُبِ المَوْسومَةِ بـ«الوَثَنِيَّةِ» بأمْرٍ مِنَ الأسْقُفِ تيوفيل؟ وأنْ أُحْرِقَتِ المَكْتَبَةُ المَلَكِيَّةُ في الصّينِ بَعْدَ اسْتيلاءِ قبائِلِ الهسيونغ نو على

مدينـةِ ليـو يانج في القَـرْنِ الرابعِ للميلاد؟ وكُـتُبُ مَنِ اتَّهَمَتْهُم محاكِمُ التَّفْتيشِ بـ«الهَرْطَقَة»؟ وأَلَيْسِ باسْـمِ أمْثـالِ هـذِهِ الفَتـاوى أنْ أُحْرِقَتْ فـي بَرْلينَ، وَسْطَ احْتِفالاتٍ شَعْبِيَّةٍ، على أيْدي النّازِيّين، كُـتُبُ «الأدَبِ المُنْحَـطِّ»؟ وأنْ دَمَّـرَ الطّالبـانُ تَماثيلَ بوذا فـي باميـان (٢٠٠١)، وأنَّ «الجِهادِيّينَ» يُحاوِلونَ بِلا كلالَةٍ تَخْريبَ مَكْـتباتِ تومبوكـتو؟

لَيْسَـتْ هَـذِهِ العَيِّنـاتُ إلّا قَليـلًا مِـنْ كَثيـرٍ ولكِـنَّ فيهـا الكِفايَـةَ لِنَتَأَمَّـلَ فـي طَبيعَـةِ العُنْـفِ الـذي يُوَجَّـهُ أحْيانًـا إلـى جَمـاداتٍ عَـزلاءَ بِحُجَّـةِ لا جَدْواهـا، ولِنَخْلُـصَ مِـنْ هـذا التَّأمُّـلِ، فـي عِـدادِ خُلاصـاتٍ أخْـرى، إلـى أنَّ هـذا العُنْـفَ يُثْبِـتُ بِذاتِـهِ، وعلـى غَفْلَةٍ مِنْ أصْحابِـهِ، أنَّ مُجَرَّدَ وُجودِ هـذه الأشـياءِ التـي يَأْخُـذونَ عَلَيْهـا لا جَدْواهـا، ويَحْكُمـونَ عَلَيها بالإعْـدامِ، يَطْعَـنُ فـي المَنْطِقِ الذي يَتَأَسَّـسُ عَلَيْـهِ رأيُهُم وتَشْـخيصُهم بِأنَّها غَيْرُ ذي نَفْـعٍ وجَـدْوى!

ومِـنْ دُروسِ التّاريـخِ أيْضًـا وأيْضًـا أنَّهُ ما مِـنْ مَرَّةٍ

انْحَطَّتْ فيها البَشَرِيَّةُ إلّا ورافَقَ هذا الانْحِطاطَ امِّحاءٌ للتَّعْبيراتِ الجَمالِيَّةِ الرَّفيعَة.

في الصَّفَحاتِ الأخيرَةِ مِنْ الرِّسالَةِ المُعَنْوَنَةِ **في البَديع**، وهي مِنْ أهَمِّ كُتُبِ النَّقْدِ الأدَبِيِّ التي خَلَّفَتْها لنا العُصورُ القَديمَةُ، يُفَصِّلُ لونجين الزّائِف(*)، واضِعُ هَذِهِ الرِّسالَةِ، الأسْبابَ التي أدَّتْ إلى انْحِطاطِ الآدابِ والمَعارِفِ في روما، والتي حالَتْ دَونَ أنْ يَبْزُغَ فيها بَعْدَ سُقوطِ نِظامِها الجُمهوريِّ كُتّابٌ كِبارٌ حَقًّا:

«نَعَمْ، إنَّ شَهْوَةَ المالِ والثَّرْوَةِ مَرَضٌ لا إبْلالَ مِنْهُ [...] حُبُّ الشَّهَواتِ يَسْتَرِقُّ المَرْءَ وشَهْوَةُ المالِ تَنتَقِصُ مِنْهُ [...] وإذْ يَنْشغِلُ الأنانِيّونَ مِنَ البَشَرِ بِهَذِهِ المَعْبوداتِ الزّائِفَةِ فَهُمْ يُشيحونَ بِأبْصارِهِم عَنِ النَّظَرِ إلى أعْلى بَلْ يَفْقِدونَ القُدْرَةَ على النَّظَرِ إلى أعلى [... ويَنْتهي الأمْرُ] بأنْ يَفْسُدَ ما جُبِلَتْ عَلَيْهِ نُفوسُهُم من عُلُوّ».

ومتى ما تَسَيَّدَ الانْحِطاطُ الأخْلاقِيُّ، و«متى ما

(*) لونجين الزائف هو اسْمٌ أطْلَقَهُ المُحَقِّقونَ على كاتِبٍ يونانيٍّ مَجْهولٍ عاشَ في القَرْنِ الثّاني أو الثّالث.

تَحَكَّمَ الفَسادُ بِحياةِ النّاسِ، فلا غَرْوَ أنْ يَضيقَ العالَمُ فلا يَتَّسِعُ لِما هو جَميلٌ ورَفيعٌ وسام».

وعلى ما لا يَفوتُ لونجين التَّذْكيرُ بِهِ فإنَّ الجَّميلَ والرَّفيعَ والسّامي لا يَتَفَتَّحُ خارِجَ الحُرِيَّة: فـ«الحُرِّيَّةُ مُرْضِعَةُ النُّفوسِ الكِبارِ وهي ما يَبْعَثُ الأمَلَ فيها».

شَأنَ لونجين، يَعْزو جيوردانو برونو(*) إلى شَهْوَةِ المالِ ما تَتَقَوَّضُهُ المَعارِفُ والقِيَمُ الكُلِّيَّةُ التي تَتَأَسَّسُ عَلَيها الحَياةُ المُتَمَدِّنَة.

يَقولُ برونو في كِتابِهِ **المُوَسَّع**:

«ما إنْ وَضَعَتْ مَدارِسُ الفَلْسَفَةِ الكَسْبَ وجَنْيَ المالِ نَصْبَ عُيونِها حتّى أخَذَتِ الحِكْمَةُ والعَدالَةُ تَهْجُرانِ هذا العالَم [...] ومِمّا يكونُ مِنْ جَرّاءِ ذلك أنْ يَضيقَ صَدْرُ الدّينِ، وأنْ تَضيقَ أنْفاسُ الفَلْسَفَةِ، وأنْ يَعُمَّ الاضْطِرابُ الدُّوَلَ والمَمالِكَ مُسْتَغْرِقًا ناسَها أجْمَعينَ ولا مُمَيِّزًا بَيْنَ حاكِمٍ وَمَحْكومٍ وحَكيم».

(*) جيوردانو برونو، (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠)، فَيْلَسوفٌ وعالِمٌ إيطاليٌّ اتَّهَمَتْهُ الكَنيسَةُ بالهَرْطَقَةِ وأُعْدِمَ حَرْقًا. نوتشيو أوردينه، مُؤَلِّفُ هذا الكِتاب، مِنَ المُتَبَحِّرينَ في سيرَةِ برونو وفَلْسَفَتِهِ، وقَدْ ألَّفَ فيهِما العَديدَ مِنَ المُؤَلَّفات.

بَيْـنَ يَـدَيِ هـذا المَشْـهَدِ يَنْبَـري جورج شـتاينر(*) وهُـوَ مَـنْ هُـوَ فـي الدّفاعِ عَـنِ القِيَـمِ الإنسـانِيَّة، وهـو مَـنْ هـو فـي الدَّعْـوَةِ إلـى إيـلاءِ مَشـاغِلِ الفِكْـرِ الأَوَّلِيَّـةَ علـى مـا عداهـا مِـنْ مَشـاغِلَ ــ يَنْبَـري لِيُحَذِّرَنـا بِأَنَّـهُ «لَيْـسَ مِـنْ شَـأْنِ ثَقافَـةٍ مـا مَهْمـا عـلا كَعَبُهـا، ولا مِـنْ شَـأنِ أخْـلاقٍ، مَهمـا بَلَغَـتْ مِـنَ السَّـماحَة، أنْ تَقينـا مِـنْ هَمَجِيَّـةِ السِّياسـاتِ التّوتاليتاريَّـة».

ويُضيفُ في مَعْرِضِ تَحْذيرِه:

«كَـمْ وكَـمْ مِـنَ المُفَكِّريـنَ ومِـنَ الفَنّانيـنَ لَزِمـوا مَوْقِـفَ اللّامُبـالاةِ أمـامَ الفَظائِـعِ التـي وَقَعَـتْ تَحْـتَ أنظارِهِـم، بَـلْ كَـمْ وكَـمْ مِنْهُـم أزْرَوْا بِأَنْفُسِـهِم، لِقِلَّـةِ مُبالاتِهـم، إلـى مَـزْرى الشُّـرَكاءِ المَعْنَوِيِّيـنَ مِـنَ الطُّغـاةِ ومِـنْ أنْظِمَتِهِـم ومِـنْ جرائِمِهِـم».

حيـنَ اسـتَحْضِرُ مُلاحَظَـةَ شـتاينر هَـذِهِ يُسْـرِعُ إلـى خاطـري بَعْـضُ مـا وَرَدَ فـي ذاكَ الحِـوارِ

(*) جـورج شـتاينر، (١٩٢٩ ـ   )، كاتِـبٌ وناقِـدٌ أدبِـيٌّ وأسـتاذٌ جامِعـيٌّ أميركـي فرنسـي مِـنْ أسـاطينِ الفِكْـرِ فـي العَصْـرِ الحَديـث.

الـذي يَخْتِـم بِـهِ إيتالـو كالڤينـو[*] كتابَـهُ **المُـدُن الخَفِيَّـة**. فـي مَعْـرِضِ حَديـثٍ بَيْـنَ ماركـو پولـو[**] وبَيْـنَ السُّـلطانِ قبـلاي خـان[***] يَقـولُ الرَّحّالَـةُ مُخاطِبًـا السُّـلْطان:

«كلّا، لَيْـسَ الجَحيـمُ فـي ظَهْـرِ الغَيْـبِ. إن صَـحَّ وُجـودُ جَحيـمٍ مـا فَهُـوَ الذي نَعيـشُ وَسْـطَهُ لِمُجَرَّدِ عَيْشِـنا مَعًـا. طريقـانِ أمامَ البَشَـرِ لِتَجَنُّـبِ عذاباتِ هـذا الجَحيـم: أمّـا الأوْلـى، وهـي الأهْـوَنُ علـى المُعْظَـمِ مِـنَ النّـاسِ، فالتَّسْـليمُ بالأمْـرِ الواقِـعِ والقَبـولِ بِـهِ حَـدَّ الانْدِمـاجِ فيـهِ والعَمـاءِ عَنْـه؛ أمّـا الثّانِيَـةُ فَمَحْفوفَـةٌ بِالمَخاطِـرِ حَيْـثُ إنَّهـا تَقْتَضـي مِنَ السّـائِرِ فيهـا مَزيدَ حَذَرٍ وجَهْـدًا مُتَواصِلًا وهَذِهِ الطَّريـقُ تَفْتَرِضُ بِسـالِكِها أنْ يَبْحَثَ وَسْـطَ الجَحيمِ عَمّـا لَيْـسَ جَحيمًـا. وإذْ تَسَـقَّطَ الواحِـدُ مِـنَ النّاسِ مـا لَيْـسَ بالجَحيـمِ فـي الجَحيـم، وَوَجَـدَهُ، فواجِبُهُ

---

[*] إيتالو كالڤينو، (١٩٢٣ ـ ١٩٨٥)، رِوائيٌّ وصِحافِيٌّ إيطاليٌّ.

[**] ماركـو پولـو، (١٢٥٤ ـ ١٣٢٤)، تاجِرٌ ورحّالـةٌ إيطالـيّ. يَعـودُ الفَضْـلُ إلَيْـهِ وإلـى أبيـهِ وعَمِّـهِ فـي اسْتِكشـافِ مـا يُعْـرَفُ بِــ «طَريـقِ الحَريـر». اتَّصَلَـتْ بَيْنَ ماركـو پولـو والإمبراطـور قبـلاي خان صِلاتٌ وَطيدَةٌ وَثَّـقَ بَعْضًا مِـنْ فُصولِها في كِتـابِ رِحْلاتِه.

[***] الإمبراطـور قبـلاي خان، (١٢١٥ ـ ١٢٩٤)، إمبراطورُ الإمبراطوريَّةِ المَنْغوليَّةِ الخامِسُ، (١٢٦٠ ـ ١٢٩٤)، وإمْبراطورُ الصِّين، (١٢٧٩ ـ ١٢٩٤).

عِنْدَئِذٍ أنْ يُحاوِلَ، قَدْرَ المُسْتَطاعِ، إدامَتَهُ وتَوْسيعَ مَساحَتِه».

ولكنْ، إنْ صَحَّ أنَّهُ كَذَلِكَ، فَكَيْفَ السَّبيلُ إلى تَبَيُّنِ ما لَيْسَ جَحيمًا في وَسْطِ الجَحيم؟ هُنا أيْضًا لا بأسَ مِنَ الإحالَةِ إلى كالڤينو نَفْسِه الذي يَتَساءَلُ إلى أيِّ حَدٍّ يُمْكِنُ لِمُطالعَةِ كُتُبِ التُّراثِ الأُوروبِيِّ أنْ تُعينَنا على ذلكَ إذْ يَعْتَبِرُ أنَّ الوقوفَ عَلَيْها خَيْرٌ مِنْ إهْمالِها لِما تَمُدُّنا بِهِ مِنْ عَوْنٍ على فَهْمِ مَنْ نَكونُ، وكَيْفَ تَأَتّى لنا أن نَكونَ مَنْ نَحْن... غَيْرَ أنَّهُ يُحَذِّرُ مِنْ مُطالعَةِ هَذِهِ الأدَبِيّاتِ ابتغاءَ نَفْعٍ مُعَيَّنٍ أو عائدٍ بِعَيْنِه.

على خُطى كالڤينو يَبْدو لي أنَّ المُضِيَّ قُدُمًا في المُرافَعَةِ عَمّا لا لزومَ لَهُ ولا جَدْوى مِنْه مِنْ مَعارِفَ وفُنونٍ وآدابٍ، أَصْلَحُ مِنْ تَرْكِ ذَلِكَ. فَهَذِهِ المَعارِفُ والفُنونُ والآدابُ تَرْفِدُنا بِمَزيدِ قُوَّةٍ للسَّيْرِ على دَرْبِ الكَمالِ والكرامَةِ الإنسانِيَّيْنِ مَهما بَلَغَتْ شَوْكَةُ هذا الدَّرْب.

فَوَسْطَ هـذا العالَمِ الـذي لا تَنْجـو فيـهِ فِكَـرَةٌ أو قناعَـةٌ مِـنَ الشَّـكِّ فيها أو المُسـاءَلَةِ، يَبْـدو لي أنَّ المُعادَلَـةَ الوَحيـدَةَ التـي لا رَيْـبَ فـي صِحَّتِها هي التَّالِيَـة: إنْ تَخَلَّيْنـا عَـنْ كُلِّ هَـذِهِ الأشـياءِ التـي لا لُـزومَ لهـا ولا جَـدْوى آنِيَّـةً مِنهـا، وألْقَيْنـا السَّـمْعَ إلـى نِـداءِ الرِّبْحِ والكَسْـبِ دونَ أيِّ نِـداءٍ آخَرَ، فَلَنْ يَعْنـيَ ذَلِـكَ مِـنْ شَـيْء سِـوى الحُكْمِ علـى الأجْيالِ الطَّالِعَـةَ مِـنَ البَشَـرِ أنْ تَـكونَ أجْيالًا بِـدونِ ذاكِرَةٍ لا تَفْقَـهُ لِلحَيـاةِ، وَلِوجودِهـا فـي هـذا العالَـمِ، مِنْ مَعْنى. عِنْدَئِذٍ، لا دَهْشَ أنْ يَجِدَ الإنْسـانُ (العاقِلُ)، (الـ«الهومـو سـاپيانس»)، نَفْسَـهُ مُسْـتَقيلًا حُكْمًـا مِنَ المَسْـؤولِيَّةِ التـي وجِدَ لِكَيْ يَحْمِلَها: مَسْـؤوليَّةِ أنْ يَسـيرَ بِإنْسـانِيَّتِهِ إلـى مَزيـدٍ مِنَ الإنْسـانِيَّةِ!



الفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَووه

قِوامُ هـذا الكتابِ/البَيانِ طائِفَةٌ مِنْ الأفْكارِ ومِـنَ التَّأمُّلاتِ المُنَجَّمَةِ التـي سَبَقَ لـي أنْ أذَعْـتُ بَعْضًـا مِنْها على المَلأ بِمُناسَـبَةِ مُحاضَراتٍ دُعِيْـتُ إلـى إلْقائِهـا خِـلالَ السَّـنَواتِ الماضِيَـةِ، وأخُـصُّ بالذِّكْـرِ مِنْهـا المُحاضَـرَةَ التـي ألْقَيْتُها في نَيْسـانَ ٢٠١٢ في جامِعَـةِ ريو غراندي دل سـول بمدينَـةِ بورتـو أليغـري البرازيليَّـةِ عِنْدَ مَنْحـي شـهادَةَ الدُّكتوراه الفَخْرِيَّة.

وأُسـارِعُ فـي هـذا المَقـامِ إلـى إسْداءِ الشُّـكْرِ الجَزيلِ لصَديقـي إرفنغ لافْـن مِـنْ «مَعْهَـدِ الدِّراسـاتِ المُتَقَدِّمَـةِ» بِجامِعَـةِ بِرينسـتون لِفَضْلِـهِ فـي تَنْبيهـي علـى بَحـثِ أبراهـام فلكسـنر المُثْبَـتِ بِنَصِّـهِ علـى خِتام هـذا الكِتاب.

ففـي حزيـران ٢٠١١، خِـلالَ نَـدْوَةٍ دعـا إلَيْهـا «المَعْهَـدُ الإيطالـيُّ للدِّراسـاتِ الفَلْسَـفِيَّة» بنابولـي، اسْـتَرْعى اهْتِمـامَ لافْـن عُنْـوانُ مداخَلَتـي: «الإنْسـانِيّاتُ أوْ لِوَجْـهِ مـا لا يَلْـزَم»، ودَلَّنـي علـى بَحْـثِ أبراهـام فلكسـنر الـذي أعْتَـرِفُ بأنَّنـي كُـنْـتُ جاهِـلًا بِـهِ. اليَـوْمَ، وَقَـدْ غـادَرَ لافْـن هـذا العالَـمَ، كأنّـي بـي، إذْ أُثْبِتُ نَصَّ فلكسـنر الـذي كانَ لَـهُ الفَضْـلُ بـأنْ هَدانـي إلَيْـه، أُعرِبُ لَـهُ مُجَـدِّدًا عمّا كانَ مِـنْ إعجابي بِـهِ وبِعِلْمِـه.

يَـرِدُ اسْـمُ أبراهـام فلكسـنر علـى الصَّفْحَـةِ الثَّالِثَـةِ مِـنْ هـذا الكِـتابِ بِحَـرفٍ أصْغَـرَ قليـلًا مِـنَ الحَـرْفِ الذي يَـرِدُ بِهِ اسْـمي، ولَيْـسَ في هذا الخِيـارِ الإخراجِـيِّ أدْنـى تَقْليـلٍ مِـنَ شَـأْنِ الرَّجُـلِ ونَصِّـه. كُلُّ مـا فـي الأمْـرِ أنَّ فلكسـنر الـذي رَحَـلَ عَـنْ هـذا العالَـمَ فـي سَـنَةِ ١٩٥٩ لَـمْ يُسْتَشَـرْ فـي إثْبـاتِ نَصِّـهِ إلـى جانِبِ نَصّي، ومِـنْ ثَمَّ ففي هـذا الخِيارِ الإخْراجِـيِّ عِرفـانٌ بِجَميلِـهِ لا يُرَتِّبُ عَلَيهِ في شَـيْءٍ مَسْـؤوليَّةَ ما أقْتَرِحُ مِـنْ أفـكارٍ وتَأمُّلات.

خِتامًا، حَقٌّ عَلَيَّ أن أُكَرِّرَ شُكري الذي لا يَنْقَضي للوك هرسان، مُتَرْجِمِ أبْحاثي إلى اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّة، ولا يَفوتُني في مَعْرِضِ الشُّكْرِ أنْ أُنَوِّهَ بِكُلِّ ما اسْتَفَدْتُهُ مِنْ جورج شتاينر ومِنْ آلان فيليب سيچوند(*) خلالَ ما كانَ بَيْني وبَيْنَهُما مِنْ حِواراتٍ شَيِّقَةٍ لا يَعْفوها النِّسْيان.

(*) آلان فيليـب سـيچوند، (١٩٤٢ ـ ٢٠١١)، فَقيـهٌ لُغَـوِيٌّ مِـنْ أحْبـارِ اليونانِيّـاتِ واللّاتينيّـاتِ عِـلاوَةً علـى تَضَلُّعِـهِ مِـنَ الفَلْسَـفَةِ وتاريـخِ العُلـوم.

«يا حَيّاها مِنْ مُفاجَأَةٍ أنْ تَنْجليَ لي
جَدْوى ما لا لُزومَ لَهُ ولا جَدْوى مِنْه!».

فيكـتور هوغو

I

في الآدابِ
وَجَدْوَى لاجَدْواها

فِي أنَّ مَنْ لَيْسَ مَعَهُ
لا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الإعْراب

يَـرْوي ڤينشـينزو پـادولا، الرّاهِبُ الثّائِـرُ الذي عاشَ فـي كالابـري الإيطاليَّـةِ بيـن ١٨١٩ و١٨٩٣ ـ يَرْوي فـي سـيرَةٍ ذاتِيَّـةٍ لَـهُ أوَّلَ دَرْسٍ تَعَلَّمَـهُ فـي الحَيـاةِ فَيَقـولُ إنَّ والِـدَهُ سَـأَلَهُ يَوْمًـا أنْ يُفَسِّـرَ لَـهُ لِمـاذا يَتَقَـدَّمُ حَـرْفُ الـ«a» على سـائِرِ حُـروفِ الأبْجَدِيَّة؟ وَإذْ لَـمْ يَحِـرِ الإبْـنُ جوابًـا أعادَ السُّـؤالَ إلـى والِدِهِ راجِيًـا إيّـاهُ أنْ يُفَسِّـرَ لَـهُ السَّـبَبَ في ذَلِـك... ومِمّا قالَـهُ لَـهُ والِـدُهُ وَرَواهُ هـو في السِّـيرَةِ تِلْك:

«فـي عالَمِنـا البائِـسِ، لا مَحَـلَّ إلّا لِمَـنْ كانَ فـي مَرْتَبَـةِ الـ"a" مِـنْ أحْـرُفِ الهِجـاء؛ أمّـا المُعْدَمونَ فلا مَحَـلَّ لَهُم. لِهـذا يَتَقَدَّمُ حَـرْفُ الـ"a" سـائِرَ الحُروف. المُعْدَمـونَ فـي هـذا العالَـمِ أشْـبَهُ ما يَكونـونَ

بالحُروفِ السّاكِنَة، أمّا المُثْرونَ فَهُمْ حُروفُ العِلَّةِ، وكما تَعْرِفُ، يا بُنَيَّ، فَلَيْسَ لِصَوْتٍ أنْ يَتَأتّى مِنْ حَرْفٍ ساكِنٍ لا يُحَرِّكُهُ حَرْفُ عِلَّةٍ».

رَغْمْ أنَّ هذا الوَصْفَ لِلْمُجْتَمَعِ على ما كانَ عَلَيْهِ لِنَحْوِ قَرْنَيْنِ خَلَوا قَدْ تَقادَمَ نَوْعًا ما حَيْثُ إنَّ الانْقِسامَ الأُفُقِيَّ الصّارِمَ بَيْنَ طَبَقَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ لا يَصْلُحُ بَعْدُ لِوَصْفِ مُجْتَمعاتِنا، لا بُدَّ لنا مِنَ التَّسْليمِ بِأنَّ الامْتِلاكَ والحِيازَةَ ما يَزالانِ مُقَدَّمَيْنِ على مَحْضِ الوجودِ والكَيْنونَةِ وَلَوْ أنَّ تَقَدُّمَهُما باتَ يَصْطَنِعُ أشْكالًا وَهَيْئاتٍ مُلْتَوِيَةً أعْصى على التَّبَيُّنِ وعلى التَّعْيين.

ومِنَ الشَّواهِدِ على ذَلِكَ ما يَطْغاهُ هَمُّ الرِّبْحِ واسْتِدْرارِ المَكاسِبِ على سائِرِ سُلوكاتِنا بِما فيها ما يَتَعَلَّقُ بالمَعْرِفَةِ والثَّقافَة: ما يَظْهَرُ عَلَيْهِ الواحِدُ مِنَ النّاسِ أثْقَلُ في ميزانِ «الرَّأْيِ العامِّ» مِمّا هو عَلَيْهِ حَقًّا... بَلْ إنَّ قيمَةَ الواحِدِ مِنَ النّاسِ باتَتْ تُعْزى إلى السَّيّارَةِ الفارِهَةِ التي يَقودُها، وإلى السّاعَةِ المُحَلّاةِ بالأحْجارِ

الكَريمَـةِ التـي يُطَـوِّقُ بِهـا مِعْصَمَـهُ، وإلـى المَنْصِـبِ الرَّفيـعِ الـذي يَتَبَـوَّؤهُ أكَثْـرَ مِمّـا تُعْـزى إلـى عِلْمِـهِ ومَعارِفِـهِ وَثَقافَتِـه.

في أنَّ المَعارِفَ التي لا رِبْحَ مِنْ ورائِها لا جَدْوى مِنْها

بِنـاءً علـى مـا تَقَـدَّمَ، لَيْسَ مِـنْ قَبيـلِ الصُّدْفَةِ أنْ أُزْرِيَ بالعُلـومِ الإنْسـانِيَّةِ فـي المَناهِجِ الدِّراسِـيَّةِ، وفـي الميزانيّـاتِ الحُكومِيَّـةِ، وفـي مُؤَسَّسـاتِ البَحْـثِ العِلْمـي. فَفِيـمَ إنْفـاقُ الأمْـوالِ، كمـا يَقـولُ قائِلُهُـم، علـى مـا لا يَـدُرُّ رِبْحًـا؟ وفِيـمَ وَقْـفُ الأوْقـافِ علـى عُلـومٍ وَمَعـارِفَ لا مَنْفَعَـةَ اقْتِصادِيَّـةً مُباشَـرَةً وَمَلْموسَـةً مِنهـا؟

علـى أنَّـهُ، وعلـى أنَّنـا نَعيـشُ فـي عالَـمٍ يَتَقَـدَّمُ فيـهِ مُوجِـبُ قِيـاسِ الأشْـياءِ بِكَمِّيّاتِهـا، فـإنَّ لـلأدَبِ، كما لِعَدَدٍ مِـنَ العُلومِ الإنْسـانِيَّةِ والعُلومِ البَحْـتِ المُنْقَطِعَـةِ عَـنْ الجَـدْوى المَباشَـرَةِ مِنْها

ـ على ما سَوْفَ نُبَيِّنُ في فُصولٍ لاحِقَةٍ ـ للأدَبِ وَظيفَةٌ لا تَخْلو متى ما تَمَعَّنّا في بَعْضِ وُجوهِها أنْ تَكونَ جَوْهَرِيَّةً حَيْثَ إنَّ الأدَبَ، بِبَساطَةٍ، لا يُيَمِّمُ وَجْهَ أيِّ نَفْعٍ! إنَّما الأدَبُ فِعْلُ مُقاوَمَةٍ للنَّزَعاتِ الرِّبْحِيَّةِ التي تَسودُ عالَمَنا، وفِعْلُ تَصَدٍّ لما يَفْتُكُهُ المَنْطِقُ النَّفْعِيُّ بِنا وبِعلاقاتِنا الاجْتِماعِيَّةِ وَعَواطِفِنا الأكْثَرِ حَميمِيَّةً. فالأدَبُ، لِمُجَرَّدِ وُجودِهِ، شاهِدٌ على ما يُمْكِنُ لـ«المَجّانِيَّة» ولـ«التَّرَفُّعِ» أنْ يَكونَ لَهُما مِنْ أثَرٍ في حَياتِنا وعَلَيْها ـ لا غافِلًا أنَّ المَجّانِيَّةَ والتَّرَفُّعَ بِوَصْفِهِما قيمَتَيْنِ قَدْ خَرَجَتا، أوْ تَكادانِ، مِنْ قاموسِ القِيَمِ الذي نُحيلُ إلَيْه...

فَسَّرَ الماءَ...
أو سَمَكَتا ديڤيد فوستر والاس

على بِدايَةِ كُلِّ عامٍ جامِعِيٍّ يَحلو لي أنْ أتْلُوَ على طُلّابي فِقْرَةً مِنَ الخِطابِ الذي ألْقاهُ ديڤيد فوستر والاس في ٢١ أيّار (مايو) ٢٠٠٥

علـى خِرِّيجي مَعْهَـدِ كينيون بالوِلايـاتِ المُتَّحِدَةِ الأميركـيَّة.

خاطَـبَ الأديبُ الأميركـيُّ الذي لا يَسَـعُنا إلّا الرِّثاءَ لِرَحيلِـهِ المُبْكِـرِ في سَـنَةِ ٢٠٠٨ عَنْ سِـتَّةٍ وأرْبعينَ عامًـا ــ خاطَبَ يَوْمَـذاكَ طُلّابَهُ سـارِدًا عَلَيْهم قِصَّةً مِـنْ وَحْـي الخَيـالِ أرادَ مِـنْ ورائِهـا أنْ يُبَيِّـنَ لَهُـمْ دَوْرَ الأدَبِ وَوَظيفَتَـهُ:

«كانَ يـا مـكان سَمَكـتانِ فَتِيَّتـانِ تَسْبَحانِ فـي أحَدِ البِحـارِ... وفـي خِـلالِ سِـباحَتِهِما مَـرَّتْ بِهِما سَـمَكَةٌ مُسِـنَّةٌ ألْقَتْ عَلَيْهِمـا السَّـلامَ ثُـمَّ سَـألَتْهُما: "كَـيْفَ تَجِـدانِ المـاءَ يـا صَغيرَتَـيَّ؟". واصَلَـتِ السَّمَكـتانِ الفَتِيَّتـانِ السِّـباحَةَ بُرْهَـةً ثُـمَّ اسْـتَوْقَفَتْ إحْداهُمـا الأُخْـرى وسَـألَتْها: "أنْبِئيني يا هـذِه ... أتَعْرِفينَ أنْتِ ما هُـوَ المـاءُ؟"».

ويَسْتَطْرِدُ والاس:

«أمّـا العِبْـرَةُ، بِـلا لَـفٍّ ولا دَوَران، مِـنْ هذهِ السّـالِفَةِ الخَياليَّـةِ فَهـي أنَّ البَديهِيّـاتِ الأحَضَـرَ فـي حَياتِنـا، والأحَكْـمَ عَلَيها، هـي الأعْصـى، غالِبًا، علـى التَّعَيينِ والتَّسْمِيَة».

علـى غِـرارِ السَّمَكَـتَيْنِ الصَّغيرَتَيْـنِ فَنَحْـنُ، أيْضًا، لا نَفْقَهُ مـا هـو «المـاءُ» الـذي نَسْبَحُ فيـهِ طيلَةَ حياتِنـا، ولا نَفْقَهُ أنَّ الآدابَ والمَعـارِفَ والثَّقافَةَ هـي السّـائِلُ الحَيَـوِيُّ الـذي تَنْمـو فيـه مَفاهيـمُ الدّيمقراطيَّـةِ والحُرِّيَّـةِ والعَدالَـةِ والعَلْمانِيَّـةِ والتَّسـامُحِ والتَّضامُـنِ المُواطِنـيِّ وحُرِّيَّـةِ التَّعْبيـرِ والنَّقْـدِ ومـا إلَيْهـا، بَـلْ يُمْكِـنُ القَـوْلُ إنَّ هـذهِ المَفاهيـمَ ومـا يُصاحِبُهـا مِنْ قِـيَمٍ لا تَنْمـو عَفِيَّةً إلّا فـي هـذا السّـائِلِ.

الكولونيل بونديا وأسْماكُهُ الذَّهَب

بـلا تَـرَدُّدٍ، يُمْكِن القَـوْل إنَّ **مائَة عامٍ مِـنَ العُزْلَة**، روايَـةَ غابريـال غارثيـا ماركيـز[*] الأشْـهَرَ والأشْـيَعَ تَرْجَمَـةً، تَسْـكُنُ خَيـالاتِ المَلاييـنِ المُمَلْيَنَـةِ مِنْ القُـرّاءِ مِـنْ مُخْتَلَـفِ الأجْيـال. وَلَعَـلَّ عَمـودَ هَذِهِ

(*) غابريـال غارثيـا ماركيـز، (١٩٢٧ ـ ٢٠١٤)، روائـيٌّ وصِحافـيٌّ وناشِـرٌ وناشِـطٌ سِياسـيٌّ كولومبيّ. حـازَ فـي عـامِ ١٩٨٢ جائِـزَةَ نوبـل لـلآداب.

الرِّوايَـةِ هـو فـي شَـخَصِيَّةِ بَطَلِها أورليانـو بونديا التـي تُسْتَشَـفُّ مِـنْ وَرائِها جَـدْوى الأدَبِ فـي أرْفَـعِ صُوَرِهـا رَغْـمَ ظاهِرِ لاجَـدْواه.

مُعْتَكِفًا فـي مَسْبَكٍ سِرِّيٍّ يَسْـتَصْنِعُ الكولونيـلُ بونديـا أسْـماكًا ذَهَبًا صَغيرةً لا يَلْبَـثُ أنْ يُقايِضَها بِقِطَعِ نَقْدٍ ذَهَبِيَّةٍ، لا يَلْبَثُ أنْ يَصْهَرَها ويَسْـتَصْنِعَ مِنْها أسْـماكًا جَديـدةً وهكذا...

لا تَفـوتُ أورسُـلا، والِـدَةُ الكولونيـل، الطَّبيعَـةُ المُفَرَغَـةُ للدّائِرَةِ التي يَـدورُ فيها ابْنُها الكولونيل:

«لَـمْ تَفْهَـمْ أورسُـلا رَغْـمَ حِسِّـها العَمَلِـيِّ الثّاقِـبِ مـا يَنْصَـرِفُ إلَيْـهِ الكولونيـل مـن مُقايَضَـةِ أسـماكِهِ الصَّغيـرَةِ بِقِطَـعٍ نَقْدِيَّـةٍ ذَهَبِيَّـةٍ لا يَلْبَـثُ أن يَصْهَرَهـا ويَسْـتَصْنِعَ مِنهـا أسْـماكًا صَغيـرَةً وهكـذا دَوالَيـك... فَبِمِقْـدارِ مـا كانَـتْ تِجـارَةُ الكولونيـل تَزْدَهِـرُ كانَ يُضْطَـرُ إلـى إنْفـاقِ المَزيـدِ مِـنَ الوَقْـتِ ومِـنَ الجَهْـدِ فـي اسْـتِصْناعِ المَزيـدِ مِـنَ الأسْـماكِ مِمّا صَيَّرَهُ أسـيرَ دائِـرَةٍ مُغْلَقَـةٍ لا أوَّلَ لهـا ولا آخِـر. كانَ ذَلِـك، ولكِـنَّ الحَقيقَـةَ الحَقيقَـةَ هـيَ أنَّ هَـمَّ الكولونيـل كانَ الاسْـتِزادَةَ مِـنَ العَمَـلِ لا مِـنَ البَيْـعِ والتجـارَة...».

وهـذهِ الحَقيقَـةُ هـي مـا يَعْتَـرِف بِـهِ الكولونيـلُ نَفْسُـه حَيْـثُ يَقـولُ بأنَّ اسْـتِصْناعَ الأسـماكِ باتَ مِنْـهُ، مُنْـذُ زمَـنٍ بَعيدٍ، مَصْـدَرَ السَّـعادَةِ الوحيدَ:

«لَقَـدِ اقْتَضـاهُ أنْ يُشْـعِلَ نيـرانَ ثَـلاثٍ وثلاثيـنَ حَرْبًـا، ولَقَـدِ اقْتَضـاهُ أنْ يُخِـلَّ بِـكُلِّ المَواثيـقِ التـي انْعَقَـدَتْ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ المَـوْتِ، وأن يَتَمَـرَّغَ فـي المَجْـدِ كمـا يَتَمَـرَّغُ الخِنْزيـرُ فـي القُمامةِ ـ اقْتَضـاهُ كُلُّ ذَلِـكَ لِيَكْـتَشِفَ في نِهايَـةِ المَطافِ، بَعْـدَ نَحْـوِ أربعيـنَ عامًـا، فَضائِـلَ البَسـاطَةِ وَمُتَعَهـا».

نَعَـمْ، لَعَـلَّ هـذِهِ «البَسـاطَةَ» التي يُحَرِّكُنـا إلَيْها طَلَـبُ سَـعادَةٍ مُنْقَطِعَـةٍ مِنْ أيَّـةِ أسْـبابٍ رِبْحِيَّةٍ هـي فـي أصْـلِ الإبْـداعِ الأدَبِـيّ. فَهَـلِ الإبْـداعُ الأدَبِـيُّ إلّا جَهْـدٌ يَبْذُلُـهُ الأديبُ لا لِوَجْـهٍ مُحَدَّدٍ، ولا لاسْـتِجْلابِ مَصْلَحَـةٍ أوْ مَنْفَعَـةٍ مُحَـدَّدَةٍ، أوْ قابِلَـةٍ للتَّسْـليعِ ولِلْمُقايَضَـةِ الماليَّـةِ؟ هو كذلكَ، وبِمُجَـرَّدِ أنَّـهُ كَذَلِـكَ فهُـوَ المُخالَفَـةُ بِعَيْنِها على اسْـتِعلاءِ مَنْطِـقِ السّـوقِ ومُوجِـبِ الرِّبْحِيَّـةِ وحُكْمِهـا.

دانَتِه وبِترارك:
فـي أنَّ الأدَبَ لا يَخْضَعُ لِمَبْدأِ الرِّبْحِيَّة

لا جَديـدَ فـي مـا تَقـدَّمَ حَيْـثُ إنَّ فِكْـرَةَ خُـروجِ الأدَبِ عَـنْ مَبْـدَأِ الرِّبْحِيَّـةِ حاضِـرَةٌ لـدى آبـاءِ الأدَبِ الغَرْبِـيِّ. حَسْـبِي مَثَـلًا أنْ أُذَكِّـرَ بِدانْتِـه(*) وبِمـا كانَ مِـنْ تَسْـفيهِهِ أبْنـاءَ زمانِـهِ مِـنْ أدْعيـاءِ الأدَبِ الذيـنَ لا يَنْكَبّـونَ علـى تَحَصيـلِ الآدابِ لِنَفْسِـها بَـلْ لِمـا يَتَكَسَّبونَهُ مِـنْ وَرائِهـا:

«هَيْهـاتَ أنْ تَصِـحَّ علـى هَـؤلاءِ صِفَـةُ الأُدَبـاء. مُنْتَهـى قَصْدِهِـم مِـنَ الأدَبِ اسْـتِدرارُ المَنافِـعِ وطَلَـبُ الجَـاه. هَـلْ يُسَـمّى كُلُّ مَـنِ اقْتَنـى قيثـارَةً عازِفًـا؟».

بِكَلامٍ أوْضَح: لا شَأْنَ للآدابِ بالمَقاصِدِ النَّفْعِيَّة. وهذا ما يَذْهَبُ إلَيْهِ، بِدَوْرِهِ، فرانشيسكو بِترارك(*) الذي وَضَعَ جُمْلَةً مِنَ التَّأَمُّلاتِ الشِّعْرِيَّةِ

(*) دانتـه أليغييـري، (١٢٦٥ـ ١٣٢١)، شـاعِرُ إيطاليـا الأشْـهَر. صاحِـبُ **الكوميديا الإلهيَّة** فـي عِدادِ كَـثيرٍ سـواها. مِنْ آبـاءِ الإيطاليَّـةِ الحديثة.

(**) فرانشيـسـكو بِتـرارك، (١٣٠٤ـ ١٣٧٤)، شـاعِرٌ وعالِـمٌ يُعَـدُّ الرُّكْـنَ الرَّكيـنَ مِـنْ عَصْـرِ النَّهْضَـةِ الإيطالـيّ.

والنَّثْرِيَّةِ في ذَمِّ تِلْكَ الحُثالَةِ التي لا هَمَّ لها إلّا كَنْزُ الكُنوزِ وتَـكديسُ الثَّرَوات.

بالضِّـدِّ مِنْ هـذا الذَّمِّ، لا يَتَرَدَّدُ يترارك عَنْ مُناشَـدَةِ صَديـقٍ لَـهُ بـأنْ يَتَمَسَّـكَ بـ«أهْـدابِ النُّبْـلِ»، وأنْ يَنْصَـرِفَ إلـى الآدابِ لا مُباليًـا بِمـا قَدْ يَعـودُ عَلَيْهِ بِـهِ هـذا الانْصِـرافُ مِنْ ثَنـاءٍ وإطْـراءٍ أوْ بِما قَدْ لا يَعود:

«لا رِفـاقَ تأنَـسُ إلَيْهِم على طَريقِ ذاتِ الشَّـوْكَةِ هـذِهِ ولكِـنْ، نَشَـدْتُكَ، يـا ذا العَقْـلِ الرّاجِـحِ، أنْ تَسْـتَمْسِـكَ بأعْمـالِ النَّبالَـةِ وأهْدابِها!».

أرِسطو: لا لُزومَ عَمَلِيًّا للمَعرِفَة

وَقَبْـلَ دانْتِـه ويترارك كَـتَبَ أرسـطو فـي **مـا وراء الطَّبيعَـة** أنَّ «المَعْرِفَـةَ»، فـي صُوَرِهـا العُلْيـا، «لا غَـرَضَ عَمَلِيًّـا لهـا». فــ:

«مِـنْ أوَّلِ الأمْـرِ إلى يَوْمِنا هذا، إنَّما يَأخُذُ بِيَدِ البَشَـرِ فـي طَريـقِ الفَلْسَـفَةِ الانْدِهـاشُ مِمّـا هـي الأشْـياءُ عَلَيْـهِ والعَجَـبُ؛ [و]إذْ جَدَّ النّاسُ فـي طَلَبِ المَعْرِفَةِ،

وَسَعوا إلى خَطْبِ وُدِّها، [أي، إذْ تَفَلْسَفوا]، فإنَّما فَعَلوا ذَلِكَ لِسَبْرِ كُنْهِ الأشْياءِ لا سَعْيًا إلى اسْتِجْناءِ الأرْباحِ. [...و] مِنْ ثَمَّ، فَمِمَّا لا يَحْتاجُ إلى مَزيدِ بَيانٍ أنَّ الفَلْسَفَةَ لا تَبْتَغي بُغْيَةً مُنْفَكَّةً عَنْها. وعلى غِرارِ ما تَصِحُّ على الرَّجُلِ الذي لا يَعْمَلُ إلّا قِيامًا بِأَوَدِهِ، لا بِأَوَدِ غَيْرِهِ، صِفَةُ الحُرِّ، كذَلِكَ فإنَّ هذا العِلْمَ الشَّريفَ، الفَلْسَفَةَ، هو، دونَ سائِرِ العُلومِ، الوَحيدُ الذي يَصْدِقُ فيهِ وَصْفُ الحُرِّيَّةِ باعْتِبارِ أنَّ مَدارَهُ على نَفْسِهِ ولا مَوْضوعَ لَهُ إلّا ذاتُه».

بِناءً عَلَيْهِ، ولأنَّ الفَلْسَفَةَ لا تُسْتَرَقُّ لأيَّةِ غايَةٍ عَمَلِيَّةٍ نَفْعِيَّةٍ فَهِيَ الحُرَّةُ بَيْنَ العُلومِ وهي سَبيلُ البَشَرِ إلى التَّألُّهِ؛ («وَبِهَذا اللِّحاظِ فإنَّ التَّمَكُّنَ مِنْ هذا العِلْمِ، [مِنَ الفَلْسَفَةِ]، يَرْفَعُ المُتَمَكِّنَ مِنْهُ دَرَجاتٍ فَوْقَ طَبيعَتِهِ البَشَرِيَّة»).

بَيْنَ المُنَظِّرِ والمَلِكِ/الفَيْلَسوف: في تَناقُضاتِ أفلاطون

بِتَعْريفِ الفَلْسَفَةِ على هذا النَّحْوِ، يَرْفَعُ أرسطو إشْكالًا أفلاطونِيًّا لَمْ يَزَلْ يُحيقُ بِصورَةِ الفَيْلَسوفِ

فـي تَأَرْجُحِـهِ بَيْـنَ الانْصِـرافِ إلـى التَّأَمُّـلِ الخالِـصِ وبَيْـنَ المُشـارَكَةِ فـي الشَّـأْنِ العامّ.

في الكِتابِ السّـادِسِ مِـنَ الجُمْهوريَّة يَقولُ أفلاطون علـى لِسـانِ سُـقراط: «إنَّ هَـؤلاءِ، عامَّةَ النّـاسِ، قَلَّما يُلْقـونَ السَّـمْعَ، بِمـا فيـهِ الكِفايَـةُ، لِمـا يَصْـدرُ مِـنَ الأقْـوالِ عَـنِ المَشـاعِرِ النَّبيلَـةِ، أعْنـي للأقْـوالِ التـي يُـرادُ مِـنْ وَرائِهـا نُشْـدانُ الحَقيقَـةِ وبُلـوغُ مَقـامِ المَعْرِفَـة». أمّـا فـي الكِـتابِ السّـابِعِ، وفـي سـياقِ الحَديـثِ عَـنْ تَعْليـمِ النَّـشْءِ، فيُؤَكِّـدُ سُـقراط على ضَـرورَةِ ألّا يُقْصَـرَ التَّعْليـمُ علـى بَرْنامَـجٍ ذي بِنْيَـةٍ إلْزامِيَّـةٍ فـ:

> «لَيْسَ لِلْحُرِّ أنْ يُعامَـلَ مُعامَلَةَ العَبْـدِ حتّى في مَجالِ التَّرْبِيَةِ والتَّعْليم».

إيمانويل كانط: إنَّما أحْكامُ الذَّوْقِ مِنْ بابِ ما لا لُزومَ لَهُ ولا جَدوى مِنْه

مَـعَ إيمانويـل كانـط دَخَلـتِ الأحْـكامُ الذَّوْقِيَّـةُ الجَمالِيَّـةُ تَحْـتَ حَـدِّ ما لا لُـزومَ لَهُ ولا جَـدْوى مِنْه.

ففـي الصَّفَحـاتِ الأوْلـى مِـنْ **نَقْـدِ مَلَـكَةِ التَّقْديـر** يُثْبِـتُ الفَيْلَسـوفُ الألمانـيُّ أنَّ اسْـتِحْضارَ أمْـرٍ مـا اسْـتِحْضارًا عَقْلِيًّـا كَفيـلٌ بـأنْ يَتَوَلَّـدَ عَنْـهُ لـدى المُسْـتَحْضِرِ شُـعورٌ بالرِّضا بِصَرْفِ النَّظَـرِ عَنْ حَقيقَةِ وُجـودِ هـذا الأمْـرِ أوْ عَدَمِهـا:

«ومِمّـا لا مَـراءَ فيـهِ أنَّ اسـتحضارَ أمْـرٍ مـا فـي العَقْلِ، بِصَـرْفِ النَّظَـرِ عَـنْ حَقيقـةِ [وجـودِ] هـذا الأمْـرِ أو عَدَمِها، هـو المُعَـوَّلُ عَلَيْـهِ فـي الحُكْـمِ عَلَيْـهِ ـ على هـذا الأمْـرِ ــ بالجَمـالِ، وهـو المُعَـوَّلُ عَلَيْـهِ، تاليًـا فـي إثْبـاتِ تَمَتُّـعِ الواحِـدِ مِـنَ النّـاسِ بِمَلكَـةِ التَّقْدير هـذهِ [...]؛ وَمِمّـا يَجْلـو هَـذهِ المُقَدِّمَـةَ ذاتَ الأهَمِّيَّةِ القُصْـوى مـا يَفْتَرِقُـهُ الرِّضـا المُتَرَفِّـعُ الـذي يَسْتَشْـعِرُهُ الواحِـدُ مِنّـا مِـنْ خِـلالِ تَقْديـرِهِ الذَّوْقِـيِّ وأحْكامِـهِ الذَّوْقِيَّـةِ عَـنِ الرِّضا الذي يُشْـتَرَطُ للشُّـعورِ بِـهِ حُضورُ المَرْضِـيِّ عَنْـهُ حُضـورًا جِسْـمِيًّا مَلْموسًـا».

فالمَنْفَعَـةُ، فـي عُرْفِ كانـط، مُرْتَبِطَـةٌ أوْثَـقَ الارْتِباطِ بالمُتْعَـةِ وَبِوجودِ الشَّـيءِ الذي هو مَوْضـوعُ المُتْعَةِ هَـذِه. يَقول:

«صِنْـوُ المَنْفَعَـةِ الحاجَـةُ أو مـا يُرَتِّـبُ حاجَـةً مـا باعْتِبـارِ أنَّ الرِّضـا إنَّمـا هـو فـي تَلْبِيَـةِ هـذه الحاجَـةِ

المَغْـروزَةِ فينـا أو المُسْـتَحْدَثَةِ لَدَيْنا. مِنْ ثَمَّ لا تَسْـري علـى تَقَديرِنـا لِمـا يُلَبّـي هـذِهِ الحاجَـةَ صِفَـةُ التَّقْديرِ الحُـرّ. تَلْبيَـةُ داعي الجَمـالِ هي التَّلْبِيَـةُ الوَحيدَةُ التي تَصْدِقُ عَلَيْها صِفَتـا التَرَفُّعِ والحُرِّيَّـةِ باعْتِبـارِ أنَّها مُسْـتَغْنِيَةٌ عـن اسْـتِجْلابِ أيَّـةِ مَنْفَعَةٍ مادِيَّة حِسِّـيَّةٍ أو عَقْلِيَّة».

بانِيًا على هـذِهِ المُقَدِّماتِ يَتَوَصَّـلُ كانـط إلـى تَعْريـفِ الـذَّوْقِ فَيَقـول:

«الـذَّوْقُ هـو مَلَكَـةُ تَقْديـرِ شَـيْءٍ مِـنَ الأشْـياءِ، أو هو حُضـورُ شَـيْءٍ مِـنَ الأشْـياءِ، بِنـاءً علـى مـا يُوْرِثُنـا هذا الشَّـيْءُ، أو حُضـورُهُ، مِـنْ شُـعورٍ بالرِّضا أو مِنَ شُـعورٍ بالكَـدَر، بِصَـرْفِ النَّظَـرِ عَـنْ أيَّـةِ مَنْفَعَـة. الجَميـلُ، اسْـتِطرادًا، هـو مـا يُشْـعِرُنا، [تَحْتَ هَذِهِ الظَـروفِ مِنَ التَّقْديـرِ]، بالرِّضـا».

أوڤيد:

لا ألْزَمَ مِنَ الفُنونِ التي لا لُزومَ لها

يَكادُ أوڤيد(*) أنْ يَـكونَ مِنْ أسْـهَبِ الأدباءِ تَعَرُّضًا

(*) أوڤيد: شاعِرٌ رومانيٌّ كانَتْ وِلادَتُهُ سَنَةَ ٤٣ قَبْلَ الميلادِ وَوَفاتُهُ سَنَةَ ١٧ بَعْدَه.

لِلُّـزومِ وعَدَمِـه. وفي الرَّسـائِلِ التي بَعَـثَ بِها إلى صديقِهِ أوريليوس كوتا ماكسـيموس ميسّـالينوس يُقِـرُّ أوڤيـد، بـلا لَـفٍّ ولا دَوَران، بأنَّـهُ «متـى ما نَظَـرَ النّاظِـرُ إلـى ما انْصَرَفْـتُ إلَيْـهِ فـي حَياتـي فَلَـنْ يَجِـدَ فيهـا مِـنْ شَـيْءٍ مُفيـدٍ إلّا مـا ثابَرْتُـهُ خِلالِهـا علـى مـا لا جَـدْوى مِنْـه ولا فائِدَة».

صَحيـحٌ أنَّ أوڤيـدَ يـرى فـي الشِّـعْرِ، أحْيانًـا، دَواءً شـافِيًا لآلامِ المَنْفـى، («فـي الشِّـعْر تَسْـلِيَةٌ عَـنِ البَلْـوى التـي أنـا فيهـا»)، إلّا أنَّهُ يُـدْرِكُ جَيِّـدًا أنَّهَ لا نَفْـعَ يُرَجّـى مِنْـه: «حتّـى الآنَ لَـمْ تَعُـدْ عَلَـيَّ مَؤَلَّفاتـي بـأيِّ نَفْـعٍ، ومِـنْ بَـرَكاتِ السَّـماءِ أنَّ أيًّـا مِنْهـا لَـمْ يُلْحِقْ بـي أيَّ ضرّ» ـ (ويقـول أوڤيدُ ما يَقـولُ عِلْمًا أنَّ أشْـعارَهُ هـي التي تَسَـبَّبَتْ لَهُ بِأنِ اضْطُـرَّ إلـى المَنْفـى علـى ما يَـرِدُ أعْلاه).

مَعَ هـذا جَميعًـا، فـإذْ يُجيـبُ أوڤيـدُ عَـنْ سُـؤالِ صَديقِـهِ المُنْدَهِـشِ مِنْ إصْرارِهِ ـــ إصْرارِ أوڤيدَ ـــ على الكِـتابَةِ يقول:

«نَعَـم، إنَّنـي مُصِـرٌّ على المُضِـيِّ فـي هـذا السَّـبيلِ

شَأني فـي ذَلِـكَ شَـأْنَ المُصـارِعِ الـذي لا تَـرُدُّهُ الجِراحـات التـي يُمْنـى بِهـا مِنَ العَـوْدَةِ إلـى الحَلَبَةِ، أو شَـأنَ البَحّـارِ الـذي لا يَـرُدُّهُ مـا أوْشَـكَ عَلَيْـهِ يَوْمًـا مِـن غَـرَقٍ مُحَتَّمٍ أنْ يعـود إلـى ركـوبِ البَحْـر!».

دو مونتنيه:

لا شَيْءَ لا لُزومَ لَهُ حتّى ما لا لُزومَ لَهُ!

لَيْـسَ لِكِـتابٍ فـي نَفْـسِ قارِئِـه مـا لِكِـتابِ **المُحـاولات**. إبتـداءً، يُصـارِحُ ميشـال دو مونتنيـه قُـرّاءَ كتابِـهِ بأنَّـهُ لَـمْ يُحَـرِّرْ هَـذهِ الصَّفَحـاتِ إلّا إجابَـةً لِـدَواعٍ شَـخْصِيَّةٍ خاصَّـة. وحتّـى إنْ تابَـعَ الواحِـدُ مِنّـا الباحِثَـةَ فاوْسـتا غاراقيني في نَبْشِـها هـذهِ الدَّواعِـيَ الذّاتِيَّةَ الخاصَّةَ، وسَـلَّمَ مَعَها بأنَّها شَـيْءٌ مِـنْ قَبيـلِ دِفـاعِ كائِـنٍ وَجَـدَ نَفْسَـهُ فَجْـأةً مُبَعْثَـرًا مُبَـدَّدًا عَـنْ نَفْسِـهِ، فـإنَّ هـذهِ المَعْرِفَـةَ بالدَّواعـي تِلْـكَ لا تُـقَدِّمُ فـي شَـيْءٍ ولا تُؤَخِّـر.

يَقـولُ دو مونتنيـه مُخاطِبًـا القارِئَ الذي قَـدْ يَقَعُ هـذا الكِتابُ بَيْـنَ يَدَيْه:

«بناءً عَلَيْهِ، يا قارِئي، فأنا نَفْسي مادَّةُ هذا الكِتابِ ومَوْضوعُهُ؛ فاسْتَبِنْ إذًا بأنَّكَ إذْ تُطالِعُهُ فإنَّما تُنْفِقُ وَقْتَك في أمْرٍ لا طائِلَ مِنْه».

المُحاولات، إذًا، كِتابٌ لا جَدْوى مِنْه؟

بَلْ يَذهَبُ دو مونتنيه إلى أبْعَدَ مِمّا تَقدَّمَ حَيْثُ إنَّهُ يُشْرِكُ القارِئَ بأنَّهُ جَعَلَ المَكْتَبَ الذي كَتَبَ فيه هذا الكِتابَ مَحَلَّ غُرْفَةِ المَلابِسِ التي هي أقَلُّ الأمْكِنَةِ مِنَ المَنزِلِ لُزومًا وجَدْوى. في هذا المَكْتَبِ المُرْتَجَلِ يَقْضي الكاتِبُ، مُنْعزِلًا، سَحابَةَ أوقاتِهِ دارِسًا مُطالِعًا مُسْتَغْرِقًا في تَحْصيلٍ لا يُرَجى مِنْهُ أيُّ نَفْعٍ أو جَدْوى:

«في شَبابي انْكَبَبْتُ على التَّحْصيلِ طَلَبًا للجاهِ والسُّؤْدَدِ، وفي كُهولَتي انْكَبَبْتُ على التَّحْصيلِ طَلَبًا للحِكْمَةِ، أمّا الآنَ فأفْعَلُ لا لِوَجْهِ شَيْءٍ سِوى اللَّهْوِ والمُتْعَة».

ولا يَفوتُ الفَيْلسوفَ الفَرَنْسِيَّ، بِطَبيعَةِ الحالِ، أنَّ الفَلسَفَةَ التي يَنْصَرِفُ إلَيْها في ما يَنْصَرِفُ إلَيْهِ مِنْ علومٍ مَوْضِعُ زِرايَةٍ وَتَبْكيت:

«نَعَم، إنَّهُ لأمْرٌ كَبيرٌ أن يَصِلَ الأمْرُ في زَمانِنا هذا إلى الإزْراءِ بِالفَلْسَفَةِ والحَطِّ مِنْ قَدْرِها والتَّقْليلِ مِنْ شَأْنِها على يَدِ أُولَئِكَ الذينَ تَأْلَفُ مِنْهُمُ الفِطْنَةَ بِحُجَّةِ أنَّها بَحْثٌ في الخَياليّاتِ والوَهْمِيّاتِ لَيْسَ إلّا...».

على الرَّغْمِ مِنْ هذا جَميعًا فإنَّ دو مونتنيه لا يَسْتَسْلِمُ ولا يُلْقي السِّلاحَ بَلْ يَدْعو قُرّاءَهُ، في غَيْرِ مَوْضِعٍ، إلى التَّأمُّلِ في ما يَتَعارَفُ النّاسُ على وَصْمِهِ بالنّافِلِ وبِما لا لُزومَ لَهُ ولا فائِدَةَ مِنْه:

«يَنْبغي أنْ يُبْعَثَ في صُدورِ النّاسِ احْتِقارُ الذَّهَبِ والحَريرِ وسِواهُما مِنَ الأُمورِ الباطِلَةِ كالجاهِ وحُبِّ المعالي».

ولا تَغيبُ عَنْ دو مونتينه غُرْبَتُهُ عَنْ بَني زَمانِهِ حَتّى في ما لا يُؤْخَذُ عَلَيْهِ مِنْ صِفات:

«حتّى صِفاتي التي لا أُلامُ عَلَيْها لا لُزومَ لها في هذا العَصْرِ ولا جَدْوى مِنها. فَتَسامُحي يُحْمَلُ على مَحْمَلِ الضَّعْفِ والجُبْنِ، وتَمَسُّكي بالوَفاءِ وبِإرضاءِ ضَميري يُحْمَلُ على مَحْمَلِ الوَسْوَسَةِ والتَّطَيُّر، أمّا صراحَتي في قَوْلِ الحَقِّ فَتُنْسَبُ إلى قِلَّةِ الأدَبِ، وحُرِّيَّتي إلى التَّهَوُّر».

لا تَدَّعـي مُحـاولاتُ دو مونتينـه أنَّهـا أكْـثَرُ مِـنْ شـهادَةٍ شَـخْصِيَّةٍ، وبِهذا الوَصْفِ فإنَّها لا تَسْـكُتُ عَمَّـا قَـد يُضيـرُ صاحِبَهـا. كَذَلِكَ لا يَتَـرَدَّدُ مِـنَ الاعْتِـرافِ، إنْ جـازَتِ العِبـارَةُ، بـأنَّ أوليـاءَهُ، وإنْ لَـمْ يَتَوَجَّسـوا يَوْمًـا أن يَمْضـيَ فـي مَناكِبِ الشَّـرِّ والرذيلَـة، لَـمْ يَفُتْهُـم أنْ يَتَوَجَّسـوا أنْ يَمْضـي في طَريـقِ البَطالَـةِ وأنْ يُوَظِّـفَ نَفْسَـهُ علـى مـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا فائِـدَةَ مِنْـه:

> «ولا بَـأْسَ لرُبَّمـا أنْ تُسَـنَّ تَشْـريعاتٌ، علـى غِـرارِ التَّشْـريعاتِ التـي يُحْجَـرُ بِمُوجِبِهـا على المُشَـرَّدينَ، يَكـونُ مِـنْ شَـأْنِها أنْ تَضْبُـطَ الأُدبـاءَ الحُمْقـى والبطّاليـن. ولَعَلّـي أنْ أُعَـدَّ، كمـا غَيْـري مِنَ الأُدبـاءِ، فـي عِـدادِ هَـؤلاءِ البَطّاليـن. وأقـولُ قَوْلـي هـذا لا هـازِلًا ولا مَـنْ يَحْزَنـون!».

بالطَّبْـعِ، لا يَنْبَغـي أن يُحْمَـلَ كَلامُ دو مونتينـه علـى نَصِّـهِ وحَرْفِـهِ، وهـو مـا شَـدَّدَ عَلَيْـه أندريه تورنـون فـي تَعْليقاتِـهِ علـى هـذه الفِقْـراتِ مِـنَ المُحـاولاتِ، بَـلِ الأَوْلـى، لَرُبَّمـا، أنْ نَـرى فيهـا ما تَمَتَّـعَ بِـهِ المُفَكِّـرُ مِـنْ وَعْـيٍ ثاقِـبٍ أتـاحَ لَـهُ أنْ

يَـرى بالعَيْنِ نَفْسِـها نُفولَ مَكانِـهِ في العَصْرِ الذي عـاشَ فيـهِ، ولُـزومَ كُلِّ مـا لا يَلْـزَمُ فـي الطَّبيعَـةِ والحَيـاةِ، بِمـا فـي ذلـكَ مـا لا يَلْـزَمُ نَفْسُـه.

ليوپاردي المُتَسَكِّع:
في أنَّ الانْحِيازَ إلى النّافِلِ مُخالَفَةٌ على نَفْعِيَّةِ هذا «العَصْرِ الصَّلِفِ والأبْلَه»

طَـوالَ عامَيْـنِ اثْنَيْـنِ، (١٨٣١ و١٨٣٢)، انْصَـرَفَ الشّـاعِرُ الإيطالـيُّ جاكومـو ليوپـاردي(*) وصَديقُـهُ الحَميـمُ أنطونيـو رانييـري(**) إلـى العَمَـلِ علـى إصْـدارِ مَطْبوعَـةٍ أُسْبوعيَّـةٍ «لا لُـزومَ لهـا ولا جَـدْوى مِنهـا». ففـي زَمَـنٍ هَـمُّ أبْنائِـهِ اسْـتِجلابُ المنافِـعِ، لا مَفَـرَّ مِـنَ المُرافَعَـةِ عَمّـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا جَـدْوى مِنْـه:

«فـي هـذا الزَّمَنِ الـذي تَبْدو فيـهِ سـائِرُ المَطْبوعاتِ

(*) جاكومو ليوپاردي، (١٧٩٨ ـ ١٨٣٧)، شاعِرٌ وكاتِبٌ إيطاليّ.

(**) أنطونيـو رانييـري، (١٨٠٦ ـ ١٨٨٨)، أديـبٌ إيطالـيٌّ رافَـقَ جاكومـو ليوپـاردي خِـلالَ سَـنَواتِ عُمْـرِهِ الأخيـرة. عِـلاوَةً علـى عَـدَدٍ مِـنَ المُؤَلَّفـاتِ، يُذْكَـرُ رانييـري بأنَّـهُ وَقَـفَ بَعْـدَ رَحيـلِ ليوپـاردي علـى نَشْـرِ آثـارِه.

مِـنْ كُــتُبٍ ومَنْشـوراتٍ وحتّـى مِنْ بطاقـاتِ تَعْريفٍ شَـخْصِيَّةٍ مُوَجَّهَـةٌ وُجْهَـةً نَفْعِيَّـةً، مِنَ المُفيـدِ، بَلْ مِنَ الضَّـروريِّ فـي عُرْفِنـا أنْ نُبـادِرَ إلـى إصْـدارِ مَطبوعَةٍ شِـعارُها أنْ لا لُـزومَ لهـا ولا فائِـدَةَ مِنْهـا. شـيمَةُ الإنْسـانِ أنْ يُحـاوِلَ التَّمَيُّزَ عَنْ بَني جِنْسِـهِ، ولمّا كانَ أبْنـاءُ الجِنْـسِ مُسْـتَغرِقينَ فـي ما هو نافِـعٌ ومُجْدٍ، لا يَبْقـى لِمَـنْ يُريـدُ التَّمَيُّـزَ عَنْهُـم إلّا أن يَتَعَبَّـدَ لِوَجْـهِ مـا لا يَلْزم!».

ولمّـا كانَـتْ قَناعَـةُ ليوپـاردي أنَّ المُمْتِـعَ مُقَـدَّمٌ علـى المُفيدِ، فَلَقَد تَوَسَّـمَ في النِّسـاءِ اللّامبالِياتِ جُمْهـورًا لهـذِهِ المَطْبوعَـةِ: «ولا أقْصِـدُ النِّسـاءَ هَـؤلاءِ مِنْ بـابِ مُجامَلَتِهِـنَّ وإنّما لِما أُقَـدِّرُ أنَّهُنَّ يُحْسِـنَّهُ مِـنْ ظَـنٍّ فـي مـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا جَدْوى مِنْه»...

لَـمْ يَحْصُـلْ ليوپـاردي وصديقُـهُ علـى الرُّخْصَـةِ المَطْلوبَـةِ لإصْـدارِ هـذِهِ المَطبوعَـةِ مِـنَ السُّـلُطاتِ الفلورَنْسِـيَّةِ، بَيْـدَ أنَّ عَـدَمَ حُصولِهمـا عَلَيْهـا لا يُقَلِّـلُ فـي شَـيْءٍ مِـنْ فَضْـلِ المُحاوَلَـةِ التـي قامـا بِهـا.

وبِما أنَّ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ يُذْكَرُ، لا بأسَ مِنَ الإشارَةِ إلى أنَّ مَشروعَ المَطْبوعَةِ هذهِ لَمْ يَكُنْ أوَّلَ قُرْبانٍ يَسْعى ليوپاردي إلى تَقْديمِهِ على مَذْبَحِ النّافِلِ وما لا لُزومَ لَهُ. فَقَبْلَ أعْوامٍ على ذَلِكَ خَطَرَ لَهُ أنْ يَضَعَ مَوْسوعَةً ــ لا أقَلَّ مِنْ ذَلِكَ! ــ يَقِفُها على المَعارِفِ التي لا لُزومَ لها ولا جَدْوى مِنها! على غِرارِ تِلْكَ المَطْبوعَةِ، لَمْ يُكْتَبْ لِهَذِهِ المَوْسوعَةِ أنْ تَرى النّورَ ولكنَّ مُجَرَّدَ التَّفْكيرِ بِوَضْعِها يُخَبِّرُ عَنِ القَلَقِ العَميقِ الذي كانَ يَعْتَمِلُ في نَفْسِ أديبٍ يَعيشُ مُتَغَرِّبًا في مُجْتَمَعٍ يَسودُ فيهِ، وعَلَيْهِ، على ما يَرِدُ في رِسالَةٍ وَجَّهَها ليوپاردي إلى ناشِرِهِ في تموز ١٨٢٧ــ «التُّجّارُ ومَنْ على شاكِلَتِهِم مِنْ طُلّابِ المالِ والثَّرْوَة»:

«كأنّي بِهِم، [ناسِ هذا العَصْر]، يَخْتَلِفونَ في كُلِّ شَيْءٍ إلّا في ما يَنْسِبونَهُ مِنْ قَدْرٍ إلى المالِ ومِنْ شَأنٍ حتّى لَيَكادُ الواحِدُ أنْ يَظُنَّ بأنَّ المالَ، والمالَ وَحْدَهُ، هو، في قناعَتِهِم، جَوْهَرُ الكائنِ البَشَرِيِّ وماهِيَّتُهُ. إنَّ الشَّواهِدَ لَتَتَضافَرُ أنَّ

الإعلاءَ مِنْ قَدْرِ المالِ وَشَأْنِهِ مَبْدأٌ أزَلِيٌّ. ولَعَلَّهُ علا أكْثَرَ في زَمانِنا هذا. وإذْ يَكونُ هذا فإنَّ كُلَّ الصِّفاتِ القَبيحَةِ، مِنْ لامُبالاةٍ وأنانِيَّةٍ وبُخْلٍ وزَيْفٍ وخُبْثٍ، تَنْتَشِرُ وتَفْشو، فيما الصِّفاتُ الحَميدَةُ تَنْحَسِر».

لَمْ يَرْمِ ليوپاردي مِنْ خلالِ دفاعِهِ عَنِ النّافِلِ وعَمّا لا لُزومَ لَهُ أنَّ يَتَسَقَّطَ للنَّشاطِ الفِكْريِّ حَبْلَ نَجاةٍ يَتَمَسَّكُ بِهِ فَحَسْبُ، ولكنَّهُ سَعى أيْضًا إلى التَّأْكيدِ على أهَمِيَّةِ الحَياةِ والأدَبِ والحُبِّ والخَيالِ وَسْطَ عَصْرٍ لَمْ يَتَرَدَّدَ عَنْ وَصْفِهِ بـ«الصَّلِفِ والأبْلَه».

جون لوك: ضِدَّ الشِّعْر

مُتَحَزِّبًا لِلْمَنْطِقِ النَّفْعِيِّ، يَذْهَبُ جون لوك(*) في دِفاعِهِ عن أوَّلِيَّةِ كُلِّ ما لَهُ لُزومٌ وجَدْوى إلى مُهاجَمَةِ الشِّعْر.

ففي رِسالَةٍ وَضَعَها لوك وأدارَها على مَبادِئِ

(*) جون لوك، (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤)، فَيْلَسوفٌ ومُفَكِّرٌ سِياسِيٌّ إنْجليزيّ.

التَّرْبِيَـةِ، يَنْتَقِـدُ أَشَـدَّ الانْتِقـادِ أولَئِـكَ الذيـن يَفرِضـونَ علـى الأَوْلادِ تَعَلُّـمَ مَبـادِئِ العَـروضِ:

«إنْ لَـمْ يَتَمَتَّـعِ الوَلَـدُ بذائِقَـةِ الشِّـعْرِ فَعَبَثًا إرْهاقُـهُ بِتَعَلُّـمِ مـا يُضَيِّـعُ وَقْتَـهُ طالَمـا أَنَّـهُ أَصْلًا لَـنْ يَبْـرَعَ فيـه».

وَلكنَّـهُ لا يَكْتفـي بِذَلِـكَ فَحَسْـبُ بَـلْ يَنْتَقِـدُ بِعبـاراتٍ أَشَـدَّ أُولئِـكَ الأوليـاءَ الذيـن يَدَعـونَ لأَبْنائِهِـم ذَوي المواهِـبِ الشِّـعْرِيَّةِ أن يُنَمّـوا هَـذِهِ المواهِـبَ:

«وإذا اتَّفَـقَ لِوَلَـدٍ أَنْ أوتـيَ مَوْهِبَـةَ الشِّـعْرِ فإنّـي لأَسْـتَغْرِبُ كُلَّ الاسْـتِغْرابِ أَنْ يَنْشُـدَ أَوْلِيـاؤُهُ أَنْ تَنْمُـوَ هـذهِ المَوْهِبَـةُ لَدَيْـهِ أو أَنْ يُعينـوهُ علـى تَنْمِيَتِهـا».

ففـي شَـرْعِ لـوك، لا فائِـدَةَ مادِّيَّـةً تُرْجّـى مِـنْ صُحْبَـةِ شَـياطينِ الشِّـعْرِ:

«... مِـنْ ثَـمَّ يَبدو لـي أنَّ الأَحْـرى بالأهْـلِ أَنْ يَكْبُتـوا قَـدْرَ المُسْـتَطاعِ هَـذِه المَوْهِبَـة. فالحَقيقةُ أنّـي لا أفْهَـمُ تَشْـجيعَ والِـدٍ لِوَلَـدِهِ على الشِّـعَرِ إلّا تَنْفيـرًا لَـه عَـنْ مِهَـنِ الحيـاةِ الأُخـرى. وهُنـاكَ مـا هُـوَ أَسْـوأُ مِـنْ كُلِّ هـذا بَعْـدُ: فَلِنَفْتَـرِضْ أَنَّ الوَلَـدَ

بَـرَعَ فـي نَظْمِ الشِّـعْرِ، أيَـنْ تَظُنُّهُ سَـيَقضي أوقاتَهُ وسَـيَصْرِفُ أمْوالَـه؟ هَلْ سَـمِعَ أحَدٌ مِنّـا عَنْ مناجِمِ ذَهَـبٍ وفِضَّـةٍ فـي جِبـالِ البِرنـاس؟(*) لَعَـلَّ هَـواءَ تِلْـكَ الجِبـالِ عَليـلٌ ولَكْـنَّ تُرْبَتَهـا جَدْبـاءُ فَقيـرَةٌ... فَقَليـلٌ، قَليـلٌ جِدًّا، مِمَّـن اخْتارَها وَطَـنًا أفْلَحَ في زِيـادَةِ ثَرْوَتِـهِ مِـنَ التَّنْقيـبِ فـي أرْضِها».

مِمّـا لا جِدالَ فيهِ أنَّ غايَـةَ التَّرْبِيَةِ والتَّعْليمِ على مـا رأى لـوك إلَيْهِمـا هـي تَــكْوينُ «الجَنْتِلمـان» المُتَمَتِّعِ بالكَفـاءَاتِ العِلْمِيَّـةِ والتِّقْنِيَّـةِ التـي تُمَكِّنُـهُ مِنْ خَـوْضِ الحَيـاةِ العَمَلِيَّةِ ومِـنَ النَّجاحِ فيهـا. ولَعَلَّنـا أنْ نَعْذُرَ شِـدَّةَ نَــكيرِهِ على الشِّـعْرِ وعلـى التَّشْـجيعِ عَلَيْـهِ إذا ما أخَذْنا فـي الاعْتبارِ مـا سـادَ فـي المَناهِـجِ التَّرْبَوِيَّـةِ فـي زَمانِـهِ مِـنِ احْتِفـالٍ بِعُلـومِ البَلاغَـةِ وإعْـلاءٍ مِنْ شَـأْنِها.

ثُـمَّ لنـا أنْ نَسْـألَ عَـنْ تَأْثيـرِ لـوك فـي نَظَرِيّاتِـهِ هـذِهِ علـى صُنّـاعِ السِّياسـاتِ التَّعْليميَّـةِ مِـنْ أهْـلِ عَصْرِنـا، وحَـقٌّ عَلَيْنـا أنْ نَعْتَـرِفَ بـأنَّ

(*) جِبالُ البارنـاس، فـي الميثولوجيـا اليُونانيَّـةِ، هـي مَوْطِـنُ رَبّاتِ الشِّـعْرِ وشَـياطينِه.

الجَوابَ عَنْ هذا السُّؤالِ لَيْسَ بالبَدْهِيِّ أَوْ بالسَّهْل: فَمُنْذُ عُقودٍ خَلَتْ أَسْمَعُ عَدَدًا لا يُسْتَهانُ بِهِ مِنْ أَوْلِياءِ الطَّلَبَةِ يَتَساءَلون: «أَيُّ شَيءٍ سَيَكونُ مِنْ أَمْرِ ابني/ابنتي إنْ حازَ/زَتْ شهادَةً في الآداب؟». والأرْجَحُ، عِنْدي، أنَّ في هذا التَّساؤلِ شَيْئًا مِنْ رَجْعِ الصَّدى لِما شَنَّهُ لوك، ذاتَ يَوْمٍ، مِنْ حَرْبٍ على الشِّعرِ وعلى الموسيقى...

بوكاتشو: الخُبْزُ والشِّعْر

رَبّاتُ الشِّعْرِ، كما يُصَوِّرُهُنَّ جيوڤاني بوكاتشو(*)، نِساءٌ مِنْ لَحْمٍ ودَمٍ لا تَزيدُ المَرْءَ صُحْبَتُهُنَّ إلّا هَناءً على هَناء.

بِناءً على هذا الانْحيازِ الكامِلِ إلى الشِّعْرِ، لا يُسْتَغْرَبُ مِنْ صاحِبِهِ أَنْ يُخَصِّصَ صَفَحاتٍ

(*) جيوڤاني بوكاتشو، (١٣١٣ ـ ١٣٧٥)، كاتِبٌ وشاعِرٌ إيطاليٌّ مِنْ أَرْكانِ عَصْرِ النَّهْضَةِ شَأنَ صَديقِهِ پترارك.

مِـنْ كِـتابِهِ **الديكاميـرون**(*) لِمُجادَلَـةِ أولَئِـكَ الّذيـنَ يَحُثّونَـهُ علـى السَّـعْيِ وراءَ الخُبْـزِ عِـوَضَ الانْصِـرافِ إلـى الشِّـعْرِ وتُرَّهاتِـه.

«ثُـمَّ هاكُـمْ أولَئِـكَ الذيـنَ يَدَّعـونَ الحِـرْصَ عَلَـيَّ وعلـى شَـهِيَّتي إلـى الطَّعـامِ فَيَنْصَحـونَ إلـيَّ أنْ أُوَجِّـهَ هَمِّـيَ وجَهْـديَ إلـى كَسْـبِ قُوتِـيَ اليَوْمِـيِّ مِـنَ الخُبْـز. كَيْـفَ يَسَـعُني أنْ أُخاطِـبَ هَـؤلاء؟ لا أعْـرِفُ، فـي الحَقيقَـةِ مـا قَـدْ يكـونُ عَلَيْـهِ جَوابُهُم لَـوْ سَـأَلْتُهُم "وكَـيْفَ لـي أنْ أفْعَـلَ ذَلِـكَ؟" وَلَـوْ أنَّنـي لا أسْـتَبْعِدُ أنْ يَكـونَ الجَـوابُ مِـنْ بَعْضِهِـم: "بالانْصِـرافِ إلـى الشِّـعْر". فَلَكَـمْ مِـنْ شـاعِرٍ جَنى مِـنْ شِـعْرِهِ ما لَمْ يَجْنِـهِ الأثْرياءُ مِنْ كَـنْزِ الثَّرواتِ، ولَكَـمْ مِـنْ مُحِبٍّ للشِّـعْرِ امْتَـدَّ بِهِ العُمْـرُ في حينِ بَكَّـرَ المَـوْتُ إلـى السّـاعينَ وراءَ الخُبْـز».

نَعَـمْ، بِصَـرْفِ النَّظَـرِ عَـنْ كَمِيَّـةِ الخُبْـزِ الـذي تَؤْتيـهِ أشْـعارُ الشُّـعَراءِ فَهِـيَ حاكِمَـةٌ علـى فَهْمِنا

(*) المَعْنـى الحَرْفِيُّ لــ **ديكاميـرون** هـو «الأيـام العَشْـرَة». وَضَعَ بوكاتشـو هذا الكِـتابَ بَيْـنَ ١٣٤٨ و١٣٥٨ وهـو يَضُـمُّ مائـةَ أُقْصوصَـةٍ رُويَـتْ خِـلالَ عَشْـرَةِ أيّـامٍ على ألْسِـنَةِ عَشْـرَةِ فِتْيـانٍ جَمَـعَ بَيْنَهُـم فِرارُهُـم مِـنَ الطّاعونِ الـذي فَتَكَ أيّامَـذاكَ بِحَواضِـرَ كثيـرَةٍ مِـنْ عِدادِهـا فلورنسـا. يُذْكَـرُ هـذا الكِـتابُ، فـي ما يُذْكَـرُ، لِمـا كانَ لَـهُ مِـنْ أثَـرٍ لاحِقٍ علـى فُحـولٍ مِـنْ أمْثـالِ شاوسـر وشكسـبير.

لِما نَحْتـاجُ إلَيْـهِ مِـنْ خُبْـزٍ ومِـنْ سِـواهُ، فَمِنْها ـ مِنْ أشْـعارِ الشُّـعَراءِ ـ نَتَعَلَّمُ الدِّفاعَ عَنْ أنْفُسِـنا مِـنْ تَسَـلُّطِ وَسـاوِسِ الرِّبْـحِ عَلَيْها، عِلمًـا أنَّ هذهِ الوَسـاوِسَ، كمـا يُلاحِـظُ بوكاتشـو، لا تَخْلـو، على وَجْـهِ الحَقيقَـةِ لا علـى وَجْهِ المَجازِ فَحَسْـبُ، أنْ تَـكونَ مِـنْ أسْبابِ المَـوْتِ المُبْكِرِ!

غارثيا لوركا:

لَيْسَ مِنَ الأمانِ في شَـيْءٍ أنْ يَعيشَ الإنْسـانُ في مَنأى مِنْ جُنونِ الشِّعْرِ!

كُثُـرٌ هُـمُ الشُّـعُراءُ والأُدَبـاءُ الذيـنَ حاجّـوا لـوك، ولَـوْ بِشَـكْلٍ غَيْـرِ مُباشَـرٍ، فـي جَـدْوى الشِّـعْرِ والأدَبِ بانْصِرافِهِـم إلَيْهِمـا.

مِـنْ كُلِّ هَـؤلاءِ لِغارثيـا لـوركا(*) مَنْزِلَـةٌ علـى حِدَةٍ ولَعَـلَّ الكَلِمـاتِ التـي قَـدَّمَ بِهـا لأحَـدِ دواويـنِ

(*) فيديريكـو غارثيـا لـوركا، شـاعِرٌ إسـبانِيٌّ وكاتِـبٌ مَسْـرَحِيٌّ ورَسّـامٌ وعـازِفُ بيانـو كانـت وِلادَتُـهُ بغرناطَـةَ سَـنَةَ ١٨٩٨. أعْدَمَـهُ الفَرانْكِـيّونَ علـى بِدايـاتِ الحَـرْبِ الأهْلِيَّـةِ الإسْـبانِيَّةِ فـي ١٩ آب (أغسـطس) ١٩٣٦.

يابلـو نيـرودا(*) أنْ تَـكونَ مِنْ أفْحَـمِ الرُّدودِ على لوك:

«نَصيحَتـي لَـكُمْ أنْ ألْقـوا السَّـمْعَ إلـى مـا يَقولُهُ هـذا الشّـاعِرُ، وليحـاوِلْ كُلُّ واحِـدٍ مِنْكُـم أنْ يُشـاطِرَهُ أحاسيسَـهُ كَيْفَمـا يَشـاء. نَعَـم، لا يَخلـو الشِّـعْرُ مِـنْ أنْ يَقتَضـيَ دُرْبَـةً مـا عَلَيْـه؛ ومَثَـلُ الشِّـعْرِ فـي هـذا، مَثَـلُ سـائِرِ الرِّياضـاتِ... بَيْـدَ أنَّ فـي كُلِّ شِـعْرٍ حَقيـقٍ بـأنْ يُنْسَـبَ إلى الشِّـعْرِ شَـميمُ عِطْـرٍ، وَوَقْـعُ نَغَمٍ، وشُـعاعَةُ نـورٍ لا يَحْتاجُ الواحِـدُ مِنّـا إلـى أيَـةِ دُرْبَـةٍ لِيَتَمَتَّـعَ بِأَريجِهـا، أو لِتُشَـنِّفَ أُذُنَيْـهِ أوْ لِتَضيـعَ بَيـنَ يَديْـه. ألّا فَلْيُمَـنَّ علـى كُلِّ واحِـدٍ مِنّـا أنْ تَنْمـوَ فـي نَفْسِـهِ هَـذِهِ اللُّوثَـةُ المَغْروسَـةُ فينا مِـنَ الجُنونِ والتـي يُحاوِلُ البَعْـضُ مِنّـا وَأْدَهـا مُخَلِّيًـا مَحَلَّها لِما يَتَيَسَّـرُ لَهُ مِنْ عِلْـمٍ كُـتُبِيٍّ ثَقيـلِ الظِّـلِّ لا مُـدْرِكًا أنَّهُ بِـوَأْدِهِ هذهِ اللُّوثَـةَ إنَّمـا يُجَـرِّدُ نَفْسَـهُ مِـنْ بَعْـضِ مـا تُدافِـعُ بِهِ نَفْسُـهُ عَـنْ نَفْسِـها!».

لَيْـسَ بالقَليـلِ أنْ يَقـولَ شـاعِرٌ كبيـرٌ مِثْـلَ هـذا

(*) پابلـو نيـرودا، (١٩٠٤ ـ ١٩٧٣)، شـاعِرٌ وسِياسِـيٌّ تشـيليٌّ شُـيوعِيُّ الهَـوى. حـازَ عـامَ ١٩٧١ جائِـزَةَ نوبـل لـلآداب.

الـكلامِ فـي شـاعِرٍ آخَـر، ويَزيـدُ مِـنْ شَـأْنِ هـذا الـكلامِ أنَّ لـوركا جـاءَ بِـهِ أمـامَ مَـلَأٍ مِـنْ طُـلّابِ جامِعَـةِ مدريـدَ فـي عـامِ ١٩٣٤!

لَعَـلَّ هـذا التَّفْصيـلَ الزَّمانِـيَّ والمَكانِـيَّ يَكْفـي تَفْسـيرًا لِمـا حَـدا بِنـا أنْ نُعَنْـوِنَ هـذا الفَصْـلَ، مُسْـتَوحينَ لـوركا: لَيْـسَ مِـنَ الأمانِ في شَـيْءٍ أنْ يَعيـشَ الإنْسـانُ فـي مَنـأى مَـنْ جُنـونِ الشِّـعْر!

سُلْطانُ «الوَقائِـع»:
مُخالفاتُ ديكنز على المبدأ النَّفْعِيّ

لَـمْ يَتَفَّـوَقْ أحَـدٌ، على الكاتِـبِ الإنْكليزِيِّ تشـارلز ديكنـز(*) فـي تَصْويـرِ مـا يُشَـنُّ مِـنْ حَـرْبٍ علـى الخَيـالِ باسْـمِ الواقِـعِ والواقِعِيَّـةِ والوقائِـع ومِـنْ وَراءِ هَـذِهِ الثُّلاثيَّـةِ باسْـمِ المَبـدأِ النَّفْعِـيّ.

ففـي مدينَـة كوكـتاون التـي يَتَّخِذُهـا مَسْـرَحًا

(*) تشـارلز ديكنـز، (١٨١٢ ـ ١٨٧٠)، أعْظَـمُ الرِّوائِيِيـن الإنْكليـزِ فـي العَصْـرِ الفِكْتوريّ.

لِروايَتِـهِ **الأوقـات العَصيبَـة** مـا مِـنْ شَـيْءٍ فَـوْقَ غِرْبـالِ النَّفْـعِ والجَـدْوى، أو مِـنْ شَـيْءٍ لا يُقـاسُ بِمِقياسِ النَّفْعِ والجَدْوى: في كوكـتاون لا يَخْتَلِفُ المَصْرِفِـيُّ عَـنْ أُسْـتاذِ المَدْرَسَـةِ فـي حَرْبِهِمـا اليَوْمِيَّـةِ علـى كُلِّ مـا يَحْرِفُ الخَيالَ عَـنِ الواقِعِ أو يُعَـوِّقُ الانْتـاج:

«فـي هَـذِهِ الحَيـاةِ، لا حاجَةَ بِنـا إلّا إلى الوَقائِـعِ... إلـى الوقائِعِ وحَسْـب!».

كَذَلِـكَ لا غَـرْوَ أنْ يُصَـوِّرَ أُسـتاذُ المَدْرَسَـةِ بهَيْئَةِ شَـخْصٍ مُعـادٍ للخَيـالِ وللمَشـاعِرِ «في يَـدِهِ، على الـدَّوامِ، مِسْـطَرَةٌ، وفـي جَيْبِـهِ جَـدْوَلُ الضَّـرْب». التَّعْليمُ، في عُرْفِ هذا الأُسْـتاذِ، «مَسْـأَلَةٌ حِسـابِيَّةٌ لا أكْثَـرَ ولا أقَـلَّ»، أمّـا التَّلامِـذَةُ، فـ«صَـفٌّ مِـنَ الأوانـي التـي تَنْتَظِـرُ أنْ تُمْـلأُ بالوَقائِـع».

هَـذِهِ المَدْرَسَـةُ حَيْـثُ التَّلامِـذَةُ أوانٍ صـورَةٌ طِبْقُ الأَصْلِ عَـنِ المَدينَـةِ نَفْسِـها حَيْـثُ «أهْلوهـا مُتَشـابِهونَ كُلَّ التَّشـابُهِ، يُغـادِرونَ مَنازِلَهُـم فـي السّـاعَةِ نَفْسِـها، ويَحُثّـونَ الخُطـى إلـى أماكِـنِ

عَمَلِهِم على الرَّصيفِ نَفْسِهِ بِالسُّرْعَةِ نَفْسِها، وَتَتَشابَهُ أيّامُهُم كُلَّ التَّشابُهِ حتّى لا يَكادُ يُمَيِّزُ بَيْنَ أمسٍ وغَد».

كَذَلِكَ، لا أثَرَ في هذه المَدينَةِ لما قَدْ يَعْلو على «الواقِعِ» ووقائِعِهِ المُتَرادِفَة:

«وقائِع! لا شَيْءَ في هذه المَدينَةِ سِوى وقائِعَ ومَلْموساتٍ وما يَجري مَجْرى الوَقائِعِ والمَلْموسات. المَدْرَسَةُ وَقائِعُ، مَعْهَدُ التَّصْميمِ الصِّناعيِّ وقائِعُ، الحَضانَةُ وقائِعُ، وكَذَلِكَ المَقْبَرَةُ وأيًّا مِنْ شَيء لا يَقَعُ تَحْتَ حَدِّ الكَيْلِ لا مَكانَ لَهُ في هذه المَدينَةِ ــ في هذه المدينَةِ حَيْثُ لا مَحَلَّ مِنَ الإعْرابِ إلّا لِما يُمْكِنُ أنْ يُشْرى بأبْخَسِ الأثْمانِ لِيُباعَ بأبْهَظِها مِنَ اليَوْمِ إلى أبَدِ الآبدين، آمين».

هيدغر: لَيْسَ بالأمْرِ السَّهْلِ أنْ نَفْقَهَ النّافِلَ الذي لا لُزومَ لَه

مَرّاتٌ عَديدَةٌ تَفَقَّدَ الفَيْلَسوفُ الألمانِيُّ مارتن هيدغر مَسْأَلَةَ ذي اللُّزومِ والجَدْوى وضِدِّهِ

النّافِلِ وغَيْرِ ذي اللّـزومِ والجَـدْوى. ولَقَـدْ جـاءَ تَفَقُّـدُ هيدغـر لِهَـذِهِ المسـألَةِ أكْـثَرَ مـا جـاءَ في سِـياقِ تأمُّلِـهِ فـي الأعْمـالِ الفَنِّيَّـةِ وماهِيَّتِهـا.

أكْتفـي فـي مـا يلـي بالتَّذْكيـرِ بِبَعْـضِ مـا أدْلـى بِـهِ هيدغـر مِـنْ آراءٍ ثاقِبَـةٍ يَـوْمَ أنْ دَعـاهُ طَبيـبُ النَّفْـسِ السّويسـريُّ الألمانـيُّ مِـدار بـوس(*) إلـى نَـدْوَةٍ مُسْـتَفيضَةٍ مَدارُهـا علـى الفينومينولوجيـا شَـرَحَ خِلالَهـا الفَيْلَسـوفُ علـى نِيَّـةِ مَجْموعَةٍ من المُعالِجيـنَ النَّفْسِـيّينَ الشّـبابِ مَقاطِعَ مـن كتابِهِ **الوجـود والزمـان.**

بِمُناسَـبَةٍ أُخرى ـ بِمُناسَـبَةِ نَقاهَـةٍ قَضاها هيدغر وبـوس عـام ١٩٦٣ فـي جَزيـرَةِ صقلّيـة ــ سَـألَ بـوس هيدغـر أنْ يَسْتَرْسِـلَ فـي بَيانِ رأيـهِ في أمْرِ الكائـنِ البَشَـرِيِّ فـي علاقَتِـهِ بالآخَر.

فـي مَعْـرِضِ هَـذِهِ المُحادَثَـةِ التـي تَبَـوَّأَ فيهـا

(*) مِـدار بـوس، (١٩٠٣ ـ ١٩٩٠)، عالِـمُ نَفْسِـيّاتٍ سويسـريٌّ تُنْسَـبُ إلَيْـهِ مَدْرَسَـةٌ فـي الطِّـبِّ النَّفْسِـيِّ تَسْـتَوحي فَلْسَـفَةَ هَيْدِغِـر.

«الدّازَيْـن» ـــ الكائـنُ فـي مَكانِـهِ مِـنَ العالَـم ـــ مَحَـلَّ الصَّـدارَةِ ذَهَـبَ هيدغـر إلـى التّالـي:

«الأجْـدَى، قاطِبَـةً، هـو مـا لا جَـدْوى مِنْـه. على أنَّ اخْتِبـارَ مـا لا جَـدْوى مِنْـهُ هـو الأقَـلُّ يُسْـرًا علـى إنْسـانِ اليَـوْم. فالمُفيـدُ والمُجْـدي يُتَرْجِـمُ عَـنْ نَفْسِـه بِوَصْفِـهِ مـا هـو قابِـلٌ للاسْـتِعمالِ ومـا لَـهُ غايَـةٌ مُباشَـرَةٌ يَسْتَصْلِحُها الإنْسـانُ فـي التِّجـارَةِ أو الصِّناعَـة. [أمّـا غَيْرُ المُفيدِ، وغَيْرُ المُجدي، مُباشَـرَةً فـلا يُمْكِـنُ النَّظَـرُ إلَيْـهِ علـى هـذا النَّحْـو]. يَنْبغـي علـى الإنْسـانِ أن يَتَوَصَّـلَ إلـى النَّظَـرِ إلـى المُفيـدِ المُجْـدي علـى أنَّـهُ ذو خاصِيَّـةٍ خَلاصِيَّـةٍ تُقَرِّبُـهُ، [تُقَـرِّبُ الإنْسـانَ]، أقْـرَبَ مـا يُمْكِـنُ مِـنْ نَفْسِـه».

مِـنْ هَـذِهِ الطَّريـقِ يُحـاوِلُ هيدغـر أنْ يَعْـزِلَ مَفهـومَ المُفيـدِ والمُجْـدي ومـا لُـزومَ لَـهُ عَـنِ الغائِيَّـةِ التِّقْنِيَّـةِ أو التِّجارِيَّـةِ الصِّـرْفِ ولكِنَّـهُ، رَغْمَ سَـعْيِهِ هـذا، يُقِـرُّ بِصُعوبَـةِ تَقَبُّـلِ المُعاصِريـنَ أهَمِيَّـةَ مـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا جَدْوى مِنْـه؛ وعلى ما يَقـولُ هـو نَفْسُـهُ:

«مِـنَ الصُعوبَـةِ بِمـكانٍ على إنْسـانِ اليَـوْمِ أنْ يُلْقيَ بـالًا إلـى مـا لا تَطبيقَ أو اسْـتِخداماتٍ عَمَلِيَّـةً لَه...».

اللّالزوم وجَوْهَرُ الحَياة:
جوانغ زي وأوكاكورا كاكوزو

فـي القَـرْنِ الرَابِـعِ قَبْـلَ المَسيحِ وَجَـدَ الحَكيـمُ الصِّينـيُّ جوانـغ زي[*] نَفْسَـهُ بَيْـنَ يَـدَيِ المَسْـأَلَةِ نَفْسِـها: تَزاحُـمُ الـلّازِمِ ومـا لُـزومَ لَـهُ، وَلَقَـدْ تَصَدّى لها فـي غَيْـرِ مَوْضِعٍ مِـنْ مُؤَلَّفِـهِ العُمْـدَةِ الـذي تَنـاوَلَ فيـهِ الطَّبيعَـةَ والتَّناسُـخاتِ المُتواصِلَـةَ والأُسْـلوبَ الأَمْثَـلَ فـي العَيْـش.

مُتَأَمِّلًا ذاتَ يَوْمٍ في شَـجَرَةٍ مُعَمِّرَةٍ قال:

«لـم تَبْلُـغْ هـذهِ الشَّـجَرَةُ فـي سُـموقِها عَنـانَ السَّـماءِ إلّا لأنَّهـا تُرِكَـتْ لِشَـأْنِها فـي مَنـأىً مِـنْ أيَّـةِ مُحاوَلَـةٍ للإفـادَةِ مِنْ خَشَـبِها. كَذَلِكَ الإنْسـانُ، الإنْسـانُ الإلهـيُّ، لا يَبْلُـغُ هـذه المَرْتَبَـةَ إلّا متـى تُـرِكَ لِشَـأْنِهِ وَلَـمْ يُرَجّـى مِنْـهُ أنْ يَقـومَ بمـا يَعـودُ بالنَّفْـعِ المـادِيّ. بِخِلافِ هـذهِ الشَّـجَرَةِ، مَقْتَـلُ كُلِّ الأَشْـجارِ الأُخْـرى هـو فـي مـا تُوَظَّـفُ لَـهُ مِـنِ اسْـتِعْمالات».

---

[*] جوانغ زي: فَيْلَسوفٌ صينيٌّ عاشَ في القَرْنِ الرّابِعِ قَبْلَ الميلاد.

فـي مَوْضِـعٍ آخَـرَ مِنْ هذا الكِـتابِ، فـي مُحاوَرَةٍ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ السُّفسـطائِيِّ هـوي تسـو، يُبَيِّـنُ جوانـغ زي مَحْدوديَّـةَ أُولئِـكَ الذين يَأْنَسـونَ مِنْ أنْفُسِـهِم القُـدْرَةَ علـى التَّمْييـزِ بَيْـنَ ما لُـزومَ لَهُ وما لا لُـزوم.

يقـولُ هوي تسـو: «لا لُزومَ لما تَقولُـهُ»، فَيُجيبُهُ جوانـغ زي: لا بُـدَّ مِـنْ عِلْمِ ما لا لُزومَ لـه للحُكْمِ علـى مـا لُزومَ لـه بأنَّهُ لا لُـزومَ له...».

أمّا الكاتِبُ اليابانيُّ أوكاكورا كاكوزو، (١٨٦٢ - ١٩١٣)، فيعتَبِرُ أنَّ التَّوَصُّلَ إلى حَمْلِ ما لا لُزومَ لَهُ على مَحْمَلِ الجَدِّ هو الحَدُّ الفاصِلُ بَيْنَ الوَحْشِيَّةِ والإنْسِيَّةِ وهو المَفازَةُ التي لا بُدَّ مِنِ اجْتيازِها للانْتِقالِ مِنْ هذهِ الحالَةِ إلى تِلْك.

في فَصْلٍ من **كِـتاب الشّـاي** الـذي كانَ صُدورُهُ فـي عـامِ ١٩٠٦ يُخَصِّصُهُ كاكوزو للأزهـارِ يَذهَبُ إلـى القَـوْلِ إنَّ شِـعْرَ الغَـزَلِ إنَّمـا نَشَـأَ مِـنْ حُبِّ البَشَـرِ للأزهار.

«يَـوْمَ أهْـدى الإنْسـانُ الأوَّلُ لِصاحِبَتِـهِ أوّلَ باقَـةٍ مِـنَ الأزْهـارِ ـــ يَوْمَهـا غـادَرَ بِدائِيَّتَـهُ، وارْتَفَـعَ عَنْ حاجاتِـهِ البَهيميَّـةِ، ودَخَـلَ تَحْـتَ حَـدٍّ الإنْسـيَّةِ وذلـكَ بـأنْ تَلَمَّسَ ذلكَ الإنْسـانُ، يَومـذاكَ، فَحْوى النّافِـلِ، فدَخَـلَ مَلَــكوتَ الفَـنِّ».

أوجين يونيسكو:
ما لُزومَ له عِبْءٌ لا لُزومَ له

بانِيًـا علـى تَشْـخيصٍ مُفـادُهُ أنَّ البَشَـرِيَّةَ بَلَغَـتْ مِـنَ الانْهِـزامِ حَـدًّا فَقَـدَتْ مَعَـهُ ذائِقَـةَ الحَيـاةِ، اقْتَرَحَ أوجين يونيسـكو بِمُناسَـبَةِ مُحاضَـرَةٍ ألْقاها فـي شُـباط (فبرايـر) ١٩٦٠ جُمْلَـةَ أفْكارٍ لَـمْ تَفْقِدْ شَـيْئًا مِـنْ فُتُوَّتِهـا ونَضارَتِها.

خُلاصَـةُ مـا يَذْهَـبُ إلَيْهِ يونيسـكو وبَيْـتُ قَصيدِهِ أنَّ شَـيْئًا لا يَسُـدُّ مَسَـدَّ مـا لا يَلْـزَمُ ومِـنْ ثَـمَّ فـإنَّ حاجَتَنـا إلَيْهِ ماسَّـة:

«أنْظـروا إلـى النّـاسِ فـي الشَّـوارِعِ يَهَرْوِلـونَ بانْهِمـاك. لَيْـسَ مِنْهُـم مَـنْ يَلْتَفِـتُ ذاتَ اليَميـنِ أو ذاتَ اليَسـار. لا يَحْتـاجُ أحَـدٌ مِنْهُـم أنْ يَنْظُـرَ

أمامَـهُ أو أنْ يَتَـرَدَّدَ لأنَّ كُلًّا مِنْهُـم يَسـيرُ إلـى حَيْثُ يَقْصِـدُ مُسَـيَّرًا تَسْـييرًا شِـبْهَ آلِـيٍّ لا يَحْتـاجُ مِنْهُ إلى أكْـثَرَ مِـنَ تَحْريـكِ قَدَمَيْـه! فـي كُلِّ مُـدُنِ العالَـمِ وحواضِـرِهِ يَسـيرُ النّـاسُ هكـذا... إنْسـانُ عَصْرِنـا كائِـنٌ مُسْـتَعْجِلٌ لا وَقْـتَ لَدَيْـهِ لِمـا لا يَقَـعُ تَحْـتَ حَـدِّ الضَّـرورَة. إنْسـانُ عَصرِنـا لا يَفْقَـهُ أنَّ فـي هذا العالَـمِ مـا لَيْـسَ مِـنَ الضَّـروراتِ والضَّروريّـات. إنسـانُ عَصْرِنـا لا يَشْـتَبِهُ لِلَحْظَـةٍ أنَّ الضَّـروريَّ قَـدْ يَكـونُ عِبْئًـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا جَـدْوى مِنْـه. وطالمـا أنَّ إنْسـانَ عَصْرِنـا لا يُـدْرِكُ مـا يَنْتَسِـجُ مِـنْ عَلاقَـةٍ جَدَلِيَّـةٍ بَيْـنَ الضَّـروريِّ والنّافِـلِ، اللّازِمِ ومـا لا لُزومَ لَـهُ فهـو يَقْطَـعُ الطَّريـقَ بِنَفْسِـهِ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ الفَـنّ. وإنَّ بَلَـدًا لا يُعْـرَفُ فيـهِ الفَـنُّ ويُكَـرَّمُ هـو حَتْمًـا بَلَدٌ أهْلـوهُ مِـنَ العَبيـدِ ومِـنَ الكائِنـاتِ المُسَـيَّرَة؛ هـو بَلَدٌ أهْلوهُ تُعَسـاءُ لا يَبْتَسِـمونَ ولا يَضْحَكون... بَلَدٌ بِـلا روحٍ يَسـودُ فيـهِ وعَلَيْـهِ الحَنَـقُ والحِقْـد».

إنَّ الإنْسـانَ المُعاصِـرَ الـذي لا يَتَّسِـعُ وَقْتُـهُ للتَّمَكُّـثِ عِنْـدَ النَّوافِـلِ مَحْكـومٌ بـأنْ يَتَحَـوَّلَ إلى آلَـةٍ بـلا روح.

مُسْتَأْسَـرًا بالضَّروريّـاتِ وَلَها، يِفْقِدُ هذا الإنْسـانُ شَـيْئًا فَشَـيْئًا القُـدْرَةَ علـى أنْ يُـدْرِكَ بـأنَّ هـذِهِ

الضَّروريّـاتِ آيلَـةٌ إلـى أنْ تتَحَوَّلَ مِنْـهُ إلى أعْباءٍ ثَقيلَـةٍ تُرْهِـقُ كاهِلَـه. وإذْ يُضيـفُ يونيسـكو أنَّ القُصـورَ عَنْ فَهْـمِ الجَدَلِ بَيْنَ الضَّـروريِّ والنّافِلِ صِنْـوٌ للقُصـورِ عَـنْ فَهْـمِ الفَـنِّ والاحْتِفـالِ بِـهِ، فـإنَّ أخْطَـرَ مُتَرتِّبـاتِ هذا القُصورِ الذي يَسْـتَلِبُ مِـنَ الإنْسـانِ حُرِّيَّتَهُ هو أنَّ هذا الاسْـتِلابَ يُصَيِّرُ الإنْسـانَ فَريسَـةً سـائِغَةً للتَّعَصُّـبِ المُتَفَلِّتِ مِنْ أيِّ عِقـالٍ، ولا سِـيَّما لِضُـروبِ التَّعَصُّـبِ الدِّينِـيِّ أو فَريسَـةً لِضُـروبِ «السُّـعارِ الجَماعي»:

«ذلِـكَ أنَّ هَـؤلاءِ النّـاسَ المَهْمومينَ بالضَّروريّاتِ، القَلِقيـنَ مِـنْ عَـدمِ القُـدْرَةِ علـى تَحْصيلِهـا، المُسْـتَعْجِلينَ إلـى اكْـتِسابِ مـا يَتَيَسَّـرُ مِنْها، إنَّما يُسْـرِعونَ فـي سَـعْيِهِم هـذا إلـى غاياتٍ لَيْسَـتْ مِـنَ الإنْسـانِيَّةِ فـي شَـيْءٍ أو هِـيَ فـي أحْسَـنِ الأحْـوالِ غايـاتٌ مِـنْ وَهْـمٍ وسَـراب. إنَّ هَـؤلاءِ النّـاسَ أنْفُسَـهُم عُرْضَـةٌ لأنْ يَسْـتَوْلِيَ عَلَيْهِـم، على غَفْلَـةٍ مِنْهُـم، أيُّمـا تَعَصُّـبٍ جامِحٍ أو سُـعارٍ يَضْرِبُ نَفيـرَهُ مَجْنـونٌ مِنْ هُنـا أو يَدْعو إلَيْهِ مُشَـعْوِذٌ مِنْ هنـاك. إنَّ البَشَـرِيَّةَ، اليَـوْمَ، تَحْـتَ هـذا الخَطَـرِ ـ خَطَـرِ أنْ تَسْـتَيْقِظَ نَوْبـاتُ السُّـعارِ هـذِهِ، سِـيّانَ تَزَيَّنَـتْ بِشـعاراتٍ يَمينيَّـةٍ أو يَسـاريَّة. ويَزيـدُ مِنْ

إحْـداقِ هـذا الخَطَـرِ أنَّ النّـاسَ لا يُخَلّـونَ بَيْـنَ أنْفُسِـهِم وبَيْـنَ النَّظَـرِ فـي مـا هُـمْ فيـهِ وفـي مـا يَـدورُ مِـنْ حَوْلِهِـم!».

إيتالو كالڤينو: النّافِلُ هو الجوهري!

بِجَـدارَةٍ يَتَبَـوَّأُ إيتالـو كالڤينـو مَكانَـةً علـى حِـدَةٍ بَيْـنَ أولئـكَ الذين مَحَّصوا ما بيـن الآدابِ والعُلومِ مِـنْ صِلات. ومِـنَ الخُلاصـاتِ التـي تَوَصَّـلَ إلَيْهـا كالڤينـو أنَّـهُ لا أشْـأى مِـنَ النَّشـاطاتِ التـي تَبْدو لِلْوَهْلَـةِ الأولـى نافِلَـةً وغَيْـرَ ذاتِ أهَمِيَّة.

«فـي كَثيـرٍ مِـنَ الأحْيـانِ، يَنْتَهـي الأمْـرُ بِمـا يَخـوضُ فيـهِ البَشَـرُ مِـنْ نَشـاطاتٍ لا غايَـةَ مِـنْ وَرائِها سِـوى المُتْعَـةِ والتَّسْـرِيَةِ عَـنِ النَّفْـسِ يَنْتَهـي الأمْـرُ بـأنْ تَتَأتّـى عِنْ هـذهِ النَّشـاطاتِ نَتائجُ غايَةً فـي الأهَمِّيَّةِ وثَمَـراتٌ لَـمْ يَتَوَقَّعْهـا أحَـد. وإن تَصِحُّ هـذِهِ الرَّمْياتُ دونَ رامٍ فـي الشِّـعْرِ والفَـنِّ فَهِـي تَصِـحُّ أيْضًـا فـي مَجـالِ العُلـومِ والتِّكْنولوجيـا».

ويُتابِـعُ كالڤينـو الـرَّدَّ علـى شُـبُهاتِ النَّفْعِيّيـنَ فَيُذَكِّرُنـا بـأنَّ الواحِـدَ مِنّـا والواحِـدَةَ لا يُمضـي

السّـاعاتِ فـي مُطالَعَةِ عُيـونِ الأدَبِ طَلَبًـا لِفائِدَةٍ مُعَيَّنَـةٍ وإنَّمـا لِوَجْـهِ المُتَـعِ التي تُوفِّرُهـا لنا هذهِ المُطالَعَـةُ مُتَـعِ التَّغَـرُّبِ والمَعْرِفَـةِ.

سيوران وسقراط

فـي مـا كان الجَـلّادُ يُعِـدُّ لِسُـقْراطَ السُّـمَّ الـذي حُكِـمَ عَلَيْـهِ بِتَجَرُّعِهِ، كانَ سُـقراطُ، علـى ما يَرْوي سـيوران(*)، يُمَرِّنُ نَفْسَـهُ على عَـزْفِ أحَدِ الألْحان. وإذْ سَـأَلَهُ أحدَهُـمُ عَـنِ الفائِـدَةِ مِـنْ ذلـكَ فيمـا هـو مُقْبِـلٌ على مَـوْتٍ مُحَتَّـمٍ أجابَ الفَيْلَسـوف: «لِكَـيْ أتَمَكَّـنَ مِـنْ عَـزْفِ هـذا اللَّحْـنِ قَبْـلَ أنْ أموت...».

أمّـا الحِكْمَـةُ مِنْ هـذا الشـاهِدِ فَـتَكادُ ألّا تَحْتاجَ إلـى بَيـان: مَـعَ اليَقينِ بِأنَّـهُ لَيْسَ لإبْـداعٍ أدبِيٍّ أو فَنّـيٍّ غايَـةٌ عَمَلِيَّةٌ مُحَدَّدَةٌ، فلا سَـبيلَ لنـا أن نُنْكِرَ أنَّ الفَضْـلَ فـي إبْقـاءِ شُـعْلَةِ الأمَـلِ مُتَّقِدَةً وَسْـطَ

(*) إميل سيوران، (١٩١١ ـ ١٩٩٥)، كاتِبٌ فَرَنْسِيٌّ مِنْ أصولٍ رومانيَّة.

هـذا الصَّقيـعِ الـذي يُخَيِّـمُ علـى الوَعْـي العـامِّ والـذي تَـكادُ الحَيـاةُ مَعَـهُ أنْ تتَجَمَّـدَ، إنَّما يَعودُ إلـى مـا يَسْـتَمِرُّ البَعْضُ فـي مُراكَمَتِهِ مِـنْ مَعارِفَ إنْسـانِيَّةٍ لا يُبْغـى مـن وَرائِهـا النَّفْـعُ والرِّبْح.

إنَّ مَجّانِيَّـةَ هـذا الجَهْـدِ، ومـا يُنْسَـبُ إلَيْـهِ مِـنْ نُفـولٍ، هـي مـا يُمْكِـنُ أنْ يَحَوِّلَهُ إلى سِـلاحٍ ماضٍ تَـتَصَدّى بِـهِ البَشَـرِيَّةُ لِوَسْـواسِ الهَمَجيَّـةِ، بَلْ أنْ يُحَوِّلَـهُ إلـى صَوْمَعَةٍ يُحْفَـظُ فيها ما يُحْكَـمُ عَلَيْهِ، ظُلْمًـا، بالخُمولِ والنِّسـيان.

«لَسْتُ مَوْهوبًا بِمواهِبَ خاصَّةٍ؛
كُلُّ ما في الأَمْرِ أنَّني فُضوليٌّ
إلى أبْعَدِ الحُدود...».

ألبرت آينشتاين

II

الجامِعَةُ بِوَصْفِها مُؤَسَّسَةً تِجارِيَّةً والطّالِبُ بِوَصْفِهِ زَبونًا

فِي انْسِحابِ الدَّوْلَةِ مِنْ قِطاعَيِّ التَّعْليمِ والبَحْثِ العِلْمِيِّ

قَبْلَ أنْ أمْضيَ قُدُمًا، وأنْ أقْتَرِحَ على قُرّاءِ بيانِيَ هذا مُطالَعَةَ بَعْضِ النُّصوصِ المَناراتِ ذاتِ الصِّلَةِ بِمَوْضوعِنا، لا أرى لِيَ بُدًّا مِنَ التَّوَقُّفِ وَقَفاتٍ عَجْلى عِنْدَ المُتَرَتِّباتِ الكارِثِيَّةِ لِغَلَبَةِ المَنْطِقِ الرِّبْحِيِّ في قِطاعِ التَّعْليم.

لوَقْتٍ قَريبٍ خلا انكَبَّتِ الأُسْتاذَةُ الجامِعِيَّةُ القَديرَةُ مارثا نوسباوم(*) على فَحْصِ وُجوهِ هذا التَّراجُعِ المُطَّرِدِ فَتَبَيَّنَ لَها أنَّ التَّعْديلاتِ التي

(*) تُعَدُّ مارتا نوسباوم، (مواليدِ نيويورك، ١٩٤٧)، من صُفْوَةِ فلاسِفَةِ جيلِها ومُفَكِّريه. عِلاوَةً على تَدْريسِها الفَلْسَفَةَ السِّياسِيَّةَ والأخْلاقَ والإلَهِيّاتِ في عَدَدٍ مِنْ كُبْرَياتِ الجامِعاتِ الأميركيَّةِ. لنوسباوم عَدَدٌ وافِرٌ مِنَ المُؤَلَّفاتِ يُعَبِّرُ عَنْ تَنَوُّعِ اهتِماماتِها.

أُدْخِلَتْ خِلالَ العَقْدِ المُنْصَرِمِ على المَناهِجِ التَّرْبَوِيَّةِ في المُعْظَمِ مِنَ الدُّوَلِ الأوروبِيَّةِ تَحْتَ عُنوانِ إصْلاحِها، (مَعَ اسْتِثْناءٍ لا يُسْتَهانُ بِهِ هو ألمانيا)، كانَ لها، وكانَ للتَّخْفيضاتِ التي رافَقَتْها في ميزانيّاتِ التَّعْليمِ، أسْوَأُ الأثَرِ على المُؤَسَّساتِ التَّعْليميَّةِ مِنْ مَدارِسَ وجامِعات؛ (ولَعَلَّ إيطاليا أنْ تَكونَ النَّموذَجَ الأبْرَزَ على هذا التَّدَهْور). أمّا العُنوانُ الأبْرَزُ لهذِهِ الإصْلاحاتِ فكانَ الانْسِحابَ الاقْتِصادِيَّ التَّدْريجيَّ، وإنَّما المُقْلِقُ، للدَّوْلَةِ مِنْ قِطاعَيِّ التَّعْليمِ والبَحْثِ العِلْمي.

في مُوازاةِ هذا المَسارِ، بَدَأَ مَسارٌ آخَرُ قِوامُهُ تَحْويلُ الجامعاتِ إلى مَدارِس. والحَقُّ أنَّ هذا التَّحْويلَ هو أشْبَهُ بانْقِلابٍ لَنْ نَخْلوَ في السَّنَواتِ المُقْبِلَةِ مِنْ تَلَمُّسِ آثارِهِ سَواءٌ على مُسْتَوى الدَّوْرِ الذي يَضْطَلِعُ بِهِ الجِهازُ التَّعْليميُّ أو على مُسْتَوى نَوعيَّةِ التَّعْليمِ بِحَدِّ ذاتِها. فَواقِعُ الحالِ أنَّ المُعْظَمَ مِنْ دُوَلِ أوروبّا

تَنْحـو إلـى خَفْـضِ مُسْتَوى اشْـتِراطاتِها مِـنَ المُلْتَحِقينَ/المُلْتَحِقـاتِ بالتَّعْليـمِ الجامِعِـيِّ بِمـا يُتيـحُ لِهـؤلاءِ اجْتيـازَ الامْتِحاناتِ بِيُسْـرٍ وسُـهولَةٍ وذلـكَ علـى الأمَـلِ المَوْهـومِ بـأنَّ يُسْـعِفَ هـذا الخَفْـضُ المُتَعَثِّريـنَ مِنْهُـمْ والمُتَعَثِّـرات.

فَبُغْيَـةُ تَخْريـجِ هَـؤلاءِ الطُّلّابِ ضِمْـنَ الآجالِ التي تُحَدِّدُهـا القَوانيـنُ، وبُغْيَـةَ «تَيْسيرِ» العَمَلِيَّـةِ التَّعْليميَّـةِ، خُفِّـضَ حَجْـمُ الجَهْـدِ والتَّضْحِيَـةِ المَطْلوبَيْـنِ مِـنْ هَؤلاءِ الطُـلّابِ، واخْتُزِلَـتْ بَرامِجُ التَّدْريـسِ إلـى أقْصى الحُـدودِ، وحُوِّلَـتِ الدُّروسُ إلـى مُباريـاتٍ تَفاعُلِيَّـةٍ سَـخيفَةٍ لُحْمَتُهـا الخِطابُ البَصَرِيُّ وَسَـداها ـ وذلِكَ بالإكْـثارِ مِنْ اسْـتِعْمالِ الصُّـوَرِ ـــ وأُزْرِيَ بالامْتِحـانِ بأنْ تَحَـوَّلَ إلى مُجَرَّدِ اخْتِيـارٍ بَيْـنَ مَجْموعَـةٍ مِـنَ الجَوابـات!

ولكِـنْ حَبَّـذا وَقَـفَ الأمْـرُ عِنْـدَ هـذا الحَـدِّ! فَفـي إيطاليـا حَيْـثُ يَتَّخِـذُ التَّعَثُّـرُ بَيْـنَ الطُـلّابِ الجامِعِيِّيـنَ أبْعـادًا مُقْلِقَـةً، تُـكافَأُ الجامِعـاتُ التـي تَنْجَـحُ فـي تَخْريـجِ طُلّابِهـا ضِمْـنَ الآجـالِ

المَنْصوصِ عَلَيْها بِمِنَحٍ مالِيَّةٍ، أمّا تِلْكَ التي تُخْفِقُ في ذلك فتُعاقَبُ وَتُغَرَّم.

فعلى افْتِراضِ أنَّ أَلْفَ طالِبٍ وطالِبَةٍ تَسَجَّلوا سَنَةَ كذا في الجامِعَةِ الفُلانيَّةِ، لا بُدَّ، في غُضونِ ثَلاثِ سَنَواتٍ، أنْ يُخَرَّجَ هؤلاءِ الطُلّابُ والطّالِبات. ولا عَيْبَ في هذا المَطْمَحِ لَوْ أنَّ المُشَرِّعينَ وَضَعوا نَصْبَ أعْيُنِهِم جَوْدَةَ التَّعْليمِ الذي يُرادُ أنْ يُزَوَّدَ بِهِ هَؤلاءِ الطُلّابُ والطّالباتُ لا كَمِّيَّتَهُ فَحَسْب. ولكنْ، وبِما أنَّ أحْدًا لا يَمْلِكُ أنْ يُؤَكِّدَ جَوْدَةَ التَّعْليمِ هذا، وأنْ يَكيلَ المَهاراتِ الحَقيقيَّةَ التي يَكْتَسِبُها هؤلاءِ الطَّلَبَةُ والطّالباتُ، لا مَفَرَّ مِنَ التَّسْليمِ بأنَّ هذِهِ الآلِيَّةَ لَيْسَتْ سِوى حيلَةٍ لِتَحْفيزِ المُؤَسَّساتِ الجامِعِيَّةِ النّاشِدَةِ دَوْمًا مَزيدًا مِنَ التَّمويلِ، ولا سِيَّما أنَّ خَفْضَ الميزانيّاتِ يُؤَدّي، حُكْمًا، إلى اشْتِدادِ المُنافَسَةِ بَيْنَ المُؤَسَّساتِ الجامِعِيَّةِ على المَوارِدِ المالِيَّةِ التي تُخَصِّصُها الدُّوَلُ لهذا القِطاع. كذلكَ يَنْتَهي الأمْرُ بأنْ تَنْقَلِبَ هذِهِ

المُؤَسَّساتُ إلى مَزارِعَ لِتَخْريجِ الجامِعِيِّين لا أكْثَرَ ولا أقَلّ!

الطالِبُ بِوَصْفِهِ زَبونًا

في مُحاضَرَةٍ مَدارُها على انْحِطاطِ المُؤَسَّسَةِ الجامِعِيَّةِ بَيَّنَ سيمون ليس(*) أنَّ بَعْضَ طُلّابِ كُلِّيّاتِ الجامِعاتِ في كندا باتوا يُعامَلونَ مُعامَلَةَ الزَّبائِنِ بالمَعْنى الحَرْفِيِّ للكَلِمَة.

ولا يُظَنَّنَّ أنَّ في هذا التَّشْخيصِ مُبالَغَة. فَمَنْ يُطالِعْ بَعْضَ التَّحْقيقاتِ التي وُضِعَتْ عن جامِعَةِ هارڤرد، وهيَ ما هيَ بَيْنَ مُؤَسَّساتِ التَّعْليمِ الجامِعِيِّ في العالَمِ، لا يَمْلِكُ إلّا التَّسْليمَ بِصِدْقِ هذا التَّشْخيصِ وواقِعِيَّتِه.

عَلَيك مَثَلًا بِما يَقولُهُ إيمانويل جافلان(**) في

(*) سيمون ليس، (١٩٣٥ ـ ٢٠١٤)، واسْمُهُ الحَقيقِيُّ پيار ريكمانز، كاتِبٌ وناقِدٌ أدبي ومُتَرْجِمٌ، وعالِمُ صينيات وأسْتاذٌ جامِعِيٌّ بلجيكيٌّ أستراليّ.

(**) إيمانويل جافلان: مُفَكِّرٌ وكاتِبٌ فَرَنْسِيٌّ مِنْ مَواليدِ ١٩٦٣. في سيرَتِهِ أيْضًا سَنواتٌ مِنَ الخِدْمَةِ في السِّلْكِ الدّيبلوماسِيِّ قادَتْهُ إلى أنغولا والبرازيل.

العَلاقَـةِ الزَّبائِنِيَّـةِ بَيْـنَ طُـلّابِ هـذِهِ الجامِعَـةِ العَريقَـةِ وأسـاتِذَتِها فـي مَقالَـةٍ نَشَـرَتْها **لـو موند** الفَرَنْسِـيَّةُ فـي ٢٨ أيـار (مايـو) ٢٠١٢:

«بِمـا أنَّ الطالِـبَ المُلْتَحِـقَ بهارفـرد يَدْفَـعُ الأثْمـانَ الباهِظَـةَ لِقـاءَ الْتِحاقِـهِ بهـذِهِ المُؤَسَّسَـةِ، فهـو لا يَتَوَقَّـعُ مِـنْ أسـاتِذَتِهِ التَّمَكُّـنَ التَّعْليمِـيَّ والكَفـاءَةَ التَّعْليميَّـةَ فَحَسْـبُ، وإنَّمـا الطَّاعَـةُ أيْضًـا... ألَيْـسَ أنَّ الزَّبـونَ دائِمًـا علـى حَـقٍّ؟».

أمّـا تَفْسـيرُ ذلـك تَفْسـيرًا اقْتِصاديًّا فَبَسـيطٌ للغايَة: يَبْلُـغُ حَجْـمُ المَبالِـغِ التـي يَسْـتَدينُها الطُـلّابُ الأميركيّـونَ لِتَسْـديدِ نَفَقـاتِ دِراسَـتِهِم الجامِعِيَّـةِ حوالـى ألْـفِ مِليـارِ دولار. مِـنْ ثَـمَّ فـإنَّ هَـؤلاءِ الطُـلّابَ يَلْتَحِقـونَ بالجامِعاتِ وَهُمْ أقَلُّ سَـعْيًا إلى المَعْرِفَـةِ مِنْهُـم إلـى تَحْصيـلِ الفوائِـدِ الماليَّةِ التي يُمْكِـنُ أن يَعـودَ بهـا عَلَيْهِـم مـا اسْـتَثْمَروهُ خِـلالَ الْتِحاقِهِـم بالجامِعَـة.

إنَّ ما تَدُرُّهُ رُسومُ التَّسْـجيلِ على خَزائِنِ الجامِعاتِ يُمَثِّلُ كُـتْلَةً لا يُسْـتَهانُ بِها مِنْ ميزانيَّـةِ كُلِّ جامِعَةٍ

وهـذِهِ المُلاحَظَـةُ تَصْـدُقُ على الجامِعـاتِ الخاصَّةِ كمـا علـى الجامِعـاتِ الحُكوميَّـة. هـذا عِلْمًـا أنَّ الجامِعـاتِ لَيْسَـتْ فـي الخِيَـرَةِ مِـنْ أمْرِهـا فـي ضَـرورةِ السَّـعْي إلـى اجْتِـذابِ الطُـلّابِ والطّالباتِ بِشَـتّى السُّـبُلِ والوَسـائِلِ المُمْكِنَـةِ تَمامًـا شَـأْنَ الحَمَـلاتِ الدِّعائِيَّـةِ التـي يُـرادُ مِنْهـا التَّرْويـجُ لأيِّ مُنْتَـجٍ اسْـتِهلاكِيّ. وهكـذا يَنْتَهـي الأمْـرُ بالجامِعاتِ إلـى مُؤَسَّسـاتٍ تُدَلِّــلُ علـى شَـهاداتِها مُرَكِّـزَةً فـي تَدْليلِهـا هـذا، بِشَـكْلٍ خـاصٍّ، علـى أنَّهـا تُوَفِّـرُ لِزَبائِنِهـا مِـنَ الطُـلّابِ بَضائِـعَ عِلْمِيَّـةً واخْتِصاصاتٍ يَسْـهُلُ تَسْـييلُها فـي سـوقِ العَمَـلِ، وأنَّ العائِدَ مِنْ وَرائِهـا مَضْمـونٌ أو شِـبْهُ مَضْمـونٍ بأقْصـى سُـرْعَةٍ مُمْكِنَة .

الجامِعاتُ كَمَشاريعَ تِجارِيَّةٍ والأساتِذَةُ كَمُوَظَّفين إدارِيِّين

بِنـاءً علـى مـا تَقَـدَّمَ لا مُبالَغَـةَ قَـطُّ فـي القَـوْلِ بأنَّ المَـدارِسَ والجامِعـاتِ تَحَـوَّلَـتْ شَـيْئًا فَشَـيْئًا إلـى

مَشـاريعَ تِجارِيَّـة. ولا مـا يُقــالُ فـي ذلـكَ لـولا ما يُـؤَدّي إلَيْهِ هـذا التَّحَوُّلُ مِـنْ تَبْذيرٍ فـي الميزانيّاتِ العامَّـةِ ومِـنْ شَـطَطٍ فـي إدارَةِ هـذِهِ الميزانيّـات. ضِـفْ إلى مـا تَقَـدَّمَ أنَّ تحَـوُّلَ الجامِعـاتِ إلـى مَشـاريعَ تِجارِيَّـةٍ يُـؤَدّي اسْـتِطرادًا إلـى تَحَـوُّلٍ فـي وَظيفَـةِ مُـدَراءِ الجامِعـاتِ وعُمَدائهـا.

فالمُديـرُ، أوِ العَميـدُ، فـي مُؤَسَّسَـةٍ جامِعِيَّـةٍ هَمُّهـا التِّجـارَةُ، إنَّمـا يُوْصَفُ بالنّاجِحِ بِمِقْدارِ ما يَتَيَسَّـرُ لَهُ أنْ يَضُخَّ مُتَخَرِّجينَ جُدُدًا في شَـرايينِ سـوقِ العَمَلِ لا أكْـثَرَ ولا أقـلّ. وهكـذا يَتَخَلّـى هَـؤلاءِ الأساتِذَةُ والنُّظّـارُ عَـنْ وَظيفَتِهِـم التَّرْبَويَّـةِ وَيَتَقَمَّصـونَ قَميـصَ رِجالِ أعْمـالٍ هَمُّهُمُ الحِرْصُ علـى ميزانِيّاتِ المُؤَسَّساتِ/المَشـاريعِ التِّجارِيَّـةِ التـي يُديرونَهـا.

وإذْ يَتَحَـوَّلُ المُديـرُ إلـى رَجُـلِ أعْمـالٍ فـلا عَجَـبَ بـأنْ يَتَحَـوَّلَ الأساتِذَةُ إلـى بيروقراطيِّيـنَ مُطيعيـنَ فـي خِدْمَـةِ رَبِّ عَمَلِهِم. وَعِـوَضَ أنْ يَنْصَـرِفَ الواحِـدُ مِنْهُـم إلـى ما يُنْتَظَـرُ مِنْ أسْـتاذٍ جامعِيٍّ أنْ يَنْصَـرِفَ إلَيْـهِ، تَراهُم يَقْضونَ السّـاعاتِ الطِّوالَ في

ضَبْطِ المَلَفّاتِ الإداريَّـةِ، وفـي تَدْقيقِ الحِسـاباتِ، وفـي وَضْـعِ تَقاريـرَ تُوَظَّـفُ لاحِقًـا فـي إحْصائِيّـاتٍ مَشْـكوكٍ بالجَـدْوى مِنْهـا، وفـي مُراجَعَـةِ ميزانيّـاتٍ تَـتَقَلَّصُ مِـنْ فَصْـلٍ إلى آخَـرَ، وفي مَلْءِ اسْـتِماراتٍ لَـمْ يُنْـزَلْ بِهـا مِـنْ سُـلْطانٍ، وفـي كِـتابَةِ مَشـاريعَ يُؤَمَّـلُ أنْ تأتِـيَ بِمِنَـحٍ وإعانـاتٍ، وفي تَـأَوُّلِ تَعاميمَ وِزارِيَّـةٍ غامِضَـةٍ ومُتَناقِضَـةٍ.

يَنصَرِفُ الأسـاتِذَةُ إلى كُلِّ هـذِهِ المَهامِ، أمّا ما يَبْقى مِـنْ وَقْـتٍ، إنْ بَقِـيَ، فَيَقْضونَـهُ بَيْـنَ الاجْتِماعـاتِ المُتلاحِقَـةِ، (اجْتِماعـاتِ مَجْلِـسِ الإدارَةِ، مَجْلِـسِ الكُلِّيَّةِ، مَجْلِسِ القِسْـمِ)، فَـتَمْضي السَّـنَةُ الجامِعِيَّةُ ولا يَبْقـى إلّا انْتِظـارُ السَّـنةِ التّالِيَـةِ!

نَعَـم، آخِـرُ هَـمٍّ الجامِعـاتِ عِنْدَمـا تَـتَحَوَّلُ إلـى مَشـاريعَ تِجارِيَّـةٍ جَـوْدَةُ التَّعْليـمِ والبَحْـثُ العِلْمِيّ. وإنَّمـا تَـأْخُذُ هـذِهِ المُلاحَظَـةُ مَداهـا، وتَـتَبَيَّنُ فَداحَتُها، متى ما ذَكَّرَ الواحِدُ مِنّا نَفْسَـهُ أنَّ الأُسْـتاذَ الجامِعِـيَّ هـو، تَعْريفًـا، طالِـبُ عِلْـمٍ بـلا كَلالَـةٍ ولا انْقِطـاعٍ، وأنَّ الأُسْـتاذَ هـذا، متـى مـا تَعَـذَّرَ عَلَيْهِ أنْ

يُعِدَّ دَرْسَهُ بالشَّكْلِ المُناسِبِ لا يُؤَدّي المُتَوَقَّعَ مِنْه كما يَنْبغي أنْ يكون. مِنْ هُنا، فإنَّ ما هو حاصِلٌ مِنْ طَلاقٍ بَيْنَ التَّدْريسِ وبَيْنَ البَحْثِ العِلْمِيِّ يَحْكُمُ على حِصَصِ التَّدْريسِ بأنْ تَتناسَخَ في تَكرارٍ سَطْحِيٍّ لا يُفيدُ ولا يُسْتَفادُ مِنْه.

خُلاصَةُ القَوْلِ إنَّهُ مِنَ المُسْتَحيلِ أنْ تُدَبَّرَ المَدارِسُ والجامِعاتُ، وأن تُدارَ، كَما المَشاريعُ التِّجارِيَّةُ الرِّبْحِيَّة!

على الضِّدِّ مِمّا تُبَشِّرُ بِهِ قَوانينُ السّوقِ فإنَّ جَوْهَرَ الثَّقافَةِ هو «المَجّانيَّة». هذا ما يُذَكِّرُنا بِهِ النَّظَرُ في التّاريخِ العَريقِ للجامِعاتِ والمُؤَسَّساتِ العِلْمِيَّةِ الأوروبيَّةِ مِنْ مِثْلِ الكوليج دو فرانس(*).

إنَّ وَظيفَةَ هذِهِ المُؤَسَّساتِ على ما يُبَصِّرُنا

(*) الكوليج دو فرانس: مَعْهَدٌ فَرَنْسِيٌّ كانَ إنْشاؤُهُ عامَ ١٥٣٠ على يَدِ المَلِكِ فرانسوا الأوّل (١٤٩٤ ـ ١٥٤٧) يُعْنى بالبَحْثِ العِلْمِيِّ والتَّعْليم العالي. شِعارُ هذا المَعْهَدِ «نُعَلِّمُ كُلَّ شَيْء»، والتَّعْليمُ فيهِ تَشْريفٌ للمُبَرِّزينَ مِنَ العُلَماءِ، أمّا حُضورُ الدُّروسِ فَمُتاحٌ، إلا اسْتِثْناءً، بالمَجّانِ، للجَميع.

النَّظَـرُ في ذلـكَ التّاريخِ هـي اكْـتِسابُ المَعارِفِ وتَطْويرُهـا فـي مَنْأى وفـي مَعْزِلٍ مِـنْ أيِّ إمْـلاءٍ نَفْعِـيٍّ أوْ عَمَلِـيّ. فَبِفَضْـلِ هـذا النَّمَـطِ مِـنَ الاكْـتِسابِ، يَـزْدادُ واحِدُنـا نُضْجًـا وَقُـدْرَةً علـى تَمْييـزِ الأُمـورِ واسْـتِطرادًا علـى الاسْـتِقلالِ بِرَأْيِـهِ فيهـا. وكما يُسْـتَفادُ مِـنَ النَّظَـرِ في ذَلِـكَ التّاريخِ أيْضًـا وأيْضًـا، فـإنَّ مِـراسَ النّافِـلِ والمَجّانِـيِّ وكُلِّ مـا يَتَعَـذَّرُ قِياسُـهُ بالمَقاييـسِ السّـائِرَةِ لا يَلْبَـثُ أنْ يُؤْتِـيَ، علـى المـدى الطَّويـلِ، مـا لا يُتَوَقَّعُ مِنْ ثِمـارٍ ومِـنْ مَرابِـح.

بِطبيعَـةِ الحـالِ، لَيْـسَ القَصْـدُ مِمّا تَقَـدَّمَ الازْدِراءُ بالتَّدْريـبِ المِهَنـيِّ بِوَصْفِـهِ أحَدَ أهْـدافِ التَّعْليمِ والدِّراسَـةِ الجامِعِيَّـة. لَيْـسَ كذلـكَ بَـلِ الضِّـدُّ مِنْـه: مَـنْ ذا يَجْـرؤُ علـى القَـوْلِ مَثَـلًا بـأنَّ غايَـةَ التَّعْليـمِ القُصْـوى والوَحيـدَةَ هـي إعْـدادُ أطِبّـاءَ مَهَـرَةٍ ومُهَنْدسـينَ حاذِقيـنَ ومُحاميـنَ مُفَوَّهين؟ إنَّ تَوْجيـهَ التَّعْليـمِ هـذا المُوَجَّـهَ المِهَنِيَّ يُسْـقِطُ عَنْـهُ، عَـنِ التَّعْليـمِ، بُعْـدَهُ الكُلِّـيَّ الإنْسـانيّ. فمـا

مِـنْ مِهْنَـةٍ يُمْكِـنُ المَـرْءُ أنْ يَمْتَهِنَهـا لا تَقْتَضـي مِـنْ مُمْتَهِنِهـا، لِيُحْسِـنَ القِيـامَ بِهـا علـى الوَجْـهِ الأكْمَـل، ألّا يُخْضِـعَ مَهاراتِـهِ الفَنِّيَّـةَ فيهـا، لِدَفْتَرِ شُـروطٍ أخْلاقِـيٍّ ثَقافِـيٍّ يَتَجـاوَزُ حُـدودَ هـذا الاخْتِصـاصِ أو ذاكَ. إنَّ إنْـزالَ دَفْتَـرِ الشُّـروطِ هـذا مَنْزِلَـةَ الضَـوْءِ مِـنَ المَهـاراتِ العِلْمِيَّـةِ هـو مـا يُمكِـنُ أنْ يُحَفِّـزَ الطُّلّابَ علـى تَوْسـيعِ مَدارِكِهِـم بِحُرِّيَّـةٍ، وعلـى إطْـلاقِ العِنـانِ لِداعِيَةِ الفُضـولِ لَدَيْهِـم.

بَـلْ لَنـا أنْ نَذْهَـبَ إلى أبْعَدَ مِمّـا تَقَدَّم: إنَّ البُعْدَ التَّرْبَـوِيَّ المُنْقَطِـعَ كُلَّ الانْقِطـاعِ عَـنِ المَـآرِبِ النَّفْعِيَّـةِ هـوَ الشَّـرْطُ المَشْـروطُ، الآنَ، وفـي المُسْـتَقْبَلِ، لِكَـيْ يَعْمُـرَ المُجْتَمَـعُ بِمُواطنيـنَ يَأْنَسـونَ مِـنْ أنْفُسِـهِم المَسؤوليَّةَ بِصِفَتِهِـم هـذِهِ، وبِصِفَتِهِـم هـذِهِ يَطَّرِحـونَ عِنْـدَ الضَّـرورَةِ أنانِيّاتِهِـم مُقَدِّميـنَ عَلَيْهـا المَصْلَحَـةَ العامَّـةَ ومُوجِـبَ التَّضامُـنِ الاجْتِماعِـيِّ والإنْسـانيِّ، رافعيـنَ شِـعارَ التَّسـامُحِ ومُسْتَمْسـكينَ بالحُرِّيَّـةِ

وَبِضَـرورةِ المُحافَظَـةِ على الطَّبيعَـةِ والدِّفاعِ عَنِ العَدالَـة.

توكڤيل: عن الجَمالاتِ المَيْسورَةِ ومَخاطِرِ ديمقراطيّات السّوقِ

نَديـنُ لِتوكـڤيل(*)، فـي ما نَديـنُ لَـهُ، فـي مُؤَلَّفِـهِ الشَّـهيرِ **الدّيمقراطيَّـة فـي أميـركا**، بِصَفَحـاتٍ مُنيـرَةٍ عَـنِ المَخاطِـرِ التـي تُحْـدِق بـ«الدّيمُقراطِيّـاتِ التِّجارِيَّـةِ»، (أو «ديمقراطيّـات السّـوقِ»)، مِنْ قَبيـلِ الولاياتِ المُتَّحِـدَةِ الأميركيَّة.

يَعْـرِضُ توكــڤيل فــي هــذِهِ الصَّفَحــاتِ لِحَيــاةِ الأميركيِّيــنَ الاجْتِماعيَّــةِ والسِّياسِــيَّةِ راصِــدًا مــا يَحــوطُ بِمُجْتَمَــعٍ دأبُــهُ السَّــعْيُ إلــى الرِّبْــحِ مِــنْ مَخاطِــر. يَــقول:

«لـدى الكَـثيرينَ مِنْهُـم نُـزوعٌ أنانـيٌّ، تُحَرِّكُـهُ روحُ الإتْجـارِ والصِّناعَـةِ، إلى مُكْـتَشَفاتِ العَقْلِ البَشَـرِيّ؛

(*) ألكسيس دو توكـڤيل، (١٨٠٥ ـ ١٨٥٩)، مُؤَرِّخٌ فَرَنْسِيٌّ مِنْ رُوّادِ المُقارَبَـةِ التّاريخِيَّـةِ لِعِلْمِ السِّياسَـة.

على أنَّهُ لا بُدَّ مِنَ الحِرْصِ على التَّمْييزِ بَيْنَ هذا النُّزوعِ وبَيْنَ الهوى المُنَزَّهِ الذي تَرى مِنْ خِلالِهِ قِلَّةٌ قَليلةٌ هذِهِ المُكْتَشَفات. نَحْنُ، إذًا، بَيْنَ اثْنَيْن: شَغَفٌ بِتَوْظيفِ المَعارِفِ، وتَوْقٌ إلى المَعارِفِ آخِرُ هَمِّهِ ما يُمكِنُ أنْ تُوَظَّفَ هذِهِ المَعارِفُ في سَبيلِه».

ويُضيفُ توكفيل:

«إنَّ المَيْلَ إلى المُفيدِ والمُجْدي غالِبٌ على حُبِّ الجَمالِ بِسَبَبٍ مِنَ السَّعْيِ الحَثيثِ الذي يَسعاهُ كُلُّ أحَدٍ لِتَحْصيلِ المَزيدِ مِنَ الرَّفاهِيَة. وفي مُجْتَمَعٍ نَفْعِيٍّ مِنْ مِثْلِ هذا المُجْتَمَعِ يَنْتهي الأمْرُ بأنْ يَغْلِبَ على النّاسِ حُبُّ الجَمالاتِ المَيْسورَةِ المُتَناوَلِ التي لا تَقْتَضي حِيازَتُها كَبيرَ جَهْدٍ أو كَثيرَ وَقْت... إنَّهُم يُحِبّونَ الكُتُبَ السَّهْلَةَ الاقْتِناءِ، اليَسيرَةَ على القِراءَةِ التي لا يَتَطَلَّبُ الوقوفُ على مَعانيها تَبَحُّرًا في البَحْثِ أو اسْتِغْراقًا في التَّأَمُّل... ولا عَجَبَ مِمَّنْ يَذْهَبُ في التَّفْكيرِ هذا المَذْهَبَ أن يَتَراءَى لَهُ أنَّ أعْظَمَ فُتوحاتِ الذَّكاءِ البَشَرِيِّ هي تِلْكَ الفُتوحاتُ التي تُقَصِّرُ طَريقَ الوصولِ إلى الثَّرْوَةِ، وتِلْكَ الآلاتُ التي تَخْتَصِرُ ساعاتِ العَمَلِ، وتِلْكَ الأدَواتُ التي تُخَفِّضُ نَفَقاتِ الإنْتاجِ، وتِلْكَ المُكْتَشفاتُ التي تُدْني المُتَعَ وتُكَثِّرُها.

تَحْتَ هـذِهِ العَناويـنِ يَتَّصِـلُ مـا بَيْـنَ الشُّـعوبِ الدِّيمقراطيَّـةِ وبَيْـنَ العُلومِ وتَحْتَ هـذِهِ العَناوينِ يَكـونُ فَهْمُهـا لهـا وتَوْفيرُهـا إيّاها.

مِنْ هذا التَّشْـخيصِ يَنْتهي توكـڤيل إلى ما يَعْتَبِرُهُ خُلاصَةً مَنْطِقِيَّةً:

«فـي مُجْتَمَـعٍ يَخْضَـعُ لهـذا النَّمَـطِ مِـنَ التَّنْظيـمِ، لا غَـرْوَ أن يُهْمِـلَ النّـاسُ الجانِـبَ النَّظَـرِيَّ مِـنْ عَمَـلِ العَقْـلِ... [وهَكَـذا،] ففـي الوِلاياتِ المُتَّحِـدَةِ لا تكادُ أنْ تَجِـدَ مَـنْ يقِـفُ نَفْسَـهُ علـى النَّظَـرِيِّ المُجَـرَّدِ مِـنَ المعـارِفِ الإنْسـانِيَّة... ولَعَـلَّ هذا الإعْـراضَ عَنِ النَّظَـرِيِّ والمُجَـرَّدِ أنْ يَفْشـوَ علـى مـا أظُـنُّ، وإنْ بِدَرَجـاتٍ أقَـلَّ، بَيْـنَ سـائِرِ الأُمَـمِ الدِّيمقراطيَّـة».

وإذ يُلاحِـظُ توكـڤيلُ هـذِهِ المُلاحَظَـةَ، لا يَفوتُـهُ أنْ يُحَـذِّرَ مِمّـا قَـدْ يُـؤَدّي إلَيْـهِ الاحْتِفـاءُ بالنّافِـعِ المُجْـدي والحَـطُّ مِنَ الجَهْـدِ الذِّهْنِيِّ المُجَـرَّدِ مِنْ سُـقوطٍ فـي هاوِيـاتِ الهَمَجِيَّـة:

«وَمِـنَ الشُّـعوبِ مَـنْ يَـدَعِ الأنْـوارَ التـي يَسْـتَنيرُ بِهـا تُنْتَـزَعُ مِنْـهُ، ومِـنَ الشُّـعوبِ مِـنْ يُطفِـئُ هذِهِ الأنْـوارَ بِيَدَيْـه».

بالطَّبْعِ، لَيْسَ توكـفيل مِـنَ السَّـذاجَةِ بِحَيْـثُ يُعَـوِّلُ علـى مُجَرَّدِ الآدابِ والفُنـونِ للحَيْلولَـةِ دونَ أنْ يَتَصَحَّـرَ الفِكْـرُ ولكِـنَّهُ علـى قَناعَـةٍ بـأنَّ المَعـارِفَ المَجّانِيَّـةَ والمُنَزَّهَـةَ عَـنِ المَآرِبِ العَمَلِيَّـةِ «تُيَسِّـرُ لأُولَئِـكَ الذيـنَ يَكْـتَسِبونَها أنْ لا تَرْجَـحَ مِنْهُـمْ كِفَّـةُ العُيـوبِ التـي قَـدْ تُعيبُهُـم وذلـكَ بـأنَّ هذِهِ المَعارِفَ تُثَقِّـلُ الكِفَّةَ الأُخرى».

هرتسن: لا وَقْتَ لدى التُّجّار

رَغْمَ أنَّ الكاتِبَ الرّوسِـيَّ ألكسـندر هرتسـن(*) لا يَكُـنُّ كَبيـرَ إعْجـابٍ لتوكـفيل فهو يرى، شَـأْنَ هذا الأخيـر، بِتَوَجُّـسٍ، إلى فِئَـةِ التُّجّارِ مِنْ أبْنـاءِ عَصْرِهِ حَيْـثُ إنَّهُـم مُسْـتَغْرِقونَ فـي التِّجـارَةِ ولا شَـيْءَ سِـوى التِّجـارَةِ ومُتَعَلِّقاتِهـا («السِّـلَعُ، المُبـادَلاتُ والمُعامـلاتُ وكُلُّ مـا يَقَـعُ تَحْـتَ حَـدِّ المِلْـكِ والحِيـازَةِ»).

(*) ألكسـندر هيرتسـن، (١٨١٢ ـ ١٨٧٠)، كاتِـبٌ ومُفَكِّـرٌ روسِـيٌّ مِـنْ آبـاءِ الفِكْرِ الاشْتِراكي.

بِبَراعَـةٍ يَصِـفُ هرتسـن فـي كتابـه **الماضـي والتَّأمُّـلات** دُسـتورَ هَـؤلاءِ التُّجّـارِ فـي الحَياةِ وفي السُّـلوك:

«أَثْـرِ، ضاعِـفْ مَداخيلَكَ لِتَصيرَ كَـثيرةً كَـثْرَةَ حَبّاتِ الرَّمْـلِ علـى الشّـاطئِ، أَفِدْ بِـلا قَيْدٍ أو شَـرْطٍ أو رادِعٍ مِـنْ ثَرْوَتِـكَ ومِـنْ جاهِـكَ، ولكـنْ حَـذارِ أَنْ تُلْحِـقَ بِنَفْسِـكَ الضُّـرَّ؛ عِـشْ هكـذا مُتَنَعِّمًـا بالمـالِ والجـاهِ فَتَـتَقَدَّمَ بِـكَ السِّـنُّ الهُوَيْنـا وتُزَوِّجَ أبنـاءَكَ وتُخَلِّفَ مِـنْ بَعْـدِكَ أَطْيَـبَ الذِّكرى».

مَـنْ لا هَـمَّ لَهُ سِـوى أَنْ يَبيعَ بِضاعَتَهُ مُدلِّـلًا عَلَيْها بأنَّهـا الأفْضَـلُ، وأَنْ يَشْـتري بَضائِـعَ الآخَريـن، بَعْدَ التَّبْخيـسِ فيهـا، بِأَقَـلَّ مِـنْ ثَمَنِهـا العـادِلِ، يَنْتَهـي الأَمْـرُ بِـهِ إلـى أَنْ يُصَوِّرَ الأسْـقَطَ مِنْ سَـقَطِ المَتاعِ علـى أَنَّـهُ نـادِرٌ عَزيـزٌ، وأَنْ يَجْعَـلَ مِـنْ رِعايَـةِ المظاهِـرِ هَمَّـهُ الوَحيـدَ الأَوْحَـدَ لا مُباليًـا بِمـا قَـدْ يُواريـهِ هـذا المَظْهَـرُ مِـنْ سَـوْآتٍ وعَـورات. وفـي وَسَـطٍ اجْتِماعِـيٍّ يُعْلـي مِـنْ شَـأْنِ المَظْهَـرِ علـى حِسـابِ «الكَرامَـةِ الباطِنَـةِ» لا مـا يُدْهِـشُ أَنْ تَـتَسَمّى الجَهالَـةُ الجَهْـلاءُ ثَقافَـةً، وأن تُحْمَلَ على

هـذا المَحْمَلِ. وبِما أنَّهُ لا شَـأْنَ يُذْكَـرُ، في مُجْتَمَعٍ بورجـوازي، إلّا لِما لَـهُ مَحَـلٌّ واضِحٌ مِـنَ التَّرْكيبَـةِ الاجْتِماعِيَّـةِ، ومِـنْ نِظـامِ الاسْـتِغلالِ الاجْتماعـيِّ القائِـمِ، فَلَيْـسَ لِلْعِلْـمِ والتَّعْليمِ في وَسَـطٍ مِنْ هذا القَبيـلِ مَحَـلٌّ فـي الصَّـدارَةِ أوْ شَـأْنٌ رَفيـع، وحَيْثُ الحَياةُ سِـباقٌ لاهِثٌ وَراءَ المالِ والثَّرْوَة، فالإنْسـانُ رَهيـنُ مـا بِحَوْزَتِـهِ مِـنْ ثَـرْوَةٍ ومـا يَمْلِك:

«[فـي وَسَـطٍ مِـنْ هذا القَبيـلِ]، إنَّما الحَياةُ لا شَـيْءَ سِـوى مُضارَبَةٍ في سـوقِ المَـزاد... كُلُّ مَرافِقِ الحَياةِ حَوانيـتُ ودَكاكيـنُ صَيْرَفَـةٍ: إداراتُ تَحْريـرِ الجَرائِدِ، أقْلامُ الاقْتِراعِ، المجالِـسُ التَّمْثيليَّـة... وعَلَيْه قِسْ...».

جون هنري نيومان:
لا لِجامِعاتٍ هَمُّها الأوْحَدُ تَخريجُ ذَوي المِهَن

فـي عَـدَدٍ مِـنَ المَقـالاتِ ومِـنَ المُطالَعـاتِ التـي خَـصَّ بِهـا جـون هنـري نيومـان(*) الجامِعَـةَ، كَرَّسَ

(*) جـون هنـري نيومان، (١٨٠١ ـ ١٨٩٠)، شـاعِرٌ ولاهوتيٌّ بريطانيٌّ سِـجاليٌّ بَدَأَ حياتَـهُ كاهِنًـا أنغليكانيًا وخَتَمَها كردينـالًا كاثوليكيًا.

هذا الشّـاعِرُ واللّاهوتيُّ البريطانـيُّ قَلَمَهُ للمُرافَعَةِ عَـنِ القيمَـةِ الكُلِّيَّـةِ للتَّرْبِيَـةِ والتَّعْليـم. فَفِكْـرَةُ الجامِعَـةِ، علـى رَأْيِ نيومـان، هـي بالضِّـدِّ مِمّـا يُحـاوِلُ البَعْـضُ التَّرْويـجَ لَـهُ مِـنْ أَنَّ غايَـةَ التَّعْليمِ الجامِعِـيِّ هـي المَنْفَعَـةُ العَمَلِيَّـةُ:

«يَذْهَـبُ بَعْضُهُـم، ولَيْـسَ مِمَّـنْ يُسْـتَهانُ بِهِـم، إلـى أنَّ التَّرْبِيَـةَ والتَّعْليـمَ يَنْبغـي أنْ يُقْتَصَـرا على غاياتٍ مُعَيَّنَـةٍ ومُحَـدَّدَةٍ وأنْ يُؤَدِّيـا إلـى نَتائجَ بِعَيْنِهـا قابِلَةٍ للكَيْـل والقِيـاس. وَإنَّما يَتَأَسَّـسُ هـذا المَذْهَـبُ على أنَّ لِـكُلِّ مـا فـي الوجودِ مِنْ بَشَـرٍ أو مِنْ أَشْـياءَ ثَمَنًا. ويَسْـتَتْبِعُ هـذِهِ النَّظْـرَةَ إلـى الوجـودِ ومـا فيـهِ، أنَّ كُلَّ نَفَقَـةٍ تَسْـتَدْعي عِوَضًـا يُعَوِّضُهـا. هَـذِهِ المُعادَلَةُ هـي مـا يَهْتدي بِـهِ الدّاعونَ إلـى أنْ تَـكونَ التَّرْبِيَةُ، وأنْ يَكـونَ التَّعْليـمُ، مُوَجَّهَيْـنِ وُجْهَةً نَفْعِيَّـةً مُفيدة. هكـذا، بِنـاءً على هـذِهِ المُعادَلَـةِ، رَفَعَ هَـؤلاءِ الذين أَقْصِـدُ الفائِـدَةَ والإفادَةَ والمُفيـدَ إلى مَرْتَبَةِ الشِّـعارِ والبَوْصِلَـةِ. وبِمـا أنَّ طَلَـبَ المُفيـدِ دينُهُـم ودَيْدَنُهُم فَهُـمُ لا يَتَـرَدَّدون عـن رَفْـعِ عَقائِرِهِم بالسُّـؤالِ، مَثَلًا: "بِلِحـاظِ الأَكْلافِ، مـا هـي الجَـدْوى الاقْتِصادِيَّـةُ مِنَ الجامِعَـةِ؟ ومـا هـي القيمَـةُ التِّجارِيَّـةُ لِهَذِهِ السِّلْعَةِ المُسَـمّاةِ عُلومٌ إنسـانيَّةٌ؟"».

لا مَعنـى، علـى الإطْلاقِ، في عُرْفِ نيومـان، لِزَعْمِ الزّاعميـنَ بأنَّـهُ لا جَـدْوى مِـنْ طَلَـبِ أيِّ شَـيْءٍ مـا لَـمْ تُثْبَـتْ فائِدتُـهُ (العَمَلِيَّـةُ أو التِّجارِيَّـةُ)، ولا مَعْنـى، علـى الإطْلاقِ، لِزَعْـمِ الزّاعميـنَ بـأنَّ «العُمْـرَ قَصيـرٌ ولا وَقْـتَ لأنْ يُنْفِـقَ المَـرْءُ وَقْتَـهُ فـي تُرَّهـاتٍ لا طائِـلَ مِنها سِـوى مـا تُبْرِقُـهُ تَحْتَ الأنْظـارِ مِـنْ بُـروقٍ خُلَّبِيَّة». كذلـكَ لا مَعْنى على الإطْلاقِ للاسْـتِنْتاجِ الـذي مُفـادهُ أنْ لا فائِـدَةَ تُرَجّـى مِـنْ تَعْليـمٍ لا يَسيرُ بالمُتَعَلِّمِ إلـى امْتِهانِ مِهْنَـةٍ أو اصْطِنـاعِ صَنْعَـةٍ أو إلـى اكْـتِشافِ سِـرٍّ مَكنـونٍ مِـنْ أسْـرارِ الكَـوْنِ المـادِّيِّ.

واقِفًـا مَوْقِـف الضِّدِّيَّـةِ المُطْلَقَـةِ مِـنْ تَسْـليعِ التَّرْبِيَـةِ والتَّعْليـمِ، ومِـنْ ضَيِّقِهِمـا تَحْـتَ جَنـاحِ السّـوقِ، يُؤَكِّـدُ نيومـان علـى قيمَـةِ العُلـومِ والمَعـارِفِ بِنَفْسِـها وَلِنَفْسِـها. بَيْـدَ أنَّ تأكيـدَهُ هـذا، علـى مـا يَقـولُ هـو نَفْسُـهُ، لا يَعْنـي، فـي أيِّ حـالٍ مِـنَ الأحْوالِ أنَّ العِلْـمَ غَيْـرَ المُسَـدَّدِ إلـى غايـاتٍ مِهَنِيَّـةٍ، والمَعـارِفَ المُكْتَسَـبَةَ لِغَيْـرِ

وَجْـهٍ عَمَلِـيٍّ لا تُفْضـي، لاحِقًـا، إلـى نَتائِـجَ أهْـلٌ لأنْ تُوْصَـفَ بـ«المُفيـدَة»:

«... ومِـنْ ثَـمَّ، أؤكِّـدُ أنَّ المَعْرِفَـةَ لَيْسَـتْ وَسـيلَةً يَتَوَسَّـلُ بِهـا المُتَوَسِّـلُ سَـبيلَ مَـأْرَبٍ آخَـر، لَيْسَـتْ تَوْطِئَـةً "طَبيعيَّـة" لاكْـتِساب مَهـارَةٍ تِقَنِيَّـةٍ؛ إنَّمـا المَعْرِفَـةُ غايَـةٌ يَبْغيهـا المَـرْءُ لِنَفْسِـها وَيَرْتـاحُ إلَيْهـا. وإذْ أقـولُ قَوْلـي هـذا لا أفْتَعِلُ أيَّما طِبـاقٍ أو تَناقُضٍ بَـلْ أصْـدَعُ بِحَقيقَـةٍ مَفْهومَـةٍ بِنَفْسِـها [...] أمّـا أنَّ اكْـتِسابَ المَعـارِفِ قَـدْ يَرْتَدُّ فَوائِدَ على المُكْـتَسِبِ وعلـى جُمْهـورِ الآخَريـنَ فهـذا مـا لا أنْفيـهِ ولا أُنْكِرُهُ ولا أرى مِـنْ سَـبيلٍ إلـى نَفْيِـهِ أو إلـى إنْـكارِهِ».

بـكلامٍ آخـر: إنَّ اكْـتِسابَ المَعْرِفَـةِ، وإنْ لَـمْ يُـؤَدِّ غايَـةً بِعَيْنِهـا أوْ إلـى غايَـةٍ بِعَيْنِهـا يَنْتَهـي حُكْمًـا، بِفَضْـلِ مـا يُثَقِّفُهُ مِنْ ذِهْنِ المُكْـتَسِبِ إلـى فائِدَةٍ أو فوائِـدَ مـا:

«شَأْنُ الكَـثيرِ مِـنَ الخَيْـرِ أنْ يَسْـتَجْلِبَ كثيـرًا مِـنَ الخَيْـر. ثُـمَّ هـاكَ مـا يَكـونُ مِـنَ الـذَّكاءِ بِنَفْسِـهِ متى أُحْسِـنَتْ رِعايَتُهُ وتَوَفَّرَتْ لأكْمامِهِ أسْبابُ التَّفَتُّح. إنَّ المَعـارِفَ لَيْسَـتْ كَمـالاتٍ جَديـرَةً بالإجْـلالِ بِنَفْسِـها ولِنَفْسِـها فَحَسْـبُ، ولكِـنَّ نَفْعَها لِمَـنْ يُحْرِزُها، ولِمَنْ هُـمْ حَوْلَـهُ، لا يُقـاسُ ولا يُقَـدَّرُ لأنَّـهُ نَفْـعٌ يَشُـعُّ مِثْلَ

إشْعاعِ الخَيْرِ والفَضْلِ، ولَيْسَ بالنَّفْعِ الآنِيِّ الذي تَنْتَهي مَفاعيلُهُ عِنْدَ انْقِضاءِ الحاجَةِ إلَيْهِ أو بالنَّفْعِ التِّجارِيِّ الذي يُشْرى ويُباع».

مِنْ ثَمَّ، وَبِصَرْفِ النَّظَرِ عمّا في كِتاباتِ نيومان مِنْ تأثيراتٍ لاهوتيَّةٍ، وما يَعْتَمِلُ فيها من تَوَتُّراتٍ ذاتِ نَفْحَةٍ دينيَّةٍ، فإنَّ بَيْتَ القَصيدِ مِنْ نَظَرِيّاتِهِ هو اعْتِقادُهُ الجازِمُ بأنَّ «ثَقافَةَ الذَّكاءِ» مُقَدَّمَةٌ على النَّجاحِ المِهَنِيِّ أو العَمَلِيِّ، وبأنَّ المُتَعَلِّمَ قادِرٌ على ما لا يَقْدِر عَلَيْهِ الأُمِّيّ».

في العِنايَةِ بِلُغاتِ الماضي: جون لوك وأنتونيو غرامشي

قِلَّةٌ، على الأرْجَحِ، أولئك الذين قد تُخاطِبُهُم الصَّفَحاتُ المَشْبوبَةُ المُتَوَتِّرَةُ التي كَتَبَها نيومان في مَديحِ العِلْمِ وَتَقْريظِه. ويَزيدُ مِنْ قِلَّةِ هَؤلاءِ ما يَفتُكُهُ المَنْطِقُ النَّفْعِيُّ بِمَناهِجِ التَّعْليمِ في المَدارِسِ والجامِعاتِ. ومِن آياتِ هذا الفَتْكِ المُتَوَحِّشِ ما يَسيرُ مِنْ سُؤالٍ مُفادُهُ الجَدْوى

مِـنْ تَعْليـمِ اللُّغـاتِ القَديمَـةِ فـي عالَـمٍ انْدَثَـرَ فيهِ النّاطِقـونَ بِهـا، وأَوْلـى مِنْها حُجَّـةً، أنَّنـا نَعيشُ في عالَـمٍ لا جَـدْوى فيـهِ مِـنَ التَّمَكُّنِ مِـنْ أيٍّ من هذِهِ اللُّغـاتِ لِتَحْصيـلِ عَمَـلٍ أو وَظيفَـةٍ.

مِـنَ الحُجَـجِ الواهِيَـةِ التي يَتَوسَّـلُ بها تُجّارُ العِلْمِ للقَـدْحِ فـي تَعلُّـمِ اللُّغـاتِ القَديمَـةِ مـا يُدَوِّرونَـهُ مِـنْ أفْـكارٍ عَرَضَـتْ للـوك وحَمَـلَ لِواءَهـا عِلْمًـا أنَّ لـوك نَفْسَـهُ كانَ يَعْتَبِـرُ التَّمَكُّنَ مِـنَ اللّاتينيَّةِ مَتاعًا لا تكْـتَمِلُ بِدونِـهِ تَرْبِيَـةُ «الجَنْتِلْمَن»:

«هـل أسْـخَرُ وأهْـزَلُ مِنْ أبٍ يُنْفِـقُ مِنْ مالِـهِ ويُضَيِّعُ مِـنْ وَقْـتِ ابْنِـهِ فـي تَعْليمِـهِ لُغَـةَ الرّومـانِ القُدمـاءِ فـي حيـنِ أنَّـهُ يُعِدُّ هـذا الابْـنَ لامْتِهـانِ التِّجـارَةِ، أي لامْتِهـانِ مِهْنَـةٍ لَنْ يَسْـتَفيدَ عِنْدَ مُمارَسَـتِها في شَـيْءٍ مِـنْ هَذِهِ اللُّغَةِ، بَلْ لَعَلَّ مُمارَسَـتَها أنْ تُنْسِـيَهُ القَليلَ الـذي تَعَلَّمَـهُ مِنْهـا عَنْوَةً علـى مَقاعِدِ الدِّراسَـةِ؟».

تَحْـتَ حُكْـمِ المَنْطِـقِ النَّفْعِـيِّ الـذي يَسْـتَعْلي علـى شـتّى مرافِـقِ حَياتِنـا، وَتَحْـتَ سَـطْوَتِه، لَقَـدْ يُصيبُنـا بالدَّهْشَـةِ لَرُبَّمـا أنْ نُطالِـعَ تِلْـكَ المُرافَعَـةَ المَحْمومَـةَ التـي خَطَّهـا، في السِّـجْنِ، سَـنَةَ ١٩٣٢،

قَلَمُ أنطونيو غرامشـي(*) دِفاعًا عن تَعَلُّـمِ اليونانيَّةِ واللّاتينيَّـةِ والتَّمُكُّـنِ مِنْهُمـا.

«فـي المَدْرَسَـةِ، أيّامَـذاكَ، كانَـتْ دِراسَـةُ قواعِـدِ اللُّغَتَيْـنِ اللّاتينيَّـةِ واليونانيَّـةِ، ودِراسَـةُ آدابِهِمـا، كمـا دِراسَـةُ التّاريـخِ السِّياسِـيِّ اليونانـيِّ والرّومانـيِّ، رُكنًا تَرْبَوِيًـا رَكينًـا باعْتِبارِ أنَّ المِثالَ الأعْلى الذي جَسَّـدَتْهُ كُلٌّ مِـنْ أثينـا ومِـنْ رومـا كانَ المِثـالَ الاجْتِماعِـيَّ الأعَـمَّ، وكانَ وَجْهًا أساسِـيًّا مِنْ وُجـوهِ الحَياةِ والثَّقافَةِ الوَطَنِيَّتَيْـنِ [...]. لَـمْ يَكُـنْ لهـذِهِ الدِّراسَـةِ غَـرَضٌ عَمَلِـيٌّ مِهَنِـيٌّ مُباشَـرٌ بَـلْ كانَـتْ هـذِهِ الدِّراسَـةُ، في الظّاهِـرِ علـى الأقَـلِّ، مُنَزَّهَـةً عَـنْ أيِّ غَـرَضٍ مِنْ هذا القَبيـلِ ومُوَجَّهَـةً وُجْهَةَ بِنـاءِ الشَّـخْصِيَّة الفَرْدِيَّةِ لِكُلِّ واحِـدٍ مِنّـا وَتَطويرِها. لَـمْ نَتَعَلَّـمِ اللّاتينيَّـةَ واليونانِيَّةَ للحَديـثِ بِهِمـا أوْ طَمَعًـا بِوَظيفَـةٍ. كُنّـا نَتَعَلَّمُهُمـا لِنَتَعَرَّفَ مُباشَـرَةً بِحضارَةِ ذَيْنِكَ الشَّـعْبَيْنِ المُؤَسِّسَيْنِ افْتِراضِيًّـا للحَضـارَةِ الحَديثَـةِ. كُنّـا نَتَعَلَّمُهُمـا لِكَـيْ نَـكونَ مَـنْ نَحْـنُ، ولِكَـيْ نَعِـيَ أكْثَـرَ مَـنْ نَحْن».

رَغْـمَ جَمْهَـرَةٍ مِـنَ الاحْتِجاجـاتِ علـى إهْمـالِ اللُّغـاتِ القَديمَـةِ، ومِـنَ المُصَنَّفـاتِ المَنْشـورَةِ فـي فَرَنْسـا وإيطاليـا الدّاعِيَـةِ إلـى إعـادَةِ النَّظَـرِ

(*) أنطونيو غرامشي، (١٨٩١ ـ ١٩٣٧)، فَيْلَسوفٌ ومُناضِلٌ ماركسيٌّ إيطالي.

بِواقِعِ الحالِ هذا والمُذَيِّلَةِ بِتَواقيعِ نُخْبَةٍ مِنَ الأساتِذَةِ المُسْتَمْسِكينَ بِضَرورَةِ تَعليمِ هذِهِ اللُّغاتِ، ومِنَ المُثَقَّفينَ السّابِحينَ عَكْسَ التَّيّارِ، يَبْدو أنَّ قَطْعَ الطَّريقِ على تَفاقُمِ هذا الإهْمالِ باتَ أمْرًا مُسْتَحيلًا ولا سِيَّما أنَّ الطُّلّابَ يُثْنَوْنَ ثَنْيًا عَنِ الغَوْصِ في دِراساتٍ لا تُؤَدّي بِهِمْ عِنْدَ التَّخَرُّجِ إلى نَتائِجَ مَلْموسَةٍ وإلى أرْباحٍ فَوْرِيَّة. وهَكذا فَإنَّ الإعْراضَ المُطَّرِدَ عَنْ تَعْليمِ اليونانيَّةِ واللّاتينيَّةِ وعَنْ تَعَلُّمِهِما لَنْ يَلْبَثَ أنْ يَمْحَقَ مَحْقًا نِهائِيًّا ثَقافَةً مُسْتَقِرَّةً في أعْماقِنا تَرْفِدُ ثَقافَتَنا بِروافِدَ شَتّى.

لَمْ يَنْتَظِرِ الرِّوائِيُّ الفَرَنْسِيُّ جوليان غراك(*) أنْ تَقَعَ الواقِعَةُ لِيُدْلِيَ بِدَلْوِهِ في هذِهِ المَسْألَة... ففي مَقالَةٍ بِتَوْقيعِهِ نَشَرَتْها جَريدَةُ **لو موند** الفَرَنْسِيَّةُ في ٥ كانون الثّاني (يناير) مِنْ سَنَةِ ٢٠٠٠، نَدَّدَ غراك بِما يَشيعُ في وَسائِلِ الإعْلامِ مِنْ سَطْحِيَّةٍ وتَفاهَةٍ مَرَدُّهُما إلى اسْتِقْواءِ اللُّغَةِ

(*) جوليان غراك، (١٩١٠ ـ ٢٠٠٧)، كاتِبٌ فَرَنْسِيّ.

الإنْكليزيَّـةِ علـى حِسـابِ لُغـاتٍ يُظَـنُّ بِهـا قِلَّـةُ الجَـدْوى والنَّفْـعِ مِـنْ مِثْـلِ اللّاتينيَّـة:

«عِـلاوَةً علـى اللُّغَـةِ الأُمِّ، كانَ التَّلاميـذُ، فـي مـا مضـى يَتَعَلَّمـونَ لُغَـةً واحِـدَةً هـي اللّاتينيَّـة. وَلَـمْ تكُـنِ الدّاعِيَـةُ إلـى تَعَلُّـمِ اللّاتينيَّـةِ تَعَلُّمَ لُغَـةٍ مَيْتَةٍ بِمِقْـدارِ مـا كانَ وَراءَ ذَلِـك، وَراءَ تَعَلُّمِها، اكْـتِسابُ مُنَبِّـهٍ ومُحَفِّزٍ فَنِّيٍّ لا مَثيلَ لَهُمـا باعْتِبارِ أنَّ اللّاتينيَّةَ هـذِهِ لُغَـةٌ مُقَطَّـرَةٌ بِفَضْـلِ مـا كُـتِبَ بِهـا مِـنْ آثارٍ، وأنَّهـا، بالتّالـي، ميـزانُ ذائِقَـةٍ لا مُجَـرَّدَ لُغَـة. أمّا اليَـوْمَ فَهُـم يَتَعَلَّمـونَ الإنْكليزِيَّـةَ بِوَصْفِهـا عامِيَّـةً كَوْنِيَّـةً والطَّريـقَ الأخْصَـرَ إلـى التَّواصُلِ السَّـطْحِي. بَـلْ قُـلْ إنَّ الإنْكليزِيَّـةَ التـي يَتَعَلَّمُها التَّلاميـذُ اليَوْمَ هـي أشْبَهُ بِمِفْتـاحٍ يَفُـكُّ أقْفـالًا كَثيرةً ولكـنْ حَذارِ مِـنَ الظَّـنِّ بِهـذا المِفْتـاحِ خَيْـرًا فهـو لا يَفُـكُّ قِفْـلًا ويَفْتَـحُ بابًـا إلّا لِقـاءَ إغْـلاقِ قِفْـلٍ وإغْـلاقِ أبْـواب».

وإذا كانَ مِـنْ عَواقِـبِ هـذِهِ النَّزْعَـةِ إلـى إهْمـالِ اللّاتينيَّـةِ واليونانيَّـةِ ألّا يَتَجـاوَزَ عَـدَدُ الطُّلّابِ المُسَـجَّلينَ لِتَعَلُّـمِ هاتَيْـنِ اللُّغَتَيْـنِ أصابِـعَ اليَـدِ، فـإنَّ الحَـلَّ المُقْتَـرَحَ لِتَـدارُكِ كُلْفَـةِ تَخْصيصِ أسـاتِذَةٍ لِتَعْليمِهِمـا فـي غايَـةِ البَسـاطَة: إلْغاءُ

هاتَيْـنِ اللُّغَتَيْـنِ وسِـواهُما كالسَّنْسِـكريتيَّةِ مِـنَ المَناهِـج!

بَـلْ إنَّ الأمْـرَ لا يَقِـفُ عِنْـدَ هـذا الحَـدّ. ففـي بَعْـضِ الجامِعـاتِ يَسـودُ توجُّـهٌ إلـى شَـطْبِ فِقْـهِ اللُّغَـةِ، (الفيلولوجيـا)، وعِلْـمِ النُّصـوصِ القَديمَـةِ، (الپاليوغرافيـا)، مِـنَ المَناهِج. وَمُـؤَدّى هذا التَّوَجُّـهِ أنْ يَنْتَهِـيَ الأمْـرُ عِنْـدَ تَقاعُـدِ الجيـلِ الحاضِـرِ مِـنَ الفيلولوجِيِّيـن والپاليوغرافيِّينَ إلـى إقْفالِ عَدَدٍ مِنَ المَكْـتَباتِ ومِنَ المَتاحِفِ، بَـلْ إلى وَقْفِ عَدَدٍ مِنْ بَرامِـجِ التَّنْقيـبِ عَنِ الآثـارِ وَتَحْقيـقِ المَخْطوطاتِ والوَثائِـق. وجاهِـلٌ أو أحْمَـقُ مَـنْ يُطَفِّـفُ مِـنْ عواقِـبِ هـذا التَّوَجُّـهِ ومِـنْ مُتَرَتِّباتِـهِ العَمَليَّةِ على الدّيمقراطيَّـةِ ــ ونَديـنُ لإيـڤ بونفـوا(*) بِشَـرْحٍ وافٍ عَـنْ هـذا الوَجْـهِ مِـنْ وُجـوهِ الخَطَـرِ ــ وعلى الحُرِّيّـاتِ ــ ونَديـنُ لجورجيـو پَسْـكوالي(**) بِبَيانِ هـذا الوَجْـهِ الآخَـرِ مِـنْ وُجوهِ الخَطَـرِ حَيْـثُ يَعْتَبِرُ

(*) إيڤ بونفوا، (١٩٢٣ ـ ٢٠١٦)، شاعرٌ وناقدٌ أدبيٌّ فَرَنْسيّ.

(**) جورجيو پَسْكوالي، (١٨٨٥ ـ ١٩٥٢)، مُحَقِّقٌ إيطالِيٌّ أثْرى عِلْمَ النَّقْدِ النَّصيِّ بإضافاتٍ غَيْرِ مَسْبوقَة.

أنَّ اسْـتِعادَةَ الأصالَـةِ اللُّغَوِيَّـةِ للنُّصـوصِ القَديمَـةِ عَمَـلٌ تَـتَقاطَعُ عِنْـدَهُ الحَقيقَـةُ والحُرِّيَّـة.

إنَّ اسْـتِمْرارَ الأُمـورِ على هذِهِ الوَتيرةِ المُتَسـارِعَةِ يُنْـذِرُ بإمِّحـاءِ ذاكِرَتِنـا، وأخْشـى مـا يَنبغـي عَلَيْنـا أنْ نَخْشـاهُ هـو بُلوغُنـا يَوْمًـا مَرْحَلَـةَ فَقْـدِ هـذِهِ الذّاكِـرَةِ بِالكامِل.

عِنْدَهـا، لا غَـرْوَ أنْ نَرى منيموسـين، إلهَـةَ الفُنونِ والمَعـارِفِ فـي الأسـاطيرِ اليونانيَّةِ/الرّومانيَّـةِ، تُغـادِرُ عالَمَنـا، وأنْ يَنْقَطِـعَ فـي رِكابِ مُغادَرَتِهـا حَيْـلُ البَشَـرِ علـى اسْـتِفْتاءِ الماضـي بُغْيَـةَ فَهْـمِ الحاضِـرِ وتَخْطيطِ المُسْـتَقْبَل. يَوْمَها سَـوْفَ يَصِحُّ القَـوْلُ بـأنَّ البَشَـرِيَّةَ فَقَـدَتْ ذاكِرتَهـا وأضاعَـتْ، فـي جَريـرَةِ ذاكِرَتِها، هُوِيَّتَهـا وتاريخَهـا.

الانْدِثارُ المُبَرْمَجُ للتُّراثِ وآثارِه

فـي هـذا السِّياقِ الـذي نَصِـفُ، يَنْحَسِـرُ مَحَـلُّ التُّراثيّـاتِ فـي المَـدارِسِ والجامِعـات. فالتَلامِـذَةُ

والطُلّاب، في ظِلِّ التَّنْفيرِ المُتَزايِدِ مِنْ كُلِّ ما يُوْهَمونَ بأنَّهُ غَيْرُ ذي جدوى ولا نَفْعٍ يَقْضونَ السَّنَواتِ الطِّوالَ في قاعاتِ الدَّرْسِ دونَ أنْ يُطالِعوا أيًّا مِنَ النُّصوصِ التُّراثِيَّةِ المُؤَسِّسَةِ للثَّقافَةِ الغَرْبِيَّة.

بَلْ تَراهُم، عِوَضَ التَّحَكُّكِ بِهَذِهِ النُّصوصِ مُباشَرَةً يَتَكَفَّفونَ بَكُتُبِ المُنْتَخَباتِ والمَواجِزِ وسِواها مِنْ أدَبِيّات التَّبْسيط.

نَعَمْ، عِوَضَ أنْ يُهابَ بالتَّلاميذِ والطُّلّابِ أنْ يَغوصوا في نُصوصِ أريوستو[*] ورونسار[**] وأفلاطون ودي مونتنيه التي قَدْ تُكَلِّفُهُم مَزيدًا مِنَ الوَقْتِ ومِنَ الجَهْدِ ومِنَ الصَّبْرِ، تَراهُم يُشَجَّعونَ على السَّيْرِ في طُرُق المُنْتَخَباتِ باعْتِبارِها الأخْصَرَ والأقَلَّ مَشَقَّة.

(*) لودوڤيكو أريوستو، (١٤٧٤ ـ ١٥٣٣)، شاعِرٌ إيطاليٌّ مِنَ الطَّبَقَةِ الأوْلى.

(**) پيار دو رونسار، (١٥٢٤ ـ ١٥٨٥)، شاعِرٌ فَرَنْسِيٌّ مِنْ رُوّادِ جَماعَةِ «الپلياد» الشِّعْرِيَّةِ التي سَعَتْ إلى الانْقِلابِ على السّائِدِ أيّامَها مِنْ أعْرافٍ شِعْرِيَّةٍ مُتَوَسِّلَةً في سَبيلِ ذلكَ العَوْدَةَ إلى الأُصولِ ومُحاكاةِ الأدَبِ الكلاسيكيّ.

ولا يُظَنَّنَّ أنَّ مَفاعيلَ هـذِهِ السِّياسَـةِ تَقِـفُ عِنْدَ أبْـوابِ الجامِعـاتِ والمـدارِس. لِلأسَـفِ، لَيْسَـتْ كَذلِـكَ ولَعَـلَّ أوَّلَ المُتَضَرِّريـنَ مِـنْ هـذِهِ السِّياسَـةِ هُـمْ ناشِـرو كُـتُبِ التُّراث.

فـي إيطاليـا لَـمْ يَبْـقَ مِـنْ كُبْرَيـاتِ السَّلاسِـلِ المَوْقوفَـةِ علـى نَشْـرِ التُّراثِيّـاتِ مُخَبِّـر. في فَرَنْسـا تُنافِـحُ إحدى آخِرِ دُورِ النَّشْـرِ العَريقَـةِ المُتَخَصِّصَةِ بالتُّراثِيّـاتِ للبقـاءِ علـى قَيْـدِ الحَيـاة، عِلمًـا أنَّ دارَ النَّشْـرِ هـذِهِ تَلْقـى مَشَـقّاتٍ جَمَّةً فـي العُثورِ على مُحَقِّقيـنَ ومُدَقِّقيـنَ يُمْكِـنُ أنْ تُـوْكَلَ إلَيْهِـم مُهِمَّةُ نَشْـرِ نُصـوصٍ باليونانيَّـة واللّاتينيَّـة. فـي بريطانيـا لَيْسَـتِ الأُمـورُ بأفْضَـلِ حـالٍ، أمّـا فـي ألمانيـا وإسـپانيا فـإنَّ دورَ النَّشْـرِ تَخْتَـزِلُ بَرامِـجَ نَشْـرِ الكُـتُبِ التُّراثِيَّةِ إلى أبْعَدِ الحُدودِ، اللَّهُمَ أنْ تَـتَوَفَّرَ لهـا مِنَحٌ وإعاناتٌ مُجْزِيَـة. هذا، في حيـنِ تَزْدَهِرُ، فـي المُقابِـلِ، سـوقُ المُنْتَخَبـاتِ والمُلَخَّصـات...

وإذْ يَسُرُّ هذا الازْدِهارُ لأدَبِ التَّبْسيطِ المُسْتَثْمرينَ فيـه، فَهُـوَ لا يُفْرِحُ علـى الإطْلاقِ أولَئِـكَ الحَريصينَ

علـى إبْقاءِ جَـذْوَةِ الآدابِ والفُنـونِ التُّراثِيَّةِ مُتَّقِدَة. فالشَّـغَفُ بِالفَلْسَـفَةِ أوْ بالشِّـعْرِ أو بالتَّاريـخِ لا يُمْكِـنُ أنْ يَتَأَتّـى مِنْ مُطالَعَةِ المُوَطِّئـاتِ والمَواجِزِ وغَيْرِهـا مِنَ الكُـتُبِ التَّعْليميَّة.

وَلِكِـنَّ أسْـوأَ ما في الأمْرِ أنَّ مُطالَعَـةَ هَذِهِ الأدَبِيّاتِ الثّانَوِيَّـةِ كَـثيرًا مـا تَـتَحَوَّلُ إلـى عُـذْرٍ يُعْتَـذَرُ بِـهِ للإعْـراضِ عَـنِ النُّصـوصِ الأصْلِيَّة.

الحياةُ على مِحَكِّ التُّراث

لا تَعْليـمَ أهْـلًا لأنْ يُطْلَـقَ عَلَيْهِ هذا الاسْـمُ يُسْـقِطُ مِـنِ اعْتِبـارِهِ كُـتُبَ التُّراث. فإنَّمـا يَلْتَقـي المُعَلِّـمُ والمُتَعَلِّـمُ عِنْـدَ نَـصٍّ وعلـى مُطالَعَـةِ نَـصّ. بِـدونِ هـذا النَّـصِّ، وخـارِجَ الصِّلَـةِ المُباشَـرَةِ بِـهِ، لا أمَـلَ يُرَجّـى بـأنْ يُحِـبَّ التِّلْميـذُ الفَلْسَـفَةَ أوِ الأدَبَ، ولا أمَـلَ يُرْجّـى بـأنْ يُفْلِـحَ المُعَلِّـمُ، مَهْمـا بَـرَعَ، فـي إيقـادِ شُـعْلَةِ الشَّـغَفِ والحَماسَـةِ لـدى تَلاميـذِه.

فـي النِّهايَـةِ، لا مَفَـرَّ أنْ يَنْقَطِـعَ يَوْمًـا مـا الخَيْـطُ

الـذي يَصِـلُ الكَلِمَةَ المَكْـتوبَةَ بالحَيـاةِ، أي بِصَوْتِ المُعَلِّـمِ، ولا مَفَـرَّ أنْ تَنْكَسِـرَ الحَلْقَـةُ التـي تَجْمَـعُ القُـرّاءَ الأغْـرارَ بِمَـنْ سَـبَقوهُم وبِمَـنْ يَتَعَلَّمـونَ القِـراءَةَ علـى أيْديهِـم، وَيَومـذاكَ لَـنْ يَكـونَ بُـدٌّ مِـنْ أنْ يَتَدَبَّـرَ هـذا الجيـلُ مِـنَ القُـرّاءِ المُتَمَرِّنيـنَ الاسْـتِماعَ إلـى صَـوْتِ الحَياةِ مُباشَـرَةً ومِنْ خِلالِ ما تَقولُـهُ تِلْـكَ النُّصوصُ نَفْسُـها لا مِـنْ خِلالِ مـا قالَهُ لَهُـم مُعَلِّموهُـم.

مَهْمـا كانَ، لا يَكْفـي الإلْمامُ بِبَعْضِ المُقْتَطَفاتِ مِنْ هـذا الأثَـرِ أو بِبَعْضِ المُنتَخَباتِ مِنْ ذاك. بِبَسـاطَةٍ: لا مـا يَسُـدُّ مَسَـدَّ قِـراءَةِ هـذِهِ الآثـارِ كامِلَـةً. وفـي سِياقِ هـذِهِ القِـراءَةِ، للمُعَلِّـمِ، بالتَّأكيـدِ، دَوْرٌ فـي غايَـةِ الأهَمِّيَّةِ.

حَسْـبُ الواحِـدِ مِنّا أن يُطالِعَ سـيرَةَ أيٍّ مِنَ العُلَماءِ الكِبـارِ أو تَرْجَمَةَ أيٍّ مِنْهُم لِيَقِفَ، في هذِهِ السِّـيرَةِ أو التَّرْجَمَـةِ علـى ذِكْـرى أُسـتاذٍ أو مُعَلِّـمٍ كانَ لَـهُ الـدَّوْرُ الفَصْـلُ في تَوْجيـهِ التَّطَلُّعِ العِلْمـيِّ لِتِلْميذِهِ صَـوْبَ هذا الاخْتِصـاصِ أوْ ذاكَ. بَلْ حَسْـبُ الواحِدِ

مِنّـا أنْ يُطالِـعَ في سـيرَتِهِ الشَّـخْصِيَّةِ لِيَتَبَيَّنَ ما كانَ لِتَأْثيـرِ فُلانٍ أوْ فُـلانٍ مِـنْ أساتِذَتِهِ مِـنْ دَوْرٍ فـي تَحْديـدِ مُيولِـهِ العِلْمِيَّة.

فَبَيْـنَ المُتَعَلِّـمِ والمُعَلِّـمِ، مِـنْ أوَّلِ العَهْـدِ بالتَّعَلُّـمِ والتَّعْليـمِ شَـيْءٌ مِـنَ الجَـذْبِ والانْجِـذاب. ومِنْ ثَمَّ مـا يَتَعَـذَّرُهُ وَصْـفُ التَّعْليـمِ بالمِهْنَـةِ، ومـا نَذْهَـبُ إليـهِ عِنْـدَ الحَديـثِ عَـنِ التَّعَلُّـمِ بِمَعْنـاهُ الرّاقـي والنَّبيـلِ مِـنْ وَصْفِـهِ بالرِّسـالَةِ. فالمُعَلِّـمُ المُعَلِّـمُ، شَـأْنَ الرّاهِـبِ، يَنْـذُرُ نَفْسَـهُ للتَّعْليـمِ لا أقلَّ مِـنْ ذلِـكَ، وبِهـذا المَعْنـى لا يَنْبَغـي التَّطْفيـفُ علـى الإطْلاقِ مِـنْ ذَلِـكَ التَّحْذيـرِ الـذي حَـذَّرَهُ جـورج شـتاينر يَوْمًـا إذْ قـال:

> «إنَّ دَرْسًـا لا يَسْـتَوْفي شُـروطَ الجَـوْدَةِ جَريمَـةٌ نَكْـراءُ بالمَعْنـى الحَرْفِـيِّ للكَلِمَـة، وخَطيئَـةٌ مُميتَـةٌ بالمَعْنـى المَجـازِيِّ!».

فـلا فَصْـلَ مُمْكِـنًا بَيْـن مـا يَلْتَقيـهِ مُعَلِّـمٌ ومُتَعَلِّـمٌ وبَيْـنَ الشَّـغَفِ إلـى المَعْرِفَـةِ الـذي يَجْمَـعُ بَيْنَهمـا.

يُوْضِحُ ماكس شيلر[*] هـذِهِ الفِكْـرَةَ مُستَشْـهِدًا بغوتـه حَيْـثُ يَنْقُـلُ عَنْـهُ قولَهُ:

«لا نَتَعَلَّـم إلّا ما نَهْوى ونُحِـبّ؛ وبِمقْـدارِ ما يَقْـوى هوانـا وَحُبُّنا تَـكْـتَمِلُ مَعْرِفَتُنا بِمـا نَتعَلَّمُهُ وتَـزْدادُ عُمْقًـا».

وكمـا نَعْرِفُ جَميعًا فإنَّما المَجّانيَّةُ شَـرْطُ الحُبِّ والهـوى. بِهـذا الشَّـرْطِ، بَلـى، يُمْكِـنُ لِمُعَلِّـمٍ يَلْتَقيـهِ مُتَعَلِّـمٌ، أو لِمُؤَلِّـفٍ يُطالِعُـهُ قـارِئٌ، أنْ يُغَيِّـرا مِـنْ حَياةِ هـذا المُتَعَلِّـمِ أو القـارِئ...

المَكْـتَباتُ الجامِعِيَّةُ في خَطَر: فَضيحَةُ مَعْهَد واربورغ

... ومِـنْ ضَحايـا اسْـتِعلاءِ المَنْطِـقِ الاسْـتِثْمارِيِّ التِّجـارِيِّ المَكْـتباتُ ومَعاهِـدُ الأبْحـاث. ومِـنْ أَبْلَـغِ الأمْثِلَـةِ علـى ذَلِكَ مَكْـتَبَةُ مَعْهَـدِ واربورغ اللَّندنـيِّ التـي تُـعَدُّ مِـنْ أكْبَـرِ المَكْـتَباتِ فـي

---

[*] ماكس شيلر، (١٨٧٤ ـ ١٩٢٨)، فَيْلَسوفٌ ألمانـيٌّ مِـنْ أبْـرَزِ مَـنْ تَتَلْمَذَ على يَدَيْـهِ البابا يوحَنّا بولس الثّاني.

العالَـمِ وأهَمِّها مِنْ أكْـبَرِها بِلِحـاظِ مَوْجوداتِها (٣٥٠,٠٠٠ مُجَلَّـد و٤٠٠,٠٠٠ صـورة)، ومِـنْ أهَمِّهـا لِمـا اضْطَلَعَتْ بِـهِ مِنْ أدْوارٍ فـي ازْدِهارِ الثَّقافَـةِ الأوروپِّيَّـةِ وتَضْطَلِـع.

ضِـفْ إلـى هـذا أنَّ تَرْتيـبَ هـذِهِ المَكْتَبَـةِ، أي مَوْضِـعَ كُلِّ كِـتابٍ مِـنَ الكُـتُبِ التي تَحـوي عَلَيْهـا، ومَوْضِـعَ الـرَّفِّ الـذي يُوْجَـدُ عَلَيْـهِ هـذا الكِتـابُ أو ذاكَ، آيَـةٌ بِحَـدِّ ذاتِـهِ، حَيْـثُ إنَّ هذا التَّرْتيـبَ يُعَبِّـرُ عَـنْ رُؤيَـةٍ كُلِّيَّـةٍ للمَعـارِفِ فـي تَواصُلِهـا وتَفاعُلِهـا هـي الرُّؤْيَةُ التـي رَفَعَ لِواءَها آبـي واربـورغ(*) وأولئـكَ الذيـن اهْتَـدَوا بِهَدْيه.

ولا يُظَنَّـنَ أنَّ هـذِهِ الرُّؤْيَـةَ مَحْجوبَـةٌ عَـنْ رُوّادِ المَكْتَبَـةِ: بَـلِ العَكْـسُ هـو الصَّحيـحُ حَيْـثُ إنَّ أيَّمـا زائِـرٍ يُمْكِنُـهُ أنْ يَتَفَقَّـدَ هـذا التَّرْتيـبَ بِنَفْسِـهِ: مـا إنْ يَطْلُـبَ كِتابًـا مـا علـى رَفٍّ مِـنَ الرُّفـوفِ حتّـى يَجِـدَ نَفْسَـهُ بَيْـنَ يَـدَيْ مَجْموعَةٍ

(*) آبي واربورغ، (١٨٦٦ ـ ١٩٢٩)، مُنَظِّرٌ ومُؤَرِّخٌ فَنِّيٌّ ألمانيّ.

مِنَ الكُـتُبِ ذاتِ الصِّلَـةِ بِمَوضـوعِ الكِتـابِ المَطْلـوب.

إنْقـاذًا لِهَـذِهِ المَكْـتَبَةِ مِـنَ الهَمَجِيَّـةِ النّازِيَّـةِ الصّاعِـدَةِ نُقِلَـتْ عامَ ١٩٣٤ مِنْ ألمانيـا إلى لَنْدَن ثُـمَّ أُلْحِقـت بجامِعَـةِ المَدينـةِ فـي سَـنَةِ ١٩٤٤.

خِـلالَ القَـرْنِ العِشْـرينِ توالـى علـى مَعْهَـدِ واربـوغ القائِـمِ فـي مَيْدانِ ووبـرن عَـدَدٌ مـن أعْـلامِ الباحِثيـنَ فـي عَصْـرِ النَّهْضَـةِ الأوروبـيِّ وَمِـنْ مُؤَرِّخيـهِ(*).

مَـعَ ارْتِبـاطِ أسْـماءِ كُلِّ هَـؤلاءِ بِهـذا المَعْهَـدِ، ومَـعَ مـا لَـهُ، مِـنْ مَحَـلٍّ فَـذٍّ فـي مَجـالِ دِراسَـةِ النَّهْضَوِيّـاتِ الأوروپِّيَّـةِ، فـإنَّ مَكْـتَبَتَهُ، مُنْـذُ

(*) مِـنْ هَـؤلاءِ الفَيْلَسـوفُ الألمانـيُّ إرْنسـت كاسيرر، وَمُـؤَرِّخ الفُنـونِ الأمِريكـيُّ الألمانـيُّ الأصْـلِ رودولـف ويتكـوِر، ومُـؤَرِّخُ الفُنـونِ البريطانـيُّ النَّمْسَـوِيُّ الأصْـلِ السِّير إرْنِسْـت غومبريتـش، ومُـؤَرِّخُ الفُنـونِ الألمانـيُّ إروين پانوفسـكي، والمُؤَرِّخَـةُ الإنجليزيَّـةُ فرانسِـس ييتـس، ومُـؤَرِّخُ الفُنـونِ البريطانـيُّ الألمانـيُّ الأصْـلِ إدچار ويند، ومُـؤَرِّخُ الفَلْسَـفَةِ الأمريكـيُّ الألمانـيُّ الأصْـلِ پـول أوسـكار كريسـتِلِر، والنّاقِـدُ الأدَبـيُّ الإيطالـي كارلـو ديونيسـوتي، واللُّغَـويُّ الإيطالـيُّ جيوڤانـي أكّويلكـتشيا، والمُـؤَرِّخُ الأمريكـيُّ المُعاصِـرُ أنتونـي چرافتـون.

سَنَواتٍ، في خَطَر. فَبُغْيَةَ خَفْضِ النَّفَقاتِ، وَضَعَتْ جامِعَةُ لندن مَشْروعًا تُدْمَجُ بِمُوجِبِهِ مَعاهِدُها وهذا المَشْروعُ، بِطَبيعَةِ الحالِ، يُهَدِّدُ اسْتِقْلالَ واربورغ عِلْمًا أنَّ مُؤَسِّسَ المَعْهَدِ كانَ أحْرَصَ ما يَكونُ، مِنْ أوَّلِ الأمْرِ، أي مِنْ يَوْمِ أن أُبْرِمَ اتِّفاقُهُ مَع السُّلُطاتِ الأكاديميَّةِ البريطانِيَّةِ، على ضَمانِ هذا الاسْتِقْلال.

نَعَمْ، مِنْ سُخْرِيَةِ القَدَرِ أنَّ هَذِهِ المَكْتَبَةَ التي أسَّسَها وَريثُ عائِلَةٍ مِنَ المَصْرِفِيِّينَ آثَرَ صُحْبَةَ الكُتُبِ على صُحْبَةِ الأوْراقِ النَّقْدِيَّةِ عُرْضَةٌ للتَّشْويهِ بِفِعْلِ قَراراتٍ يُقَرِّرُها ماليّونَ يَبْنونَ قَراراتِهم هذِهِ على اعْتِباراتٍ اسْتِثْمارِيَّةٍ ضَيِّقَة. في انْتِظارِ أنْ نَرى لِمَنْ ستُكْتَبُ الغَلَبَةُ في نِهايَةِ المَطاف ـ لِلْمَكْتَبَةِ أمْ لِلْمَنْطِقِ الاسْتِثْماري ـ يَبْقى أنَّ الخَطَرَ على المَكْتَباتِ، يَفشو ويَعُمّ.

في آبَ ٢٠١٢ نَقَلَتْ وَسائِلُ الإعْلامِ الإيطالِيَّةُ نَبَأً صادِمًا بِكُلِّ مَعنى الكَلِمَة:

لَقَـد تَقَـرَّرَ إيـداعُ مَكْـتَبَةِ المَعْهَـدِ الإيطالـيِّ للدِّراسـاتِ الفَلْسَـفِيَّةِ (٣٠٠,٠٠٠ مُجَلَّـد) فـي صَناديـقَ وحاوِيـاتٍ وتَخزينُهـا فـي مُسْـتَوْدَعٍ بإحْـدى ضواحـي ناپولـي! لـم يَتَأَخَّـرْ عَميـدُ المَعْهَـدِ، فـي مـا كانَـتِ الشّـاحِناتُ تَنْقُـلُ المَكْـتَبَةَ، مِـنَ التَّنْديـدِ بِالقَـرارِ ولكِـنْ... علـى مَـنْ تَقْـرَأُ مَزاميـرَكَ يـا داوود!

مَكْـتَباتُ بَيْعِ الكُـتُبِ أيْضًا وأيْضًا

وإذْ يُصيـبُ المَكْـتَباتِ الجامعيَّـةَ مـا يُصيبُهـا مِـنْ خَرابٍ فـلا دَهَـشَ أن يَرْتَـدَّ الأمْـرُ نَفْسُـهُ علـى مَكْـتَباتِ بَيْعِ الكُـتُبِ، وأنْ تَـتَحوَّلَ هـذِهِ المَكْـتَباتُ التـي كانَـتْ، فـي مـا مَضـى، مُنْتَديـاتٍ للفِكْـرِ إلـى أسْـواقٍ يُدَلَّـلُ فيهـا علـى الكُـتُبِ كمـا يُدَلَّـلُ على أيَّـةِ سِـلْعَةٍ أُخـرى.

فـي باريـسَ كمـا فـي رومـا، وسِـواهما، المَشْـهَدُ نَفْسُـهُ يَتَكَرَّر: مَكْـتَباتُ بَيْعِ الكُتُبِ العَريقَةُ تَخْتَفي

عَـنْ بِكْـرَةِ أبيهـا أو تُرْغَمُ، طَلَبًـا للنَّجاةِ، والاسْـتِمرارِ، علـى الخُضـوعِ لمَنْطِـقِ السّـوقِ فتَراها تُقَلِّـصُ، إلى أبْعَدِ الحُدودِ، المَساحاتِ المُخَصَّصَةَ لِكُـتُبِ التُّراثِ وسِـواها مِـنْ الآثـارِ التي لا يَرقى الشَّـكُّ إلـى قيمَتِها ومَكانَتِهـا، وتُوَسِّـعُ واجِهاتِها للكُـتُبِ التي تَنْجَحُ في امْتِحـانِ الإعْـلامِ فَتُقَلِّدُ لبَعْضِ الوَقْتِ قِلادَةَ «الأكْـثَرَ مَبيعًـا» إلـى أنْ يُطيـحَ بِها عَنْ عَرْشِـها المَوْهومِ هذا «أكْـثَر مبيعًـا» آخَرُ وهكـذا دوالَيْك!

بالطَّبْـعِ، لا يَخْلـو الأمْـرُ، بَعْـدُ، هُنـا وهُنـاكَ، مِنْ جُيـوبِ مُقاوَمَـةٍ يَجِـدُ فيهـا القـارِئُ ضالَّتَـهُ، غَيْرَ أنَّ هـذِهِ الجُيـوبَ تُعاني الأَمَرَّيْـنِ للصُّمودِ فَضْلًا عَمّـا تُرْغَـمُ عَلَيْـهِ مِنَ النُّـزولِ عِنْدَ إمْلاءاتِ كِبارِ المُوَزِّعيـنَ مُوَزِّعـي «الأكثَرَ مَبيعًـا». وَبِمِقْدارِ ما تَـتَضاءَلُ فُـرَصُ الصُّمـودِ يَزْدادُ مِقْـدارُ التَّنازُلاتِ المَطْلـوبِ تَقْديمُهـا ومِـنْ هـذِهِ التَّنـازُلاتِ مـا نَـراهُ مِـنْ اضْطِـرارٍ إلـى إحْـلالِ باعَـةٍ مَغْموريـنَ يُمْكِـنُ أنْ يُوَظِّفـوا لِبَيْـعِ أيِّ سِـلَعٍ كانَ مَحَـلَّ كُـتُبِيِّين مُحْتَرِفيـنَ علـى دِرايَـةٍ بِمـا يَبيعون.

ما لَزومَ لَهُ ومُفاجآتُهُ السّارّة

... ويا حَبَّذا أن يُفْهَمَ مَديحي للآدابِ وَلِلْفَلْسَفَةِ ولِما يَسْتَجْلِبانِهِ مِنْ مَنافِعَ قَدْ تَبْدو للبَعْضِ غَيْرَ ذاتِ جَدْوى على المَعْنى الذي أقْصِدُ إلَيْه. أقولُ، ولَيْسَ قَوْلي مُجامَلَةً يَطْمَئِنُّ مَعَها زُملائي العِلْمِيِّينَ إلى قَصْدي ـ أقول: لَيْسَ مِنْ غَرَضي أنْ أنْفُخَ الرّوحَ في ذلِكَ السِّجالِ العَقيمِ الذي يَنْتَصِرُ أحَدُ طَرَفَيْهِ للمَعارِفِ الإنْسانِيَّةِ والآخَرُ للمَعارِفِ العِلْمِيَّة.

هيهاتَ أنْ يَكونَ الأمْرُ مِنّي كَذلك. بَلْ أقولُ أكْثَرَ: إنَّ للمَعارِفِ العِلْمِيَّةِ يَدًا لا شَكَّ فيها، ماضِيًا وحاضِرًا، في صَدِّ ما يَسْتَعليه مَنْطِقُ السّوقِ وما يَتَمَدَّدُهُ بَيْنَنا هاجِسُ الرِّبْحِيَّةِ السَّريعَة.

ومِمّا لا يُحْتاجُ إلى التَّذْكيرِ بِهِ أنَّ عَدَدًا مِنَ الجُهودِ العِلْمِيَّةِ التي لَمْ يُوَجِّهْها أصْحابُها إلى مآرِبَ عَمَلِيَّةٍ أَفْضَتْ إلى مُفاجَآتٍ

سـارَّةٍ وأينَعَـتْ ثِمـارًا يَصْعُـبُ علـى الواحِـدِ مِنّا والواحِـدَةِ أنْ يَتَصَـوَّر العالَـمَ خُلْـوًا مِنهـا.

لَقَـدْ كانَ مِـنَ المُسْـتَحيلِ علـى ماركونـي(*) (١٨٧٤ ـ ١٩٧٣) أنْ يَخْتَـرِعَ اخْتِراعاتِـهِ لَـوْلا مـا سَـبَقَهُ إلَيْـهِ جيمـس ماكسـويل(**) وهاينريـش هرتـس(***) مِـنْ أبْحـاثٍ مَدارُهـا علـى التَّرَدُّدِ الكهرومِغْنَطيسِـيِّ وهـي أبْحـاثٌ إنَّمـا قـامَ بِهـا هذا وذاكَ مِـنْ بـابِ الفُضـولِ النَّظَـرِيِّ لَيْـسَ إلّا.

لَـمْ يُرافِـع أحَـدٌ عَنْ هـذِهِ الفِكْرَةِ كما فَعَـلَ أبراهام فلكسـنر الـذي يُشَـرِّفُني أنْ أضُـمَّ نَـصَّ مُرافَعَتِـهِ الباهِـرَةِ إلـى كِتابـي هذا.

(*) غوليلمـو ماركونـي، (١٨٧٤ ـ ١٩٣٧)، عالِـمٌ ومُخْتَـرِعٌ إيطاليٌّ لَهُ إسْـهاماتٌ فـي الكهرومِغْنَطيسـيّاتِ، وإلَيْـهِ يُنْسَـبُ اخْتِـراعُ الرّاديـو وتِقْنِيَـةِ الإبْـراقِ اللّاسِـلْكِيِّ.

(**) جيمس كلارك ماكسـويل، (١٨٣١ ـ ١٨٧٩)، عالِمٌ اسـكوتلنديٌّ لَهُ إسْـهاماتٌ حاسِـمَةٌ فـي عِلْمَيِّ الجاذِبِيَّـةِ والكَهْرَباء.

(***) هاينريـش رودولـف هرتـس، (١٨٥٧ ـ ١٨٩٤)، فيزيائـيٌّ ألمانـيٌّ يَديـنُ لَهُ العِلْـمُ بأنَّـهُ أثْبَـتَ وجـودَ التَّرَدُّداتِ اللّاسِـلْكِيَّة. ومِنْ ثَـمَّ فهو مِنْ آبـاءِ ما تلا مِنِ اخْتِـراعِ التِّلغراف.

يَذْهَبُ فلكسنر في مُرافَعَتِهِ هذِهِ إلى أنَّ الاكْتِشافاتِ الحاسِمَةَ في تاريخِ البَشَرِيَّةِ، والتي غَيَّرَتْ وَجْهَ التّاريخِ، ومَعَهُ وَجْهَ البَشَرِيَّةِ، لَمْ تَتَأَتَّ في سِياقِ اسْتِجْلابِ أيَّةِ مَنْفَعَةٍ عَمَلِيَّةٍ رِبْحِيَّةٍ وإنَّما تأتَّتْ مِمّا أطْلَقَهُ أصْحابُها، في مَنأى مِنْ أيَّةِ غَرَضِيَّةٍ، لفُضولِهِم مِن عِنان. وإذْ يُمَثِّلُ فلكسنر على أمْثالِ هَؤلاءِ المُكْتَشفينَ، فَلَيْسَ بأقَلَّ من هاماتٍ عاليَةٍ كهاماتِ چاليليو(*) ونيوتن(**).

على الرَّغْمِ مِنْ أنَّ الشَّواهِدَ التّاريخيَّةَ تُثْبِتُ بما لا يَقْبَلُ الشَّكَّ فيهِ جَدْوى البَحْثِ المَتْروكِ على

(*) چاليليو چاليلي، (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢)، عالِمٌ فَلَكِيٌّ وفَيْلَسوفٌ وفيزيائيٌّ إيطاليٌّ مِنْ أبْرَزِ المُدافِعينَ عَنْ نَظَرِيَّةِ كوپرنيكوس القائِلَةِ بِمَرْكَزِيَّةِ الشمس. حوكِمَ چاليليو على يَدِ الكَنيسَةِ الكاثوليكيَّةِ بِسَبَبٍ مِنْ دِفاعِهِ عَنْ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ، وأُدينَ، وَضُرِبَ الحَظْرُ على مُؤَلَّفاتِه. لأَعْوامٍ قَليلَةٍ خَلَتْ، تَراجَعَتِ الكَنيسَةُ عَنْ حُكْمِها واعْتَذَرَتْ عَلانِيَةً عمّا ارْتَكَبَتْهُ مِنْ خَطَأٍ بِحَقِّ هذا العالِمِ الفَذّ.

(**) إسحاق نيوتن، (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧)، عالِمٌ إنْجليزيٌّ مِنَ المُبَرِّزينَ في الفيزياءِ والرِّياضيّاتِ يَرْتَبِطُ اسمُهُ بـ «قانونِ الجاذِبِيَّةِ» ولَوْ أنَّ هذا الاكتِشافَ فَتْحٌ مِنْ فُتوحاتِهِ العِلْمِيَّةِ الكَثيرَة.

سَجِيَّتِهِ فإنَّ إعْراضَ الحُكوماتِ إعْراضًا مُطَّرِدًا عَنْ تَمويلِ مِثْلِ هذِهِ الأبْحاثِ يَدْفَعُ بالجامِعاتِ وبِمراكِزِ الأبْحاثِ دَفْعًا إلى اسْتِعْطاءِ المِنَحِ والعَطايا مِنَ القِطاعِ الخاصِّ ومِنْ الشَّرِكاتِ الكُبْرى. وإذْ يكونُ مِنْ هذا القِطاعِ ومِنْ تِلْكَ الشَّرِكاتِ أنْ يُمَوِّلوا مَشاريعَ بَحْثِيَّةً فَبُغْيَةَ التَّوَصُّلِ إلى إنْتاجِ سِلَعٍ آيلَةٍ للتَّسْويقِ أو بُغْيَةَ تَطويرِ وسائِلِ إنْتاجٍ تَسْتَفيدُ مِنها هذِهِ الشَّرِكاتُ نَفْسُها في ازْدِهارِ أعْمالِها.

لَيْسَ لأحَدٍ أن يُنكِرَ يَدَ هذِهِ العَطايا والمِنَحِ في دَفْعِ البَحْثِ العِلْمِيِّ قُدُمًا ولكنْ لا بُدَّ مِنَ الاعْتِرافِ بأنَّ بَوْنًا شاسِعًا يَفصِلُ بَيْنَ جَوِّ البَحْثِ العِلْمِيِّ المَحْكومِ سَلَفًا بهاجِسِ «الجَدْوى» وَبَيْنَ جَوِّ البَحْثِ العِلْمِيِّ في مُؤَسَّسَةٍ كَمِثْلِ تِلكَ التي يُشيرُ إليها فلكسنر، أعني «مَعْهَدَ الدِّراساتِ المُتَقَدِّمَةِ» بپرينستون.

مِنْ ثَمَّ، لَيْسَ مِنْ بابِ الصُّدْفَةِ أنِ ازْدَهَرَ الغِشُّ والاحْتِيالُ خِلالَ العُقودِ الأخيرَةِ في

مَجالِ البَحْثِ العِلْمِيّ. ومِنْ أبـرزِ مَـنْ تَوَقَّـفَ عِنْـدَ هـذِهِ الظّاهِـرَةِ ودَقَّ ناقـوسَ الخَطَـرِ مُحَذِّرًا مِـنْ عَواقِبِهـا، الأسـتاذُ في مَعْهَدِ ألبرت آينشـتاين للعُلـومِ الطِّبِّيَّـةِ فـي نيويـورك أرتورو كاسـادِڤال.

وَيُفَسِّـرُ كاسـادڤال داعِيَتَهُ إلـى التَّوَجُّـسِ العَلَنِيِّ بأنَّ عام ٢٠٠٧ سَـجَّلَ إبْطالَ سِـتَّةٍ وتِسْـعينَ بَحْثًا مـن أصْلِ مليـون. وَيَزيـدُ مِـنْ أسْـبابِ التَّوَجُّـسِ أنَّ أحَـدَ الأسْـبابِ المُحَرِّضَـةِ علـى الغِـشِّ هـي الضَّغـوطُ التـي يَخْضَـعُ لهـا البَحْـثُ العِلْمِـيُّ، لأسْـبابٍ اقْتِصادِيَّـة، في مَجـالِ البيولوجيا الطِّبِّيَّة.

وإنْ تَحْتَـجْ هـذِهِ الظّاهِـرَةُ إلـى مـا يُمَثِّـلُ عَلَيْهـا فَخَيْـرُ مِثـالٍ تِلْـكَ المَقالَـةُ التـي نَشَـرَها أنـدرو ويكفيلـد عـام ١٩٩٨ فـي مَجَلَّـةٍ عِلْمِيَّـةٍ مَرْموقَـةٍ وَشَـكَّكَ فيهـا بِجَـدوى التَّطْعيـمِ ثُـمَ لَـمْ تَلْبَـثِ المَجَلَّـةُ تِلْـكَ أنْ سَـحَبَتْ تأييدَهـا للمَقالَـةِ المَذكـورَةِ ومـا فيهـا بَعْـدَ أن أُديـنَ صاحِبُهـا لِمـا ثَبُـتَ مِـنْ تَـرادِفٍ بَيْـنَ أبْحاثِـهِ العِلْمِيَّـةِ وبَيْـنَ مَصالِحِـهِ الماليَّـة.

فيمَ النَّظَرِيّاتُ الرِّياضيَّة؟

مِنْ أقليدس إلى أرخميدس

بِشَهادَةِ أرِسْطو، وبِشهاداتٍ شَتّى مِنْ تَراجِمِ عُلَماءِ العُصورِ القَديمَةِ وما يَرِدُ فيها مِنْ مَنْقولاتٍ، فإنَّ التَّمْييزَ في تِلْكَ العُصورِ بَيْنَ عِلْمٍ تأمُّلِيٍّ مُنَزَّهٍ عَنِ الأغْراضِ العَمَليَّةِ وبَيْنَ عِلْمٍ ذي أغْراضٍ عَمَلِيَّةٍ تَطْبيقِيَّةٍ كانَ مِنْ بابِ تَحْصيلِ الحاصِل.

حَسْبُنا للوقوفِ على ذلكَ أن نَتَذَكَّرَ ما يَرْويهِ المُحَقِّقُ ستوبيه(*) مِنْ رِوايَةٍ عَنْ إقليدسَ وأحَدِ تَلاميذِهِ. فإذْ أخَذَ التِّلْميذُ عَنْ مُعلِّمِهِ إحْدى نَظَرِيّاتِهِ الرِّياضِيَّةِ بادَرَهُ بالسُّؤالِ: «وبَعْدُ؟ أيُّ نَفْعٍ أنْتَفِعُهُ مِمّا أخَذْتُهُ عَنْك؟» فما كانَ مِنْ إقليدسَ إلّا أنْ أمَرَ أحَدَ عَبيدِهِ بأنْ يَنْقُدَ التِّلْميذَ جائِزَةً «لأنَّهُ، [التِّلْميذُ]، في حاجَةٍ إلى اسْتِنْفاعِ مَنْفَعَةٍ ما مِمّا تَعَلَّمَه».

(*) مِنْ أبْناءِ القَرْنِ الخامِسِ الميلادِيّ.

كذلـكَ، فَلْنَسْـتَأْنِفْ قِـراءَةَ تِلْـكَ الفِقْـرَةِ التـي يُخَصِّصها فلوطارخـس(*) للـكَلامِ علـى مـا كان أرخميـدس يَكُـنُّهُ مِـنِ احْتِقـارٍ للميكانيـكا حـدَّ اعْتِبـارِهِ أنَّـهُ مِـنَ المُعيـبِ بالعالِـمِ أنْ يَكْتُـبَ فـي المَسـائِلِ ذاتِ الصِّلَـةِ بالفُنـونِ الصِّناعِيَّـة:

«لَقَـدْ كانَ مِـنِ اعْتِزازِ أرخميدسَ بِنَفْسِـهِ، وَمِنْ ثاقِبِ نَظَـرِهِ، وَمِـنْ عِلْمِـهِ الغَزيـرِ، أنَّـهُ ضَـرَبَ صَفْحًـا، مِـنْ أنَـفٍ، عَـنْ كِتابَـةِ سَـطْرٍ واحِدٍ فـي الاخْتِراعـاتِ التي اخْتَرَعَهـا والتـي خَلَّـدَتْ ذِكْـرَهُ، وَرَفَعَـتْ ذَكاءَهُ إلـى مَرْتَبَـةٍ لَمْ يَبْلُغْها العالَمون. فالميكانيكا، وَسِـواها مِنَ الأُمـورِ التِّقْنِيَّـةِ ذاتِ الصِّلَـةِ بِحاجـاتِ البَشَـرِ اليَوْمِيَّةِ كانَـتْ مُحْتَقَـرَةً فـي اعْتِبـارِهِ، وكانَ الانْهِمـاكُ بِها مِنْ شَـأْنِ العُمّـالِ أصْحابِ الكَفـاءاتِ اليَدَوِيَّة. لَقَـدْ أفْرَغَ أرخميـدس جَهْدَهُ علـى المَسـائِلِ الشَّـريفَةِ التـي تَزْهـو علـى الضَّروريّاتِ، والتي لا يُقايـسُ أهَمِّيَّتَها إلّا مـا تَسْـتَوْجِبُهُ مِـنْ إعْمـالِ الفِكْـرِ والنَّظَر».

مِـنَ الشَّـطَطِ أنْ نَحْمِـلَ كلامَ فلوطارخـس علـى المَحْمَـلِ الحَرْفِـيِّ شَـأْنَ مـا كانَ مِـنْ بَعْـضِ كِبـارِ المُؤَرِّخيـن. فَعِنايَـةُ أرخميـدس بِمـا كانَ يُطْلَـقُ

(*) فلوطرخس، (حوالى ٤٥ ـ ١٢٥)، فَيْلَسوفٌ وَمُؤَرِّخٌ يُونانِيّ.

عَلَيْـهِ أيّامـذاكَ الميكانيـكا عِنايَةٌ يُسْتَدَلُّ عَلَيْها في العَديـدِ مِنْ مُؤلَّفاتِهِ كما فـي العَديدِ مِنِ اخْتِراعاتِهِ الشَّـهيرَة. مـا يَعْنينـا مِـنْ هـذِهِ الشَّـهادَةِ المُتَأثِّـرَةِ علـى الأرْجَـحِ بِنَزْعَـةِ فلوطارخـس الأفلاطونيَّـةِ هـو مـا تَصِفُـهُ مِـنْ شَـخْصِيَّةِ العالِـمِ وفي هـذا الوَصْفِ بَيـانٌ جَلِـيٌّ علـى مـا يَحْضُـرُهُ التَّمْييـزُ بَيْـنَ العِلْـمِ المُنَـزَّهِ والعِلْـمِ العَمَلِـيِّ لـدى الأقْدَميـن.

في أنَّ العِلْمَ ثَرْوَةٌ لا يُنْقِصُ منها التَّصَدُّقُ بِها [«زكاةُ العِلْمِ نَشْرُه»]

بِنـاءً علـى كُلِّ مـا تَقَـدَّمَ لا مُبالَغَـةَ فـي القَـوْلِ بـأنَّ المَطْلـوبَ مِنّـا خِـلالَ السَّـنَواتِ المُقْبِلَـةِ لَيْـسَ حِمايَـةَ العُلـومِ والمُؤَسَّـساتِ التَّعْليميَّـةِ مِمّـا يُحْـدِقُ بِهـا مِـنْ أخْطارٍ فَحَسْـبُ، بَـلْ حِمايَةُ الثَّقافَـةِ، بَـلْ قُـلْ كُلَّ مـا نُدْرِجُـهُ تَحْـتَ هـذا المَفْهـوم. نَعَـمْ، المَطْلـوبُ مِنّـا هـو أنْ نَتَصَـدّى لِمـا يَتَعـرَّضُ لَـهُ التَّعْليـمُ والبَحْـثُ العِلْمِـيُّ ولِمـا

تَـتَعَرَّضُ لَـهُ التُّراثِيّـاتُ والثَّقافَـةُ مِـنْ مُحـاولاتِ إلْغـاءٍ مُبَرْمَجَـة. ففـي الحَـطِّ مِـنْ شَـأْنِ التَّعْليـمِ والثَّقافَـةِ، وفـي السُّـكوتِ عَـنْ تَقويـضِ أرْكانِهِما، مُحاصَرَةٌ لِمُسْـتَقْبَلِ البَشَـرِيَّةِ لا يُسْتَبْعَدُ أنْ يَنْتَهِيَ بالإجْهـازِ عَلَيْـهِ وعَلَيْها!

لِسَـنواتٍ خَلَـتْ أُتيـح لـي، فـي دارٍ للمَخْطوطاتِ بإحـدى الواحـاتِ، أنْ قَـرَأتُ علـى يافِطَـةٍ تُزَيِّـنُ أحَدَ جُدْرانِ هـذِهِ المَكْـتَبَةِ العِبـارَةَ التّالِيَـةَ: «العِلْـمُ ثَـرْوَةٌ لا يَنْتَقِـصُ مِنْهـا التَّصَـدُّقُ بِهـا».

لا مَزيـدَ علـى ما تَقولُـهُ هـذِهِ العِبـارَةُ الموجَـزَةُ: نَشْـرُ المَعـارِفِ، كُلِّ المَعـارِفِ، هـو السَّـبيلُ الأوَحْـدُ لِمُدافَعَـةِ مَنْطِـقِ الاسْـتِئْثارِ والرِّبْـح: فَهَلْ مِـنْ شَـيْءٍ، سِـوى المَعْرِفَـةِ، يُمْكِـنُ الواحِـدُ مِنّـا والواحِـدَةُ أنْ يَتَنـازَلَ عَنْـهُ بِـدونِ أنْ يَفْتَقِـر؟ بَـلْ هَـلْ مِنْ شَـيء سِـوى المَعْرِفَـةِ يُمْكِنُ الواحِـدُ مِنّا والواحِـدَةُ أنْ يَغْتَنـيَ هـو نَفسُـهُ فـي تَنازُلِـهِ عَنْهُ وأنْ يُغْنـي؟

«إنّما يُدْخِلُ البَهْجَةَ على قَلْبِ الإنْسانِ
أنْ يَتَنعَّمَ بِما يَمْلِكُ لا أنْ يَمْلِكَ ما يَمْلِك».

ميشال دو مونتنيه

III

مِنَ المِلْكِ ما قَتَل: في الكَمالِ الإنْسانيِّ والحُبِّ والحَقيقَة

«صَدى السِّنينِ الحاكي»

علـى خِتـامِ هـذهِ الطّائِفَةِ مِنَ التَّأمُّلاتِ في جَدوى ما لا جَـدْوى مِنْـهُ مِـنَ المَعـارِفِ الإنْسـانيَّة، أوْلـى بِـيَ أنْ أدَعَ المِنْبَـرَ للأُدَبـاءِ والعُلَمـاءِ والفلاسِـفَةِ الذيـن تَأمَّلـوا فـي هذِهِ الجَـدْوى، وأنْ أدْعُـوَ قُرّائي إلـى الاسْـتِماعِ إلَيْهـم لَعَـلَّ هـذا الاتِّصـالَ المُباشَـرَ بَيْنَهُـمْ وَبَيْـنَ كَلِمـاتِ هـؤلاءِ السّـابِقينَ أنْ يَفْعَـلَ فِعْلَـهُ فيهم.

علـى ما تَقَـدَّمَ، يَتَبَـوَّأُ مَفْهـومُ المِلْكِ والحِيـازَةِ، في يَوْمِنـا الحاضِـرِ، مَكانَـةً رَفيعةً في سُـلَّمِ القِيَمِ الذي تَـتَبَنّاه مُجْتَمَعاتُنا.

علـى الرَّغْـمِ مِنْ هـذهِ المَكانَةِ، لَمْ يَفُـتْ عَدَدًا لا يُسْـتَهانُ بِـهِ مِنْ أهْلِ الرَّأْيِ، وَمِـنْ أصْحابِ القَلَمِ،

التَّنْبيـهُ علـى طَبيعَـةِ المِلْـكِ الخُلَّبِيَّـةِ وعلى آثارِ المِلْـكِ المُدَمِّـرَةِ للمَعـارِفِ وللعَلاقاتِ الإنْسـانِيَّةِ سَـواءٌ بِسَـواء؛ وفـي الطَّليعَـةِ مِـنْ هَـؤلاءِ المُحَذِّريـنَ مِـنَ الاغْتِـرارِ بالمِلْـكِ والحِيـازَةِ ميشـال دو مونتينـه الـذي أفْتَتِـحُ هـذا الفَصْـلَ باسْـتِعادَةِ قَوْلَتِـهِ الشَّـهيرَة:

> «إنَّمـا يُدْخِـلُ البَهْجَـةَ على قَلْبِ الإنْسـانِ أنْ يَتَنَعَّمَ بمـا يَمْلِـكُ لا أن يَمْلِكَ مـا يَمْلِك».

مِـنْ مَسائِلَ عِـدَّةٍ يُمْكِـنُ اسْـتِحَضارُها فـي هـذا المَقـامِ أكْـتَفي بِثَلاثٍ لَـمْ تَـزَلْ تُؤَثِّـرُ أيَّمـا تَأْثيرٍ علـى حَيـاةِ البَشَـر. وأمّـا الثَّلاثُ المَسـائِلُ هـذه فهـي مَسْـأَلَةُ الكَمـالِ البَشَـرِيِّ، ومَسْـأَلَةُ الحُـبِّ، وَمَسْـأَلَةُ الحَقيقَـة.

فـي هـذه المَـوارِدِ الثَّلاثَـةِ لا يَسَـعُ شَـهْوَةَ المِلْكِ والأثَـرَةِ إلّا أنْ تَرْتَـدَّ وَبـالًا علـى صاحِبِها في حينِ أنَّهـا المَجْلـى بامْتِيـازٍ لِقِيَـمِ المَجّانِيَّـةِ والبَـذْلِ والتَّرَفُّع.

الكَمالُ البَشَريُّ:
وَهْمُ النِّعْمَةِ وتَعْهيرُ الحِكْمَة

هَلْ يَسْتَقيمُ أنْ يُقاسَ كَمالُ فُلانٍ مِنَ النّاسِ بالثَّرَواتِ التي يَمْلِكُها أمْ أنَّ هذا الكَمالَ لا يُقاسُ إلّا تَبَعًا لِقِيَمٍ لا شَأْنَ للرِّبْحِ وللمَنافِعِ الماديَّةِ بِها؟

أُحِبُّ أنْ أسْتَهِلَّ مُحاوَلَةَ الجَوابِ عَنْ هذا السُّؤالِ بالإحالَةِ إلى مَجْموعَةِ رَسائِلَ مَنْسوبَةٍ إلى أبِقْراط، أبي الطِّبِّ، يَرْوي فيها ما كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ ديمقريطس(*) يَوْمَ أنِ اسْتُدْعِيَ للكَشْفِ على هذا الأخيرِ مِنْ بَعْدِ أنِ اشْتُبِهَ بأنَّ مَسًّا قَدْ مَسَّه .

تَنْبَني السَّرْدِيَّةُ التي تَجْمَعُ جِماعَها هذِهِ الرَّسائِلُ على تَبادُلٍ للشَّخْصيّاتِ وللأدْوارِ بَيْنَ الطَّبيبِ والمَريضِ حَيْثُ يَتَقَمَّصُ المَريضُ، في سِياقِ السَّرْدِيَّةِ، قَميصَ الطَّبيبِ وَيَتَقَمَّصُ

(*) ديمقريطس، (٤٦٠ ق.م. ـ ٣٧٠ ق.م.)، فَيْلَسوفٌ يونانِيٌّ مِنْ أصْحابِ مَذْهَبِ الذَّرَّة.

الطَّبيبُ قَميصَ المَريض. وهكذا يَنقَلِبُ جُنونُ ديمقريطس المَزْعومُ إلى شَيْءٍ أدْنى إلى الحِكْمَةِ، وتَنْقَلِبُ حِكْمَةُ الأبديريِّين، قَوْمِ ديمقريطس، إلى شَيْءٍ أدْنى إلى الجُنون.

تَبْدَأُ السَّرْدِيَّةُ بِمَشْهَدٍ بالِغِ الدَّلالة: مُعْتَكِفًا في دارَتِهِ القائِمَةِ على إحدى الرَّوابي تَسْتَوْلي على الفَيْلَسوفِ نَوْباتٌ مُتواصِلَةٌ مِنَ الضَّحِكِ والقَهْقَهَةِ تَبْلُغُ مَسامِعَ مُواطنيهِ فَيَقْلَقون أشَدَّ القَلَقِ مِمَّا يُصيبهُ وَيَتَوَسَّمونَ بِهِ عِلَّةً ما، ويَقَرُّ رَأْيُهُم على اسْتِدعاء الطَّبيبِ أبقراط.

إبْتداءً، يُصارِحُ أبقراطُ مُحَدِّثيهِ بأنَّهُ لَيْسَ للمالِ أدْنى تأثيرٍ عَلَيْهِ في مُمارَسَتِهِ الطِّبَّ:

«حَذارِ حَذارِ الإساءَةَ إليَّ والظَّنَّ بأنَّني اسْتَجَبْتُ لِنِدائِكُمْ طَمَعًا بِمالٍ أجْنيه. ثَمَّ سَلِّموا مَعي بأنَّ الطِّبَّ مِهْنَةٌ حُرَّةٌ يَتَعاطاها المَرْءُ بِحُرِّيَّة. طُلّابُ المالِ يُسَخِّرونَ العُلومَ لِمآرِبِهِم مُنْكرينَ عَلَيْها حُرِّيَّتَها في التَّعْبيرِ عَنْ نَفْسِها وَمُصَفِّدينَ إيّاها في أغْلالِ العُبوديَّة. بِئْسَ حَياةٍ يَعْصِفُ بِها الجَشَعُ عَصْفَ الرِّيحِ في الشِّتاء.

وحَبَّـذا، بِمَشيئَةِ الآلهـةِ، أنْ تَـتَضافَرَ جُهـودُ النِّطَاسِـينَ وأنْ يَجِدوا دَواءً لهذا الدّاءِ، داءِ الجَشَـعِ، الـذي يَبْـدو لـي أعْضَـلَ بكثيـرٍ مِـنَ الجُنـون».

يَصِـلُ أبِقـراط إلـى دارَةِ ديمقريطـس ويأخُـذُ الرَّجُـلانِ بِتَجاذُبِ أطْـرافِ الحَديـثِ ثُـمَّ يَنْتهـي الأمْـرُ بِهِمـا إلـى ما دعا بـالأوَّلِ إلى زِيـارَةِ الثّاني، وهُنـا يَمضـي ديمقريطـس فـي الإجابَـةِ علـى اسْتِفْسـاراتِ أبِقـراط:

«إنَّمـا أضْحَـكُ لِغَباءِ الغَبِـيِّ مِنْ بَني البَشَـرِ وَعَجْزِهِ عَـنِ الإتْيانِ بأيِّ عَمَـلٍ جَليل.

أضْحَـكُ لانْدِفاعِـهِ بـلا تَـرَوٍّ إلـى أقْصـى أطْـرافِ الأرْضِ، وَلِخَوْضِـهِ فِجاجَها العَميقَـةَ، ولانْهِماكِـهِ بِصَهْـرِ الذَّهَـبِ والفِضَّةِ والاسْـتِزادَةِ مِنْهُما، ولِطَلَبِ غَيْرِهـا مِـنَ الخَيْـراتِ، وكُلُّ ذلكَ بِذَريعَـةِ ألّا يُدْرِكَهُ العَوَزُ.

[ثُـمَّ إنَّ الغَبِـيَّ مِنْ هَؤلاءِ] لا يَشْـعُرُ بـأيِّ نَدَمٍ على الجَهْـرِ بأنَّـهُ سَـعيدٌ لا مُلْتَفِتًا إلى أنَّ صُنّاعَ سَـعادَتِهِ هـذِهِ عَبيـدٌ مَغْلولـونَ بالسَّلاسِـلِ يَحفِـرونَ الأرْضَ، حتّـى أعْمَـقِ أعْماقِها، بأيديهِـم العارِيَـةِ فَيَهْلِـكُ مِنْهُـمُ مَـنْ يَهْلِـكُ تَحْـتَ مـا يكـونُ مِـنِ انْهيـاراتِ التُّرْبَـةِ وانْزِياحاتِهـا ويَحْيـا مِـنْ يَحْيـا فيُواصِـلُ

حياتَـهُ البائِسَـةَ هذهِ كَمُجْـرِمٍ حُكِمَ عَلَيْهِ بالأشْـغالِ الشّاقّة.

[أَضْحَـكُ لهـذا الغَبِـيِّ الذي] يَضْـرِبُ فـي الأَرْضِ طَلَبًا للذَّهَـبِ والفِضَّـةِ فَيَنْكُـتُ فـي النُّفاياتِ هُنـا، ويَنْقُلُ أكْـوامَ الرِّمـالِ مِـنْ هُنـاكَ إلـى هُنـا، وَيَشُـقُّ صَـدْرَ الأرْضِ هُنالِـك ــ يَشُـقُّ صَـدْرَ هـذِهِ الأرْضِ التي هي مِنّـا فـي مَحَـلِّ الأمِّ ويُعامِلُها، لا آبِهًـا بِصَبْرِها، مُعامَلَةَ العَـدُوِّ اللَّدود.

[أَضْحَـكُ لِهـذا الغَبِـيِّ الـذي] يَحْتَفِـلُ بِـهِ النّـاسُ ويُعْلُـونَ مِـنْ قَـدْرِهِ فـي حيـنِ أنَّ أقْدامَهُـم تَـدوسُ الأرْضَ، مَصْـدَرَ ثَرْوَتِـهِ، بالنِعـال».

لا غَـرْوَ أنْ يَقِـفَ أبِقـراط مَدْهوشًـا بَيْـنَ يدي هذهِ التَّأَمُّلاتِ. وحتّـى نَحْـنُ، أبنـاءَ الألفيَّـةِ الثّالِثَـةِ، لا نَمْلِـكُ إلّا الانْبِهـارَ بَيْـنَ يَدَيْهـا!

«أُمُّنـا الأرْضُ التـي يُشَـقُّ صَدْرُهـا طَمَعًا باسْـتِخْراجِ الذَّهَـبِ والفِضَّـة»... «الآدَميّـونَ المُسْـتَعْبَدونَ والمَغْلولـونَ بالأصْفـادِ مِثْـلَ مَحْكوميـنَ بالأشْـغالِ الشّـاقّة»... مَـنْ يَمْلِـكُ أنْ يَقـولَ أكْـثَرَ مِمّـا يَقولُـهُ ديمقريطـس بِعبـاراتٍ أبْلَـغَ مِنْ عِباراتِـهِ لِيَصِـفَ ما

يُـؤَدّي إِلَيْهِ الشَّـبَقُ إِلـى مُراكَمَةِ المَزيدِ مِـنَ الثَّرْوَةِ مِـنْ أَخْطارٍ تُهَدِّدُ مُسْـتَقْبَلَ البَشَـرِيَّةِ؟ فَهذا الشَّـبَقُ لا يَقْـدَحُ فـي الكَمالِ والكَرامَةِ البَشَـرِيَّيْنَ فَحَسْـبُ، بَـل يُزَيِّـنُ السَّـيْرَ فـي طَريـقٍ مَفْضاهُ إِلـى الجُنونِ والانْتِحار.

لِيُبَيِّـنَ الطَّبيعةَ الخادِعَةَ للأَوْهـامِ التي يُزَيِّنُها المالُ والسُّـلْطانُ للبَشَـرِ، يُشَـبِّهُ سِـنِكا(*) فـي رسـائِلِهِ إلى لوكيلـوس العالَـمَ بِخَشَـبَةِ مَسْـرَح: مَثَـلُ السَّـعادَةِ التـي يَشْـعُرُ بِهـا الأَثْريـاءُ مَثَـلُ الشُّـعورِ بالعَظَمَـةِ التـي يَشْـعُرُ بِهـا مُمَثِّـلٌ يُـؤَدّي دَوْرَ المَلِـك. مـا إِنْ تَنْتَهِـي المَسْـرَحِيَّةُ وَيَخْلَـعُ المُمَثِّـلُ ثِيابَ المَلِـكِ يَعـودُ كُلُّ شَـيْءٍ إِلـى حالِـهِ وَيَعـودُ كُلُّ أَحَـدٍ إِلـى مَحَلِّـهِ مِـنَ الإعراب:

> لَيْـسَ مِـنْ كُلِّ هَـؤُلاءِ الذيـن يَتَزَيَّـوْنَ بالإِسْـتَبْرَقِ والأُرْجـوانِ مَـنْ هـوَ سَـعيدٌ حقًّـا. مَثَـلُ الواحِـدِ مِنْهُم مَثَـلُ أميـرٍ على خَشَـبَةِ مَسْـرَحٍ لَيْـسَ الصَّوْلَجـانُ مِنْهُ

(*) سِنِكا، (٤ ق.م. ـ ٦٥ م.)، فَيْلَسوفٌ وَخَطيبٌ وكاتِبٌ مَسْرَحِيٌّ رومانِيّ.

والعَبـاءَةُ إلّا عِـدَّةَ الشُّـغْلِ التـي يَقْتَضيها مِنْـهُ تَمْثيلُ هـذا الـدَّوْر. يَخْتَـالُ الواحِـدُ مِنْهُـم أمـامَ الجُمْهـورِ وَيَتَبَخْتَـرُ وَيَصـولُ وَيَجـولُ وَيَخْبِـطُ الأَرْضَ خَبْطًـا بِمَداسِـهِ ذي الكَعْـبِ العالـي ولكِـنْ مـا إنْ يَنْتَهِـي الـدَّوْرُ المُـوْكَلُ إلَيْـهِ تأدِيَتُـهُ، ويَدْلِـفُ إلـى الكَواليسِ وَيَتَخَفَّـفُ مِـنْ زِيِّـهِ ومِـنْ مَداسِـهِ حتّـى يَعـودَ مَـنْ كانَـهُ قَبْـلَ اعْتِلائِـهِ الخَشَـبَةَ، ويَعـودَ إلَيْـهِ قَـدُّهُ الذي وَهَبَتْـهُ إيّـاهُ الطَّبيعـةُ بـلا زِيـادَةٍ ولا نُقصـان. نَعَـمْ، لَيْـسَ مِـنْ أحَـدٍ مِـنْ كُلِّ هَـؤلاءِ الـذي يُعْلـي المـالُ والجـاهُ مِـنْ شَـأْنِهِم مَـنْ هـو كَبيـرٌ حقًّـا أو عَظيـم».

وعلـى مـا يُتابِعُ سِـنِكا فـإنَّ ما يُطيـشُ سَـهْمَ عِلْمِنا بالنّـاسِ ومَعْرِفَتِنـا بِهِـمْ هـو أنَّنا لا نَرى إلـى الواحِدِ مِنْهُـم علـى حَقيقَتِـهِ بَـلْ نَـرى إلـى مـا عَلَيْـه مِـنْ ثِيـابٍ ومِـنْ حُلِيٍّ:

«أمّـا إنْ رُمْـتَ أنْ تَـتَبَصَّرَ بإنْسـانٍ مـا حَـقَّ التَّبَصُّـرِ، وأنْ تَزينَـهُ حَـقَّ الـوَزْنِ، فانْظُـرْ إلَيْـهِ عارِيًـا. أُدْعُهُ أنْ يَخْلَـعَ عَنْـهُ تَليـدَهُ والطَّريـفَ ومـا أنْعَمَـتْ بِـهِ عَلَيْـهِ المَقاديـرُ بَـلْ جَـرِّدْهُ بِنَظَـرِكَ مِـنْ جِسْـمِهِ وانْظُرْ إلى روحِـهِ وسَـلْ نَفْسَـكَ: هَـلْ يَسْـتَمِدُّ هـذا الإنْسـانُ مـا يَبْـدو عَلَيْـهِ مِـنْ رِفْعَـةٍ مِـنْ ذاتِ نَفْسِـهِ أمْ أنَّ رِفْعَتَهُ رِفْعَـةٌ مُسْـتَعارَة؟

ثُمَّ تَمْضي القُرونُ تِلْوَ القُرونِ ويَضَعُ الفَيْلَسوفُ جيوڤاني پيكو ديلّا ميراندولّا(*) مُؤَلَّفَهُ الشَّهيرَ **رسالَةَ في كمالِ الإنْسانِ وكرامَتِه**، وَيُعَرِّفُنا بأَنَّ حُرِّيَّةَ الإرادَةِ هي سِرُّ هذا الكَمالِ ومُسْتَوْدَعُه.

فإذْ خَلَقَ اللّهُ الإنْسانَ، وإذْ وَزَّعَ الصِّفاتِ والمُحَدِّداتِ على ما خَلَقَهُ مِنْ كائِناتٍ، وإذْ شاءَتْ مَشيئَتُهُ أنْ يَتَمَيَّزَ الإنْسانُ عَنْ هذِهِ الكائِناتِ، لَمْ يَجِدْ مِنْ سَبيلٍ إلى ذلكَ سِوى بأنْ يَرْفَعَ التَّحْديدَ عَنِ الإنْسانِ وبِأنْ يَدَعَ لَهُ أنْ يُقَرِّرَ مَصيرَهُ بِنَفْسِهِ:

«أمّا الكائِناتُ الأُخْرى فَلَقَدْ غَرَزْنا في طَبيعَتِها قَوانينَ تَحْكُم عَلَيْها. أمّا أنْتَ، [أيُّها الإنْسانُ]، فلا ضَوابِطَ تَحْكُمُ عَلَيْك. لَكَ، مُتَوَسِّلًا بِمَلَكَةِ التَّقْديرِ التي وَهَبْناكَ إيّاها، أنْ تُحَدِّدَ طَبيعَتَكَ [...] وإذْ لَمْ نَجْعَلْكَ دُنْيَويًّا ولا سَماوِيًّا، ولا فانيًا ولا مُخَلَّدًا، فلِكَيْ تُشَرَّفَ بأنْ تُقَرِّرَ بِنَفْسِكَ ما تُريدُ أنْ تَكونَهُ وأنْ تَكونَ عَلَيْه».

(*) جيوڤاني پيكو ديلّا ميراندولّا، (١٤٦٣ ـ ١٤٩٤)، فَيْلَسوفٌ ولاهوتِيٌّ إيطالِيٌّ مِنْ وجوهِ عَصْرِ النَّهْضَةِ الأوروبِّيِّ.

بالإحالَـةِ إلـى هـذِهِ الحُرِّيَّـةِ، للإنْسـانِ أنْ يُقَـرِّرَ بِنَفسِـهِ مَحَلَّـهُ مِـنْ هـذا الكَـوْنِ وفيـه؛ لَـهُ أنْ يَخْتـارَ الـذُّرى إلـى جانِـبِ الكائِنـاتِ السّـامِيَةِ أوْ أنْ يَخْتـارَ الحَضائِـضَ إلـى جانِـبِ الوحـوشِ العُجْـم... للإنْسـانِ الأمْـرُ فـي أمْـرِه: مَـنْ تَهْـدِهِ الفَلْسَـفَةُ، مثـلًا، فـي مَناكِـبِ الحَيـاةِ، لَـنْ يَلْبَـثَ أنْ يُـدْرِكَ بـأنَّ كمالَـهُ هـو فـي طَلَـبِ المَعْرِفَةِ لا فـي طَلَـبِ الأرْبـاحِ والغَنائِـم ـــ مَعْرِفَـةِ أسْـبابِ الأشـياء، ومَسـالِكِ الطَّبيعَـةِ، والتَّدابيـرِ الإلهيَّـةِ وغَوامِـضِ الأرْضيـنَ والسَّـماوات.

بالطَّبْـعِ، لِرُؤْيَـةِ ديـلّا ميرانـدولّا الكَوْنِيَّـةِ القائِمَةِ علـى مَرْكَزِيَّـةِ الإنْسـانِ فـي الكَوْنِ حُدودُهـا بَيْدَ أنَّ هـذِهِ الحُـدودَ لا تُقَلِّـلُ في شَـيْءٍ مِـنَ الإكْبارِ الواجِـبِ لَـهُ عَلَيْنـا بِلِحـاظِ الجُهْـدِ النَّظَـرِيِّ الذي بَذَلَـهُ لِتَخْليـصِ الحِكْمَـةِ والكَمـالِ البَشَـرِيِّ مِـن رِبقَـةِ الرِّبْحِيَّـةِ القاتِلَة:

«وَيَزيـدُ الأمْـرَ سُـوءًا أنَّنا بِتْنـا لا نَعُدُّ فـي الحُكَماءِ إلّا مُرْتَزِقَـةَ الحِكْمَة. حتّى العَفيفـةُ بَيْنَ العَفيفاتِ،

بـالاس(*) التـي اختـارَتْ بِنِعْمَـةٍ مِـنَ الآلِهَـةِ أنْ تَسْـتَوْطِنَ بيَـن البَشَـرِ، باتَـتْ بِحُكْـمِ الطَّريـدَةِ والمَرْذولَـة. لا مَـنْ يَبْـذِلُ الحُـبَّ لِبالاس ولا مَـنْ يَلْتَفِـتُ إلَيْهـا ـــ اللَّهُـمَّ أنْ تَبيعَ نَفْسَـها على مَعْنًى مـا، وأن تُعَهِّرَهـا، وأنْ تَشْـتَرِيَ بالثَّمَـنِ البَخْـسِ لِعُذرِيَّتِهـا السَّـليبَةِ رِضـى عَشـيقٍ يَسـومُها المَذَلَّـةَ لقـاءَ عِشْـقِهِ إيّاهـا».

ولأنَّ الأُمـورَ آلَـتْ إلـى مـا يَصِفُ ديـلا ميراندولّا، فـلا غَـرْوَ أنْ نَرى الكاتِبَ المُهَنْدِسَ ليون باتّيسـتا ألبيرتـي(**) يَضَـعُ كِتابًـا بأُمِّهِ وأبيـهِ لِيُثْبِتَ ضَرورَةَ أن يُكَـرِّسَ المَـرْءُ حياتَـهُ أجْمَـعَ، إنْ رامَ الفَضيلَـةَ حقًّـا، لِدِراسَـةِ الآدابِ والتَّبَحُّـرِ فيهـا لا مُلْقِيًـا بالًا إلى داعـي الكَسْـبِ والإثْراء.

فـي الصَّفحـاتِ الأخيـرَةِ مِـنْ كِـتابِهِ هـذا، وهـي صَفَحـاتٌ يُتَرجِـمُ فيهـا ألبيرتـي لِنَفْسِـهِ، يَقُـصُّ علـى قُرّائِـهِ قِصَّـةَ حُبِّـهِ الخالِـصِ للمَعْرِفَـة:

(*) پالاس، إلَهَةٌ إغْريقيَّةٌ تُنْسَبُ، في ما تُنْسَبُ، إلى الحِكْمَة.

(**) ليـون باتِسـتا ألبرتـي، (١٤٠٤ ـ ١٤٧٢)، مِعْمـارٌ وعالِـمُ رِياضيّـاتٍ وشـاعِرٌ إيطالِـيّ.

«لِوَجْـهِ الآدابِ، على ما يَعـرِف بَعْضُ النّاس، ما كانَ مِـنْ صُمـودي بِشـجاعَةٍ وعَزْمٍ لِمـا تَكَبَّدْتُهُ مِـنْ فَقْرٍ ومـا عانَيْتُـهُ مِنْ ظُلْـمٍ وعَداوَة. نَعَمْ، لـم أصْمُدْ لِكُلِّ هـذهِ المِحَنِ والإحَـنِ مِنْ بابِ الاسْـتِمْتاعِ بالتَّحَدّي، ولا فـي سَـبيلِ كَسْـبٍ مـادِيٍّ لِما تَعَـذَّر عَلَـيَّ الفَوْزُ بِـهِ لَـو ارْتَأَيْـتُ أنْ أُقايِضَ التِّجـارَةَ بِصُحْبَةِ الكُـتُب. ألا حَبَّـذا أنْ تَتَّقِـدَ روحُ أَهْلِ الآدابِ بالشَّـوْقِ الدّائِمِ إلـى الحِكْمَةِ لا إلـى المال».

على غـرارِ ألبرتـي، يَذْهَـبُ واضِـعُ رسـالةٍ **في السُّـمُوّ** إلـى أنَّ حُـبَّ الثَّـرْوَةِ داءٌ وبَيـلٌ لا يُفْسِـد النَّفْـسَ الإنْسـانِيَّةَ فَقَـطْ بَلْ يُفْسِـدُ المُجْتَمَعَ أيْضًا والحَيـاةَ المَدَنِيَّـة:

«أجَـلْ، إنَّ الجَشَـعَ إلـى الثَّـرْوَةِ الـذي يَفْتِـكُ بِنـا فَتْـكًا لا نَمْلِـكُ مَعَـه أنْ نُثْنِـيَ أنفُسَـنا عَنْـهُ، وحُـبَّ الشَّـهَواتِ الـذي يَفْتِـكُ بِنـا الفَتْـكَ نَفْسَـهُ، يَحْكُمـانِ عَلَيْنـا بِعُبوديَّـةٍ لا مَفَـرَّ مِنْها. بَلْ قُلْ إنَّ هذا الجَشَـعَ وذَلِـكَ الحُـبَّ لَأشْـبَهُ بِخَرْقَيْـنِ فـي سَـفينَةٍ يَحْكُمانِ عَلَيْهـا بالغَـرَقِ المُحَتَّـم. إنَّ الجَشَـعَ إلى الثَّـرْوَةِ داءٌ مُـذِلٌّ [...] وَمَـعَ إطالَـةِ التَّفْكيرِ في الأمْـرِ فإنَّني، في الحَقيقَـةِ، لا أفْهَـمُ كَـيْفَ أنَّنـا، نَحْـنُ الذيـن نُعْلـي مِـنْ شَـأْنِ الثَّـرْوَةِ، بَـلْ يَصِـلُ بِنـا الأمْـرُ إلـى تَأْليهِها،

ونَعْمـى، في ما هـيَ تَنْمو بَيْنَ أيْدينا وتَـتَراكَم، عَنْ كُلِّ العُيـوبِ والمَضـارِّ التـي تَسْـتَنْبِتُها فـي أنْفُسِـنا».

في أنَّ الحُبَّ على سَبيلِ الحِيازَةِ والامْتِلاكِ يَقْتُلُ الحُبّ!

علـى غِـرارِ مـا إنَّ التَّأَمُّـلَ فـي الكَمـالِ البَشَـريِّ يُفْضـي إلـى تَقْديـمِ المَجّانِيَّـةِ علـى سِـواها مِـنَ القِيَـمِ، كَذَلِـكَ التَّأَمُّـلُ فـي الحُـبّ. فَلُحْمَـةُ الحُـبِّ وسَـداهُ ـــ الحُـبُّ الحُبُّ ـ هو العَطـاءُ الخالِصُ بلا مُقابِـلٍ وبِـلا تَوَقُّـعٍ لأيِّ مُقابِـل. مِـنْ ثَـمَّ فإنَّ أشْـبَهَ مـا يُمْكِـنُ أنْ يُشَـبَّهَ بِهِ الحُـبُّ الحَقيقيُّ هـو اللِّقاءُ بَيْـنَ كائِنَيْـنِ يَسـيرُ كُلُّ واحِـدٍ مِنْهُمـا بِمِـلْءِ حُرِّيَّتِهِ نَحْـوَ الآخَـر. إنَّ ما يَجْمَـعُ بَيْنَ هَذَيْـن الكائِنَيْنِ هو الرَّغْبَـةُ المُتَبادَلَـةُ فـي اللِّقـاءِ بِمَعزِلٍ مِـنْ أيِّ غَرَضٍ شَـخْصِيٍّ أو أنانـيٍّ سِـوى هـذا اللِّقـاءِ نَفْسِـه.

أمّـا متـى مـا اسْـتَعْلَتْ لـدى الواحِـدِ مِـنَ النّـاسِ داعِيَـةُ التَّمَلُّـكِ والحِيـازَةِ، فَيَنْقَلِـبُ الحُـبُّ لَدَيْـهِ إلـى مـا نُسَـمّيهِ الغَيْـرَة. ومِـنْ عَلاماتِ الغَيْـرَةِ أنْ

يَسْتَوْلِيَ على المُحِبِّ الهَوَسُ بأنْ يَتحقَّقَ في كُلِّ حينٍ مِنْ إخْلاصِ مَحْبوبِهِ لَهُ، وأمانَتِه، وصَفاءِ مَشاعِرِه ونَقائِها.

وحَسْبي في هذا المَقامِ أنْ اسْتَشْهِدَ بِشاهِدَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ أثَرَيْنِ أدَبِيَّيْنِ عَظيمَيْنِ خالِدَيْن: أُحْدوثَةِ «رِنو والفارِس ذي الكَأْسِ الذَّهَب» (التي نَدينُ بِها لِقَلَمِ شاعِرِ النَّهْضَةِ الإيطاليِّ لودوڤيكو أريوستو، (١٤٧٤ ـ ١٥٣٣)، والتي تَرِدُ في النَّشيدِ الثّالِثِ والأرْبَعينَ مِنْ **رولان غضوبًا**)، والأُحْدوثَةِ المُعَنْوَنَةِ «في أنَّ الفُضولَ عَيْبٌ فادِحٌ» التي تَرِدُ في القِسَمِ الأوَّلِ مِنْ رائِعَةِ ميغيل دي ثيربانتس، (١٥٤٧ ـ ١٦١٦)، **دون كيخوته**.

أدْرَكَ اللَّيْلُ رِنو، بَطَلَ حِكايات أريوستو، بَيْنَ مانتو وفيراري مِنْ أعْمالِ إيطاليا، فاسْتَقَرى إلى أحَدِ قُصورِ المِنْطَقَةِ التي وَجَدَ نَفْسَهُ فيها. على نِهايَةِ العَشاءِ دعاهُ رَبُّ القَصْرِ إلى امْتِحانِ الكأسِ الذَّهَب. أمّا مُفادُ هذا

الامْتِحانِ فأنْ يَتَجَرَّعَ المُمْتَحَنُ ما في الكَأْسِ تِلْكَ مِنَ الخَمْر: فإنْ تَجَرَّعَ ما فيها ولَمْ يَسِلْ شَيْءٌ مِنْهُ على صَدْرِهِ فَمَعْناهُ أنَّ زَوْجَةَ المُمْتَحَنِ مُخْلِصَةٌ لَه. رَفَعَ رِنو الكَأْسَ بِيَدَيْهِ وَلكنَّهُ، قَبْلَ أنْ يُدْنيها إلى شَفَتَيْهِ، عَدَلَ عَنْ خَوْضِ الامْتِحانِ وأعادَ الكَأْسَ إلى مَحَلِّها مِنَ المائِدَةِ، مُتَحَيِّرًا كُلَّ الحَيْرَةِ بَيْنَ رَغْبَةٍ جامِحَةٍ إلى مَعْرِفَةِ حَقيقَةِ إخْلاصِ زَوْجِهِ لَهُ وبَيْنَ داعِيَةِ الجَهْلِ حيطَةً وحَذَرًا.

يَنْتَهي الأمْرُ بِرِنو إلى العُزوفِ عَنْ وَضْعِ نَفْسِهِ تَحْتَ الامْتِحان: في مَعْرِضِ الحُبِّ، ثَمَنُ الوُقوفِ على الحَقيقَةِ، أو مُحاوَلَةُ الوُقوفِ على الحَقيقَةِ، أن يُخَلِّيَ المَرْءُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ أنْ تَسْتَوْلِيَ عَلَيْها الشُّكوكُ والرِّيَب.

على وَشْكِ الإمْتِحانِ، أدْرَكَ رِنو أنَّهُ لا يَسْعى وَراءَ حقيقَةٍ لا سَبيلَ، أصْلًا، إلَيْها إلّا امْرُؤٌ يَتَلَذَّذُ بالعَذاب. فإنَّما شَرْطُ الحُبِّ المَشْروطُ أنْ يَتَخَلّى المُحِبُّ عَنْ طَلَبِ اليَقين.

لا مَحَلَّ فـي الحُبِّ المُؤَسَّـسِ على الاحْتِـرامِ بَيْنَ الحَبيبَيْـنِ إلّا للثِّقَـةِ والاطْمِئْنـان. يَقولُ رِنو:

«حَسبِيَ ما في نَفْسـي مِنْ ثِقَـةٍ ومِـنِ اطْمِئْنان... لَقَـدْ كَفَيانـي فـي مـا مضـى، ولـي فيهمـا اليَـوْمَ ما أحْتاجُـهُ مِـنْ كِفايَـة.... نافِـلٌ، إذًا، أنْ أضَـعَ نَفْسـي تَحْـتَ الامْتِحان».

عِنْـدَ هـذا الجَـوابِ أجْهَـشَ الفارِسُ، مُضيـفُ رِنو، بالبُـكاءِ واعْتَـرَفَ لَهُ بـأنَّ الغَيْرَةَ هي مـا كانَ وَراءَ مـا بَيْنَـهُ وبَيْـنَ زَوْجِه مِـنْ فِراق.

فَلَقَد كانَ يَوْمًا أنْ تَسَـلَّطَ عَلَيْهِ الشَّـكُّ في خِيانَتِها إيّـاهُ واسْـتَبَدَّ بِـهِ الخَـوْفُ مِـنْ أن يُهْجَـرَ، فَشَـرَعَ يَمْتَحِـنُ إخْلاصَهـا لَـهُ بِكُلِّ أشْـكالِ الامْتِحان.

صَمَـدَ وَفـاءُ الـزَّوْج لِـكُلِّ ما نَصَبَـهُ لهـا زَوْجُها مِنْ أحابيـلَ وشِـراكٍ إلـى أنِ اقْتَـرَحَ عَلَيْـهِ أحَدُهُم أنْ يَدْفَـعَ إلَيها كَلْبًـا لَهُ يَخْـرَأُ ذَهَبًا وجَواهِـرَ لِقاءَ أنْ تَقْضِـيَ لَيْلَةً فـي فِراشِـهِ فَوافَقَت...

لا يَتَمَكَّـثُ أريوسـتو طَويـلًا عِنْـدَ فِكْـرَةِ الإفْسـادِ التـي يَتَسَـبَّبُ بهـا الجَشَـعُ إلـى مُراكَمَـةِ الثَّـرْوَةِ

والمـالِ بِمِقْـدارِ مـا يَتَمَكَّثُ عِنْدَ مَسْـؤوليَّةِ الزَّوْجِ الـذي تَسَـبَّبَ هـو نَفْسُـهُ، باسْـتيلاءِ وَسْـواسِ الخِيانَـةِ عَلَيْـهِ ـــ خِيانَـةِ زَوْجَتِـهِ لـه.

أصْغـى رِنـو إلـى اعْتِرافـاتِ الفـارِسِ ذي الـكأسِ الذَّهَـبِ ثُـمَّ عابَ عَلَيْهِ مـا اعْتَبَرَهُ خِفَّةً في سُـلوكِهِ وحَماقـةً. فالمَسْـؤوليَّةُ عمّـا كانَ مِـنْ أمْـرِ الفـارِسِ وَزَوْجِـهِ لا تُنْسَـبُ إلـى الـزَّوْجِ وإنَّمـا إلـى الفـارِسِ الـذي زَيَّـنَ لـه الكِـبْرُ والتَّجَبُّـرُ أنْ يَمْتَحِـنَ إخْلاصَ زَوْجِـهِ وصُمودَهـا أمـامَ المُغْرِيـات. كانَ الأوْلى بِهِ، بالفـارِسِ، أن يَقْهَـرَ داعِيَـةَ المِلْـكِ والحِيـازَةِ، وأنْ يَرْتَضِـيَ بالسَّـكَنِ إلـى زَوْجِـهِ، علـى بَيِّنَـةٍ مِمّـا قَـدْ يَتَخَلَّـلُ هـذهِ العِشَـرَةَ مِـنْ مُنَغِّصـاتٍ لَيْـسَ أقَلَّهـا فِـراقُ مـا بَيْنَ الزَوْجَيْـن. بِكلامٍ آخَـرَ، كانَ الأوْلى بِهِ أنْ يُسَـلِّمَ بِهشاشَـةِ الحُـبِّ وضَعْفِهِ أمـامَ الحادِثاتِ وأنْ يَدْفَـعَ عَنْـهُ التَّوَهُّـمَ بأنَّ رابِطَ الحُـبِّ لا انْحِلالَ لِوَثاقَتِـهِ وأنْ يُوَطِّـنَ نَفْسَـهُ علـى أنَّ العَلاقـاتِ بَيْـنَ البَشَـرِ لا تَخلـو مِنْ أنْ يَشـوبَها الغُمـوضُ، ولا تَخْلو أنْ تُظَلِّلَهـا أحيانًـا ظِلالٌ مِنَ الشُّـكوكِ ومِنَ الظُّنون.

مِنْ ثَمَّ فَمَنْ يَطْلُبُ في مَقامِ الحُبِّ الشَّفافيَّةَ التَّامَّةَ، والحَقيقَةَ بالمُطْلَقِ، إنَّما يُقَوِّضُ بِيَدَيْهِ أركانَ هذا الحُبِّ ويَخْنُقُ، بِذَريعَةِ المبالَغَةِ في الحَذْبِ، أنفاسَه.

إلى شَيْءٍ شَبيهٍ بِحِكْمَةِ رِنو تَنْتهي أُقْصوصَةُ ثرفانتس «في أنَّ الفُضولَ عَيْبٌ فادِحٌ». تُصَوِّرُ هذِهِ الأُقْصوصَةُ صَديقَيْنِ مُتآخِيَيْنِ هُما لوتير وآنْسِلْم. يَتَزوَّجُ آنْسِلْم الفاتِنَةَ كاميّي، وَرَغْمَ الهَناءَةِ التي تُخَيِّمُ على حياتِهما وعلى حُبِّهما يَتَسَلَّلُ الشَّكُّ إلى صَدْرِهِ ويَبْدَأُ بإيغارِه: هَلْ يَسْتَقيمُ لامْرأةٍ لَمْ يُمْتَحَنْ إخْلاصُها لِزَوْجِها قَطُّ أنْ تُوصَفَ بالمُخْلِصَة؟

«هل يُعْقَلُ أنْ يُحْمَدَ مِن امْرَأَةٍ سُلوكُها مِنْ قَبْلِ أنْ تُسَوِّلَ لَها نَفْسُها الزَّلَلَ فَتَتَأبّى عَنْه؟

هَل يُعْقَلُ أنْ تُمْدَحَ لِتَواضُعِها وَخَفيضِ جَناحِها طالَما أنَّ سانِحَةَ التَفَلُّتِ لَمْ تَسْنَحْ لها بَعْدُ مَعَ عِلْمِها بأنَّ زَوْجَها لَنْ يَتَرَدَّدَ في قَتْلِها جَزاءَ أيِّ فَلْتَةٍ تَفَلَّتُ مِنها؟ إنَّ المَرْأَةَ الفاضِلَةَ عَنْ خَوْفٍ وَرَهْبَةٍ، العَفيفةَ عَياءَ عَشيقٍ تُواعِدُهُ، لَيْسَتْ عِنْدي

فـي شَـيْءٍ بَيْنَ يَـدَيِّ المَـرْأَةِ التي تَصُدُّ بِحَـزْمٍ خُطّابَ الـوُدِّ مَهمـا بَلَغ إلْحاحُ هَـؤلاءِ الخُطّـابِ عَلَيْها وبَلَغَتْ مُناشَـداتُهُم إيّاهـا».

مُسَـلِّمًا أمْـرَهُ لِسُـلْطانِ الغَيْـرَةِ يَطْلُـبُ آنْسِـلْم مِـنْ صَديقِـهِ لوتيـر أنْ يُغَـرِّرَ بكاميّـي، امْتِحانًـا لأمانَتِهـا وإخْلاصِهـا. يُعـارِضُ لوتيـر صديقَـهُ فـي ما يُريـدُهُ عَلَيْـهِ ويَحْشُـدُ لِثَنْيِـهِ عَـنْ مَطْلَبِـهِ حُجَجًـا تُسَـفِّهُ هـذا المَطْلَـبَ كُلَّ التَّسْـفيه: فـإنْ تَمَنَّعَـتِ الـزَّوْجُ المَشْـكوكُ بِهـا وحَفِظَـتْ ذِمَّـةَ زَوْجِها فَلَـنْ يَكونَ مِـنْ شَـأْنِ ذَلِـكَ أنْ يَزيـدَ مِـنْ حُبِّهـا لِزَوْجِهـا، وإنْ لَـمْ تَـتَمَنَّعْ وجـارَتِ المُغَـرِّرَ بِهـا فـي ما يُريـدُ فإنَّ الـزَّوْجَ، بافْتِعالِـهِ التَّغْريـرَ، يكـونُ قَـدِ افْتَـرى علـى نَفْسِـهِ واسْـتَجْلَبَ لَهـا العـار.

ويَزيـدُ لوتيـر علـى حُجَّتَيْـهِ هاتَيْـنِ حُجَّـةً ثالِثَـةً فيَسْتَشْـهِدُ بِمـا كانَ مِـنْ أمْـرِ رِنو وتَقديمِـهِ التَّرَوّي علـى خَـوْضِ امْتِحـانِ الـكأسِ الذَّهَـب:

«لَسَـوْفَ يَدمـى قَلْبُـكَ وَتَـذْرِفُ الدّمـوعَ الحَـرّى إنْ سِـرْتَ علـى خِطَّتِـكَ هـذهِ ويَكـونُ شـأنُكَ شـأنَ ذاكَ الـذي يَـروي لنـا أريوسـتو قِصَّتَـهُ فـي **رولان غضوبًـا**

> عِلْمًا أنَّ رِنو، كما تَعْلَم، رَفَضَ الامْتِحانَ ورَفَضَ أنْ يَتَجَرَّعَ الخَمْرَ الذي في تلكَ الكأسِ المَسْحورَة. لَعَلَّ هذهِ القِصَّةَ مِنْ نَسْجِ الخَيالِ ولكنَّ فيها حِكْمَةً حَقُّها مِنّا التَّأَمُّلُ والاتِّباع».

يَكونُ هذا مِنْ لوتير ولكنَّ حِكْمَتَهُ تُخْفِقُ في أنْ تَكْتُبَ نِهايَةً سَعيدَةً لِقِصَّةِ حُبِّ آنْسِلْم وكامِيي. فما هي حَتّى يَقَعَ لوتير في حُبِّ كامِيي، وتَقَعَ كامِيي في حُبِّ لوتير، فَيَموتُ آنْسِلْم كَمَدًا ولا يَلْبَثُ العاشِقانِ أنْ يَموتا بِدَوْرِهِما.

مُسْتَبِقًا على مَوْتٍ لا مَفَرَّ مِنْهُ، يَكْتُبُ آنسلم على نِيَّةِ زَوْجِهِ كَلِماتٍ، يَعْتَرِفُ لها فيها بأنَّهُ السَّبَبُ في ما جرى:

> «لَقَدْ كَلَّفني حَياتي عَيْبٌ فادِحٌ عُيِبْتُ بِه. إنْ بَلَغَ نَبَأُ مَوْتي كامِيي فَلْتَعْلَم أنَّني صَفَحْتُ عَنْها: لا هي كانَ عَلَيْها أنْ تأتِيَ بالمُعْجِزاتِ ولا كانَ لي، أنا، أنْ أطْلُبَ مِنْها ذلك. وبِما أنَّني اسْتَجْلَبْتُ العارَ على نَفْسي، فَحَقّي أن...».

أقَلُّ ما يُقالُ في هذهِ الأُقْصوصَةِ أنَّها تُثْبِتُ، إنْ كانَ الأمْرُ يَحْتاجُ إلى إثْباتٍ، فِطْنَةَ ثرفانتس

فـي قـراءَة أريوسـتو. علـى أنَّـهُ، وفـي ما يَتَجاوَزُ هذَيْـنِ العَلَمَيْـنِ، أريوسـتو وثرفانتـس، فـإنَّ أهـمَّ مـا فـي القِصَّتَيْـنِ المُسْتَشْـهَدِ بِهِمـا أنَّهُمـا، وإنِ اتَّخَذَتـا العَلاقـاتِ الغَرامِيَّـةَ مَوْضوعًـا، تَذْهَبـانِ في الخُلاصـاتِ التـي يُمْكِـنُ اسْـتِخْلاصُها مِنْهُمـا إلـى أبْعَـدَ مِـنْ هـذا القَبيـلِ مِنَ العَلاقـاتِ حَيْـثُ إنَّهُما، فـي العُمْقِ، تَأَمُّلاتٌ في مَسْـأَلَةٍ أوْسَـعَ هي مَسْـأَلَةُ التَّسـامُح: فلوتيـر، علـى خُطى رِنو وهَدْيـه، يَدْعونا أنْ نُسَـلِّمَ بـأنَّ الهَشاشَـةَ مَكْـتوبَةٌ فـي طَبيعَـةِ كُلِّ مـا نَفْتَحُـهُ مِـنْ فُتـوحٍ وَنَحـوزُهُ مِـنْ حِيـازاتٍ ومِـنْ أمـاراتِ هـذه الهَشاشَـةِ العُمْـرُ القَصيـرُ للبَشَـرِ والأشْـياءِ سـواءٌ بِسَـواء!

ومَهْمـا طَلَبْنـا مِـنْ أمْثِلَةٍ علـى الحُبِّ وَمَآلاتِـهِ ومِنْ عَيِّنـات، فَلَـن نَنْتَهِـيَ إلّا إلـى الخُلاصَـةِ إيّاهـا: لا حُـبَّ على سَـبيلِ التَّمَلُّـكِ والحِيازة. ويُغالِطُ نَفْسَـهُ مَـنْ يَحْسَـبُ أنَّ بِوَسْـعِهِ أنْ يَحْبِـسَ الحُـبَّ فـي دائـرَةٍ مُغْلَقَـةٍ وأنْ يُكْرِهَـهُ علـى قَضاءِ العُمْـرِ فيها: بِبَسـاطَةٍ، لا ما يَحْفَظُ الحُبَّ مِمّا هو مَكْـتوبٌ في

الطَّبيعَـةِ البَشَـرِيَّةِ مِنْ نُزوعٍ إلى التَّحَوَّلِ والتَّناسُـخِ، وهـذا ما يَذْهَبُ إليه الفَيْلَسـوفُ الفَرَنْسِـيُّ ديدرو حَيْـثُ يَأْتـي تَحْـتَ قَلَمِـهِ فـي كِتابِـهِ **حاشِـيَةٌ علـى رِحْلَـةِ بوچانڤيل:**

«وَهَـلْ أَخْـرَقُ مِـنَ التَّعاليـمِ التـي تَـنَفي ما هـو مَكْـتوبٌ في طَبيعَتِنا مِنْ نُزوعٍ إلـى التَّبَدُّلِ والتَّغَيُّر؟ أَوْ هَـل أَخْـرَقُ مِـنْ عَهْـدٍ بـ"الوَفـاءِ المُتَبـادَلِ"، مـدى الدَّهْـرِ، يَقْطَعُـهُ علـى نَفْسَيْهِما كائِنـانِ مِـنْ لَحْـمٍ ودَمٍ تَحْـتَ سَـماءٍ تُمْطِـرُ حينًـا وتَصْحـو حينًـا آخَـرَ، أو يُشْـهِدانِ عَلَيْـهِ صَخْـرَةً مَصيرُها، رَغْـمَ صَلابَتِها، أَنْ تَـتَفَتَّتَ يَوْمًا، أو يُشْـهِدانِ عَلَيْهِ شُـجَيْرَةً لَنْ تَلْبَثَ أَنْ تَسْـمِقَ حتّـى لَتُضـارِعَ الغُيـومَ ارْتِفاعًـا؟».

بَيْـتُ القصيـد: لا سَـبيلَ إلـى حَبْـسِ الحُـبِّ فـي الأَقْفاصِ والزَّنازين، فَشـيمَةُ الحُبِّ التَّرْحالُ والسَّفَر. حَسْـبُنا، رُبَّمـا، لِنُـدْرِكَ المَقْصـودَ بِهـذا الـكَلامِ أَنْ نَسْـتَحْضِرَ الصّـورَةَ الرّائِعَـةَ التـي اسْـتَخْدَمَها ريلكِهِ فـي إحْـدى رَسـائِلِهِ الغراميَّـة:

«مَنْـزِلُ الحُـبِّ، إنْ لَـمْ يَكُـنْ لَـهُ بُـدٌّ مِـنْ مَنْـزِلٍ، راحَةُ كَـفٍّ مَبْسـوطَةٌ لَـهُ أَنْ يَقِفَ عَلَيْهـا أو أن يَطير. أمّا إنِ انْقَبَضَـتْ هـذِهِ الكَفُّ فلا يُدْهِشَـنَّنا أَنْ يموتَ الحُبُّ، وأن تَصيـرَ مِنْـهُ كالتّابوتِ مِـنَ المَيِّت...».

فشَهْوَةُ المِلْكِ والحِيازَةِ تَقْتُل:

«نَظَراتُ المَرْءِ هي سِلاحُهُ الأمْضى [...] وإن كُـتِبَ لأحَـدٍ مـا أنْ يُثْرِيَ فَلَيْسَـتِ الثَّـرْوَةُ ما قَـدْ يَسْـتَقِرُّ بَيْـنَ يَدَيْـهِ لحيـنٍ مِـنَ الزَّمَـنِ ثُـمَّ لا يَلْبَثُ مِـنْ بَعْدِهِ أنْ يَتَبَخَّـرَ، وإنَّمـا الثَّـرْوَةُ كُلُّ مـا يُمْكِـنُ أنْ يَدْخُـلَ فـي مِلْكِـهِ وأنْ يَخْـرُجَ مِنْـهُ مَثَـلَ الدَّخولِ إلـى مَنْزِلٍ مِـنْ بابِـهِ والخُـروجِ مِنْهـا. بِئْسَ أيْدينـا إنْ تَحَوَّلَـتْ إلـى تَوابيـتَ نُسَجِّي فيهـا مـا نَمْلِـك. حَـقُّ أيْدينـا وشَـرَفُها أنْ تَـكونَ أسِرَّةً تَنامُ فيها الأشياءُ نَوْمَ الهَناءِ سـابِحَةً فـي أحْلامِهـا... حَقُّها أنْ تَـكونَ أسِـرَّةً وَثيرةً تُعَبِّـرُ فيهـا الأشْـياءُ خِـلالَ نَومِهـا، وخِـلالَ أحْلامِهـا، عَـنْ حَميمِيّاتِهـا الأعَـزِّ ودُخْلُلِهـا المَحْجـوبِ عَـنِ الأنظـارِ [...] فَقَريـنُ المِلْـكِ والحِيـازَةِ الفَقْـرُ والقَلَقُ أمّـا المِلْـكُ والحيـازَةُ فـي مَعْـزِلٍ مـن الفَقْـرِ والقَلَـقِ فَمَقـامٌ لا يَبْلُـغُ إلَيْـه إلّا مَـنْ مَلَـكَ وحـازَ وأحْسَـنَ التَّخلّـي عَمّـا مَلَكَـهُ وحـازَه».

في أنَّ امْتِلاكَ الحَقيقةِ وحيازَتَها قَتْلٌ للحَقيقَة

بَيْـنَ الحُـبِّ والحَقيقَـةِ مَسـافَةُ خُطْـوَةٍ أو أقـلّ. فَلْنَسْـتَحْضِر أسْـطورَةَ إروس بِروايَـةِ أفلاطـون

وهـي الأُسْـطورَةَ التـي ذاعَ صيتُهـا كُلَّ الذُّيوع لا سِـيَّما فـي عَصْـرِ النَّهْضَـةِ الأُوروبِـيّ.

فـي الحِوارِيَّـةِ المَوْسـومَةِ بـ **المَأدُبـة** يُقـارِن الفَيْلَسـوفُ «الحُـبَّ» بـ«الفَلْسَـفَة». كلاهمـا يَخْضَـعُ لحُكْـمِ الأضْدادِ في الْتِقائِهِمـا وافْتِراقِهِما المُتَّصِلَيْـنَ إلـى ما لا نِهايـة.

تُفَصِّـلُ خُرافَـةُ مَوْلِدِ إروس التـي تَقُصُّها الكاهِنَةُ ديوتـوم وَيَرْويهـا أفلاطـون فـي **المَأدُبـة** بِسَـنَدِ سـقراط ــ تُفَصِّـلُ وَجْـهَ الشَّـبَهِ بَيْـنَ الاثْنَيْـنِ علـى أفْضَـلِ مـا يكـون:

خِـلالِ احْتِفـالٍ بِمَوْلَـدِ أفروديـت، (رَبَّـةِ الحِكْمَةِ عِنْـدَ الإغريـق)، يَقْتَـرِنُ پـوروس، (رَبُّ الثَّـرْوَة)، وقـد أسْـكَرَهُ مـا احْتَسـاهُ مِـنْ رَحيـقٍ پِنْيـا (رَبَّـةِ العَـوَزِ): مِـنْ هـذا الفِـراشِ يُولَـدُ إروس الـذي يَـرِثُ عـن أبَوَيْـهِ طَبيعَتَيْهِمـا المُتعارِضَـةِ، ومِـنْ ثَـمَّ يُقَـدَّرُ لَـهُ أنْ يُعْـوِزَهُ كُلُّ شَـيْءٍ وأنْ يَنْعَـمَ بِـكُلِ شَـيْء. كذلـكَ، ولأنَّ إروس لَيْـسَ بالفانـي

ولا بالمُخَلَّـد، ولأنَّـه لَيْـسَ بالمُعْـوَزِ ولا بالغَنِـيِّ، يَتَرَتَّـبُ عَلَيْـهِ أنْ يَضْطَلِعَ بِـدَوْرِ «الوَسـيطِ»، وبِهـذا المَعْنـى يَنْعَقِـدُ الشَّـبَهُ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ الفَيْلَسـوفِ المُعَلَّـقِ حُكْمًـا، وعلـى الـدَّوامِ، بَيْنَ الحِكْمَـةِ والجهالَـة.

بَـلْ أكْـثَرُ مِـنْ ذلِـكَ: فـي مَحَـلٍّ وَسَـطٍ بَيْـنَ الآلِهَـة الذيـن تُغْنيهـم أُلوهِيَّتُهُـم عَـنْ طَلَـبِ الحِكْمَـةِ ونُشْـدانِها، وبَيْـنَ الجَهَلَـةِ الذيـن يُغْنيهـم تَوَهُّمُهُـم امْتِلاكَ الحِكْمَـةِ عَـنْ طَلَبِهـا ونُشْـدانِها، لا يَجِدُ الفَيْلَسـوفُ المُحِـبُّ للحِكْمَةِ حـقَّ المَحَبَّـةِ لِنَفْسِـهِ مَفَـرًّا مِـنَ السَّـعْي، بـلا كَلالَـةٍ، إلـى مُداناةِ الحِكْمَـةِ والاقْتِرابِ مـا أمْكَـنَ مِنْهـا.

بأُسْـلوبٍ مُبْتَكَـرٍ يَسْـتَعيرُ جيوردانـو برونـو صورةَ الفَيْلَسـوفِ طالِـبِ الحِكْمَـةِ، المُثابِـرِ، خاطِـبِ وُدِّهـا مِـنْ غَيْـرِ بـأْسٍ ولا قُنوطٍ ــ يَسْـتَعيرُ هذهِ الصّـورَةَ ويَجْلوهـا حتّـى آخِـرِ مـا يُمْكِـنُ لِجَلْواها أنْ تُفْضِـيَ إلَيْـهِ مِـنْ نَتائِـج.

يَسْتَوْحي برونو في كِتابِهِ **الغَضْبات البُطوليَّة** أساليبَ الشِّعْرِ الغَزَلِيِّ مُوَظِّفًا إيّاها لِبَيانِ ما يَكْدَحُهُ طالِبُ الحِكْمَةِ مِنْ كَدْح. وبِلِحاظِ أنَّ تَقْبيلَ ثَغْرِ الحَبيبِ المُتَمَنِّعِ هو غايَةُ العاشِقِ الوَلْهان، يُؤَوِّلُ برونو القُبْلَةَ مُؤَوِّلَ الرَّمْزِ مِمّا يَنْشُدُهُ الفَيْلَسوفُ «الغَضِبُ» في سَعْيِهِ البُطوليِّ إلى الحِكْمَة.

مَحْمولًا على مَتْنِ الشَّوْقِ المَحْمومِ الذي يُشَوِّقُ العاشِقَ الوَلِهَ إلى ما يَصْبو إلَيْهِ، يَتَحَوَّلُ طَلَبُ الحِكْمَةِ إلى شَيْءٍ أشْبَهَ بالطِّرادِ الذي تَرْفِدُهُ روحٌ قِتالِيَّةٌ مَشْبوبَة:

> «كُلَّما بدا للمَرْءِ أنَّ في الأُفُقِ حَقيقةً أهْلٌ لأنْ تُعْرَفَ وخَيْرًا أهْلٌ لأنْ يُسْتَجْلَبَ، عادَ عَوْدَهُ واسْتأنَفَ سَعْيَه طَلَبًا لِتِلْكَ الحَقيقَةِ واسْتِجْلابًا لِذَلِكَ الخَيْر. ولا نِهايَةَ لِهذا الطَّلَبِ عِنْدَ حَقيقَةٍ مُحَدَّدَةٍ ولا نِهايَةَ لهذا الاسْتِجلابِ عِنْدَ خَيْرٍ مُعَيَّن».

هكذا، يَنْزِلُ طَلَبُ الحِكْمَةِ عِنْدَ برونو مِنْ عَلْيائِهِ ويَتَحَوَّلُ إلى فِعْلٍ بَشَرِيٍّ عَقْلانِيٍّ لا مَحَلَّ فيهِ للمُعْجِزاتِ أوِ الخَوارِقِ، ولا للسِّحْرِ

أوِ للشَّـطْحِ أوْ مـا شـابَهَ مِـنْ زيجاتٍ إلَهيَّـةٍ أو مِـنْ وعـودٍ بِحَيَـواتٍ أُخْرَوِيَّة: لا مُسَـكِّنَ لِشَـوْقِ المُشْـتاقِ الغَضِـبِ، ولا مُهَـدِّئَ، لِسَـبَبٍ في غايَةِ البَسـاطَة: الكائِـنُ البَشَـرِيُّ مَحْـدودٌ مُتنـاهٍ، أمّـا المَعرِفَـة فَغَيْـرُ مَحْـدودَةٍ ولا مُتناهِيَـة!

علـى أنَّ الأمْـرَ لا يَقِـفُ عِنْـدَ هـذا الحَـدّ. فالمُفارَقَـةُ المُفارَقَـةُ هي أنَّ التَّوَتُّـرَ الحاكِمَ على عَلاقَـةِ الإنْسـانِ المُتناهـي بالمَعْرِفَـةِ اللّامُتناهِيَةِ هـو مـا يُمْكِـنُ أنْ يَرْتَقـيَ بِهـذا الإنْسـانِ نَفْسِـهِ إلـى أعْلـى مَـدارِجِ المَعْرِفَةِ، وأنْ يَغـوصَ بِهِ إلى أَعْمَـقِ أسْـرارِ الطَّبيعَـةِ، وأن يُنْعِمَ عليـهِ بالقُدْرَةِ علـى أنْ يُبْصِـرَ بِعَيْـنِ العَقْـلِ ما يُنَظِّـمُ بَـدَدَ العالَـمِ وتَبَعْثُـرَهِ فـي نِظـامٍ واحِـدٍ تَرْعـاهُ مبادِئُ كُلِيَّة .

ولأنَّ وَعْـيَ الإنْسـانِ وإدْراكَـهِ اسْـتِحالَةَ التَّوَحُّـدِ بالحِكْمَـةِ أو ضَيِّهـا تَحْـتَ جَناحِـهِ هـو مـا يُتَيِّـمُ الفَيْلَسـوفَ ويَبْعَـثُ فيـهِ روحَ الفَتْـحِ والقِتـال، فـإنَّ المُعَـوَّلَ عَلَيْـه لـدى برونـو لَيْـسَ تَحْصيـلَ

تِلْكَ المَعْرِفَةِ والحِكْمَةِ اللّامُتَناهِيَتَيْنِ وإنَّما سُلوكُ السّالِكِ إلَيْهِما وَصِفاتُهِ وخِصالُه.

بِكَلامٍ آخَرَ، الفَلْسَفَةُ لدى برونو هي قُدْرَةُ الفَيْلَسوفِ على البِرِّ بِما تَعْنيهِ حَرْفِيًّا لَفْظَةُ فَلْسَفَة ـ هي قُدْرَتُهُ على حُبِّ الحِكْمَةِ والمُثابَرَةِ على ذلك.

غايَةُ الصَّيْدِ، على ما يَعْرِفُ بالخِبْرَةِ كُلُّ ذي أحَدٍ تعاطى الصَّيْدَ، وعلى ما يُذَكِّرُنا دو مونتنيه في إحْدى أجْمَل صفحاتِ كِتابِهِ **المُحاوَلات** ـ غايَةُ الصَّيْدِ مُلاحَقَةُ الطَّريدَةِ بَل قُلْ طِرادُها:

«الطِّرادُ والصَّيْدُ قِسْمَتُنا ولا عُذْرَ لنا بأنْ نُسيءَ تَدَبُّرَهُما أمّا أنْ يُفْلِحَ الواحِدُ مِنّا في قَنْصِ الطَّريدَةِ أو ألّا يُفْلِحَ فَشَأْنٌ آخَر. لَقَد رُتِّبْنا في هذا العالَمِ لِنَنْشِدَ الحَقيقَةَ؛ أمّا حِيازَتُها فَلِذي سُلْطانٍ واقْتِدارٍ لَيْسا مِنّا في شَيْء [...]. وإنَّما هذا العالَمُ مَدْرَسَةٌ نَتَعَلَّمُ فيها أنْ نَتَحَرّى عَنِ الأشياء، والنّابِغُ في هذه المَدْرَسَةِ لَيْسَ المُتَفَوِّقَ في نَصْبِ الفِخاخِ بَلْ المُتَفَوِّقُ في الطِّراد...».

لِكَـيِ نَفْهَـمَ مُقَدِّمـاتِ برونـو ودو مونتينـه وخُلاصاتِهِمـا عَلَيْنـا أنْ نَتَذَكَّـرَ بأنَّهُما عاشـا الحُروبَ الدّينيَّـةَ التي عَصَفَتْ بأوروبّا وشَـهِدا مآسـيها وَرَأَيا رأيَ العَيْـنِ كَيْـفَ حَـوَّلَ الاقْتِنـاعُ بامْتِلاكِ الحَقيقةِ وحِيازَتِهـا الكنائِـسَ إلى غُرَفِ عَمَلِيّاتٍ تُديرُ أعمال العُنْـفِ والإرْهـاب.

لَقَـد لَمَـسَ الإثْنانِ لَمْـسَ اليَدِ كَـيْفَ أدّى التَّعَصُّبُ إلـى هَـلاكِ الآلافِ مِـنَ الأبْريـاءِ العُـزَّلِ وكَيْفَ أدّى إلـى اسْـتِدْخال المَـوْتِ والخَـرابِ إلـى كُلِّ مَرافِـقِ المُجْتَمَـعِ، بِمـا فيهـا الأُسْـرَةُ الواحِـدَة. كانَ هـذا رَغْـمَ مـا سَـبَقَ لإيراسـموس(*) أنْ بَيَّنَـهُ فـي دِفاعِـهِ المُسْـتَميتِ عَـنِ السَّـلامِ مِـنْ أنَّ التَّوَسُّـلَ بالعُنْـفِ وبالخُشـونَةِ لَيْـسَ مِـنَ الدّيـن فـي شَـيْءٍ بَـلْ هـو علـى النَّقيـضِ مِـنَ الدّيـن وجَوْهَـرِه:

«لَيْـسَ فـي النُّصـوصِ التـي يُؤْمِـنُ بِهـا المَسـيحيّونَ، لَيْـسَ فـي العَهْـدِ القديـم ولا فـي العَهْـدِ الجَديد، إلّا الدَّعْـوَةُ إلـى السَّـلام وإلـى ائْتِلافِ القُلـوب. علـى

(*) ديزيديريـوس إراسـموس، (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦)، عالِمٌ هولَنْـدِيٌّ مِنْ أرْكانِ عَصْرِ النَّهْضَـةِ الأوروبِيّ.

الرَّغْمِ مِنْ ذلك، يَقِفُ بَعْضُ المَسيحيّين حياتَهُم على الحَرْبِ والقِتال».

بِكَلِماتٍ بَسيطَةٍ يَضَعُ إيراسموس يَدَهُ على جُرْحٍ آلَمَ المَسيحيّينَ لِقُرونٍ خَلَتْ غَيْر أنَّهُ ما يَزالُ جُرْحًا فاغِرًا لدى كثيرٍ آخَرين. فالتَّعَصُّبُ جُرثومَةٌ مُلازِمَةٌ للأدْيانِ، كُلِّ الأدْيانِ، ولا يَغُرَّنَنا ما يَكونُ أحْيانًا مِنْ دُخولِ هذهِ الجُرْثومَةِ في النَّوْمِ أوِ الغَيْبوبَة...

فباسْمِ اللَّهِ، سَلَّمَ مَنْ سَلَّمَ وأنْكَرَ مَنْ أنْكَر، باسْمِ اللَّه، على مَرِّ الحِقَبِ، وفي شَتّى البُلْدانِ، ارتُكِبَ ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصى مِنْ جرائِمَ ومِنْ مَجازِرَ ومن إباداتٍ ومن اغْتِيالات، وباسْمِ اللَّهِ أُتْلِفَ ما أُتْلِفَ مِنْ عُيونِ الفَنِّ، وأُحْرِقَ ما أُحْرِقَ مِنَ مَكْتَباتٍ، وأُعْدِمَ مَنْ أُعْدِمَ مِنْ عُلماءَ ومِنْ فَلاسِفَةٍ كانَ لَهُمُ الفَضْلُ الجَزيلُ في تَطويرِ المَعارِفِ والعُلوم.

لِنَتَذَكَّرَ ما كانَ في ١٧ شباط (فبراير) ١٦٠٠

مِـنْ إعْـدامِ جوردانـو برنـو حَرْقًـا فـي سـاحَةٍ عامَّـةٍ مـن سـاحاتِ روما بأمْـرٍ مِـنْ مَحْكَمَـةِ التَّفْتيـشِ، ولنَتَذَكَّـرِ العَذابـاتِ التـي أُنْزِلَـت فـي جنيـف، سَـنَةَ ١٥٥٣، بميغيـل سـيرڤيت(*) بأمْـرٍ مِـنَ المُصْلِـحِ الدّينِـيِّ كالڤـن(**). ولكـنْ فَلْنَتَذَكَّرْ أيْضًـا أنَّ كُلَّ أحْـكامِ الإعْـدامِ التـي يُمْكِـنُ أنْ تَنْطِـقَ بِهـا مَحْكَمَـةُ تَفْتيـشٍ أو يُمْكِـنُ أنْ يَنْطِقَ بِهـا فَقيـهٌ مُتَأَلِّـهٌ لا تَمْحـو كَلِمـاتِ سيباسـتيان كاسـتليون(***) فـي الرِّسـالَة التـي وَضَعَهـا فـي المُخالَفَـةِ علـى كالڤـن:

«مَـنْ يأمُـرْ بإحْـراقِ إنْسـانٍ بِحُجَّـةِ الصُّـدوعِ لأحْـكامِ إيمانِـهِ وعَقيدَتِـه إنَّمـا يُحْـرِقُ نَفْسَـه. ومَـنْ يَقْتُـلْ دِفاعًـا عـن عَقيـدةٍ لا يُدافِـع عَـنْ عَقيـدَةٍ بَـلْ يَقْتُـل.

(*) ميغيـل سـيرڤيت، لاهوتـيٌّ وعالِـمٌ وطَبيـبٌ ومُتَرْجِـمٌ كانَ مَوْلِـدُهُ فـي إسـبانيا فـي ١٥١١، وكانَ إعْدامُـهُ حَرْقًـا بِسَـبَبٍ مِـنْ آرائِـهِ اللّاهوتِيَّـةِ سَـنَةَ ١٥٣٣ فـي جنيـف.

(**) جـان كالڤـن، (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤)، مُصْلِـحٌ دينِـيٌّ ولاهوتِـيٌّ فَرَنْسِـيٌّ اسْـتَوْطَنَ جنيـف سَـنَةَ ١٥٤١ وأجْـرَى فيهـا حُكْمَـهُ تَبَعًـا لآرائِـه.

(***) سيباسـتيان كاسـتليون، لاهوتـيٌّ كانَ مَوْلِـدُهُ بِفَرَنسـا عـام ١٥١٥ وكانَـتْ وفاتُـهُ ببـازل السّويسـرِيَّةِ عـام ١٥٦٣، عُـرِفَ بِمُنافَحَتِـهِ عَـنْ حُرِّيَّـةِ الـرَّأْي وَدَعْوَتِـهِ إلـى التَّسـامُحِ الدّينـيّ.

يَـوْمَ قَتَـلَ أهْلُ جنيفَ ميغيل سـيرفيت، لَـمْ يُدافعوا
عَـنْ عقيـدةٍ بَـلْ قَتَلـوا نَفْسًـا زَكِيَّة».

هـو كذلـكَ رَغْـمَ ما فـي الأمْرِ مـن مُفارَقَةٍ: باسْـمِ
الحَقيقَـةِ المُطْلَقَـةِ تُرْتَكَـبُ أشْـنَعُ الجَرائِـمِ بِحُجَّةِ
أنَّها الشَّـرْطُ المَشْـروطُ لِصَلاحِ البَشَـرِيَّةِ وخَيْرِها!

علـى أنَّـهُ ففـي هـذا المَقـامِ أيْضًـا لا مـا يَتَصَـدّى
للتَّعَصُّـبِ والتَّزَمُّـتِ كَمِثْـلِ الآدابِ التـي تَأْخُـذُ
علـى عاتِقِهـا أنْ تُثْبِـتَ، بالكَلِمَةِ، أنَّ وَهْـمَ امْتِلاكِ
الحَقيقَـةِ المُطْلَقَـةِ وحيازَتِهـا، حتّـى فـي مَجـالِ
الإلهِيّـاتِ مَفْضـاهُ إلـى تَقْويـضِ الدّيـنِ وإلـى
تَهافُـتِ الحَقيقـة؛ ويَذْهَـبُ تَفْكيـري مِـنْ بـابِ
التَّمْثيـلِ علـى مـا تَقَـدَّمَ إلـى كاتِبَيْـنِ عَظيمَيْـنِ
اثْنَيْـن صَـرَّفَ كُلٌّ مِنهُما، على طَريقَتِه وبأُسْـلوبِه،
قِصَّـةً مَعْروفَـةً مِمّـا يُثْبِـتُ أنَّ صَفْحَةً واحِـدَةً مِنْ
أثَـرٍ أدَبِـيٍّ أبْعَـدُ أثَـرًا أحْيانًا مِـنْ مُطالَعَةٍ مُسْـهَبَة.
أمّـا القِصَّةُ التي أعْني فَتِلْـكَ المَعْروفَةُ بـ«الخَواتِمِ
الثَّـلاث» التي ضَمَّنها بوكاتشـو فـي **الدّيكاميرون**،
(الأيّـام العَشْـرَة)، والتـي اسْـتَأْنَفَ كِتابَتَهـا، بَعْـدَ

أرْبَعَمَئَـةِ سَـنَةٍ، الألمانـيُّ لِسِـنْج[*] في مَسْـرَحِيَّته «ناثـان الحكيـم».

فـي الأُقْصوصَـةِ الثّالِثَةِ مِـنْ أقاصيصِ اليَـوْمِ الأوَّلِ مِـنَ **الدّيكاميرون** يَسْـتَدْعي سُـلطانُ مِصْرَ، صلاحُ الديـن، إلى بَلاطِـهِ الثَّـرِيَّ اليَهوديَّ مِلْشيسِـدِتش لِيَسْـتَفْتيهِ أيًّـا مِـنَ الدِّيانـاتِ الثَّلاثِ، (اليَهوديَّـةِ والمَسـيحيَّةِ والإسْـلام)، هـيَ الدّيـنُ الصَّحيح.

يَتَوَجَّـسُ الرَّجُـلُ مِـنْ وَراءِ السُّـؤالِ فَخًّـا مَنْصوبًـا لَـهُ فَيُؤْثِـرُ بِحِكْمَتِـهِ أنْ يَسْـتَعيضَ عَـنِ الجَـوابِ المُباشَـرِ عَـنْ هـذا السُّؤالِ المُشْـكِلِ بحِكايَـة: تَقـولُ الحِكايَـةُ إنَّ أبًـا أوْصـى يَوْمًا، فـي عِدادِ ما أوْصـى بِـهِ لابْنِـهِ الذي اصْطفـاهُ وَريثًا لَـهُ، بِخاتَمٍ مِـنْ ذَهَـب.

مِـنْ إذّاكَ اخْتَلَـفَ علـى وِراثَـةِ هـذا الخاتَـمِ مِنَ الأبْنـاءِ وأبْنـاءِ الأبْنـاءِ وأبْنـاءِ أبْنـاءِ الأبْنـاءِ مَـنِ

---

[*] إفرايـم لِسِـنْج، (١٧٢٩ ـ ١٧٨١)، كاتِـبٌ وفَيْلَسـوفٌ وناقِـدٌ فَنّـيٌّ ألْمانِـيٌّ مِـنْ أرْكانِ عَصْـرِ التَّنْويـرِ الأوروبِيّ.

اعْتُبِـرَ الأوْلـى بالوِراثَـةِ ودَرَجَ الأمْـرُ علـى هـذا النَّحْـوِ أجْيـالًا إلـى أنْ اسْـتُقْبِلَ أحَـدُ الآبـاءِ بِمـا لَيْـسَ فـي الحُسبان. فَلَقَـدْ أنشَـأَ هـذا الأبُ ثلاثَـةَ أبْنـاءٍ صالحيـنَ مُطيعيـنَ أحَبَّهُـم بالقَـدْرِ نَفْسِـه... فَكَيْـفَ لَـهُ، وهـو كذلـك، وَهُـمْ كذلكَ، أنْ يُكافِئَهُـم والخَاتَـمُ لا ثاني لَـهُ ولا ثالث؟ على سَـبيلِ حُسْـنِ التَّخَلُّـص طَلَـبَ الأبُ مِـنْ صائِـغٍ صَنـاعٍ أنْ يَعْمَـلَ لَـهُ نَسْـخَتَيْنِ طِبْـقَ الأصْـلِ مِـنَ الخَاتِـمَ المَـوْروث. وإذْ شَـعَرَ الأبُ بِدُنُـوِّ أجَلِـهِ اسْـتَدْعى أبنـاءَهُ واحِدًا واحِدًا وائْتَمَـنَ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُـم علـى خَاتَـمٍ بِوَصْفِـهِ الـ «خاتَـم».

ثُـمَّ مـا هِـيَ، مِـنْ بَعْـدِ أنْ مـاتَ الأبُ، وأنِ ادَّعى كُلٌّ مِنْهُـم أنَّـهُ الوَريثُ المُسَـمّى، أنْ تَبَيَّنَ للأبْناءِ مـا احْتالَـهُ أبوهُم مِـنْ حيلَةٍ:

«أمّـا وأنَّ الخَواتِـمَ الثَّلاثَـةَ تَشـابَهَتْ حَـدَّ اسْـتِحالَةِ التَّمْييـزِ بَيْنَهـا ومَعْرِفَـةِ أيَّهـا هـو الأصْلِـيُّ، فَلَقَـدْ تَعَـذَّرَ تَعْييـنُ الوَريـثِ الوَريـثِ، فَعُلِّـقَ الأمْـرُ ومـا يَـزالُ إلـى يَومِنا هـذا مُعَلَّقًـا. مَثَـلُ هَـؤلاءِ الأبْناءِ، يـا مـولايَ، مَثَـلُ الشَّـرائِعِ الثَّـلاثِ التي أنْزَلَهـا الرَّبُّ

علـى الأُمَـمِ الثَّلاث [...] كُلُّ أُمَّـةٍ مِنْها تَحْسُـبُ نَفْسَـها الوَريـثَ المُسَـمّى، الحافِظَـةَ للشَّـريعَةِ، الآمِـرَةَ بِمَعْروفِها، النّاهِيَـةَ عَنْ مُنكَرِها. ولكِنْ، أيٌّ مِنْها هـيَ الوَريثُ الوَريث؟ شَأْنُ الخواتِـمِ الثَّلاثَةَ، لا سَـبيلَ إلـى الجَـزْمِ أيُّ واحِـدٍ مِنْها هـو الخَاتَـمُ الأصْلِـيّ».

أفْلَحَـتْ حِنْكَـةُ مِلْشيسِـدِتش فـي إرْضـاءِ السُّـلْطانِ وبِوُسْـعِها أيْضًـا أنْ تُسَـكِّنَ مِـنْ قَلَقِنـا ومِـنْ هَـواجِسِـنا: لَيْـسَ لِبَنـي البَشَـرِ أنْ يَفُكّـوا، بِمـا تَحْـتَ يَدِهِـم مِـنْ وَسـائِلَ بَشَـرِيَّةٍ، ألْغَازًا لا يَمْلِـكُ حَلَّهـا إلّا اللَّـه وَحْـدَه. لَمْ تَـكُنِ المَسْـأَلَةُ التـي يَتَصـدّى لَهـا بوكاتشـو بِغَريبَـةٍ عَـنْ عَصْـرِه وَلَـكِنَّ فَضْلَـهُ فـي ما يَقْتَرِحُـه مِـنْ مُعالَجَـةٍ تَنْتَهـي بأيْسَـرِ مَنْطِـقٍ إلـى الدَّعْوَةِ إلـى الاحْتِرامِ المُتَبـادَلِ بَيْـنَ البَشَـرِ والتَّسـامُحِ والتَّعايُـشِ ومـا إلـى ذلـكَ مِـنْ قِيَـم.

علـى خُطـى بوكاتشـو، وبَعْـدَ قُـرونٍ عَلَيْـهِ، يَمضـي لِسِـنْچ، فـي رائِعَتِـه **ناثـان الحكيـم**، في رِحْلَـةِ البَحْـثِ عَـنِ التَّـوازُنِ بَيْـنَ بَنـي البَشَـر.

رِوايَـةُ لِسِـنْج، فـي **ناثـان الحكيـم**، كَرِوايَـةِ بوكاتشـو: يَهـوديٌّ أيْضًـا ولكـنْ يَهـودِيٌّ مَوْسـومٌ بسِـماتِ عَصْـرِهِ حَيْـثُ إنَّـهُ يُوَجِّـهُ الأبْنـاءَ الثَلاثَةَ المُخْتَلِفيـنَ علـى إرْثِ أبيهِـم إلـى قـاضٍ ليَحْكُـمَ بَيْنَهُـم فَيَرْتـأي القاضي مِنْ بَعْدِ أنْ سَـمِعَ القَضِيَّةَ أن يَنْصَـحَ للأبْناءِ الثَّلاثَـةِ أنْ يَدَعَ كلٌّ مِنْهُم الأمورَ تَجْـري علـى سَجِيَّتِها وأنْ يَعْتَبِـرَ أنَّ الخاتَمَ الذي آلَ إلَيْـهِ مِـنْ أبيـهِ هـو الخاتـمُ الأصْلِـي:

> «لَعَـلَّ القَصْدَ الـذي قَصَـدَ إلَيْـهِ أبوكـم ألّا يَطْغـى علـى الميـراثِ مِـنْ بَعْدِهِ صاحِـبُ الخَاتَـمِ الوحيد. لا رَيْـبَ أنَّـهُ أحَبَّكُـم بالسَّـوِيَّةِ [...] مِنْ ثَـمَّ فَلْيَجْهَدْ كُلُّ واحِـدٍ مِنْكُـم بـأنْ يَكونَ على قَـدْرِ الفُصِّ الـذي يُزَيِّنُ خاتَمَـهُ فَيَعُـمُّ الخَيْـرُ الجَميع».

مَقولُـهُ: طالَمـا أنَّهُ مِنَ المُتَعَذِّرِ إثْبـاتُ الدِّينِ الحَقِّ فَلْيُحـاوِلْ كُلُّ صاحِـبِ ديـنٍ أنْ يَتَوَسَّـلَ بِمَلَـكاتِ دينِـهِ لِيُبَشِّـرَ بِـهِ، وليَمْتَحِـنَ طاقَتَـهُ علـى نَشْـرِ المَحَبَّـةِ والتَّضامُـنِ والسَّـلام. شـأنَ الفَلْسَـفَةِ، علـى كُلِّ ديـنٍ مِـنَ الأديـانِ أنْ يَرتضـيَ أنْ يكـونَ نَمَـطَ عَيْـشٍ وأُسـلوبَ حياة. بذلِـكَ لا تَطْغى أيُّ فَلْسَـفَةٍ

مِـنَ الفَلْسَـفاتِ، ولا يَطْغـى أيُّ ديـنٍ مِـنَ الأدْيـانِ، بذريعَـةِ امْتلاكِ الحَقيقَـةِ المُطْلَقَةِ الصّالِحَةِ للبَشَـرِ كافَّـة. فأيُّمـا أحَـدٍ، مِنْ فَـرْدٍ أو مِـنْ جَماعَـةٍ، يَأْنَسُ مِـنْ نَفْسِـهِ امْتِـلاكَ الحَقيقَـةِ دونَ سـواه، لا يَتَأَخَّـرُ عَـنْ تأويـلِ مِلْكِـهِ هَـذا مُؤَوِّلَ الواجِـبِ المَوْجوبِ عَلَيْـهِ بـأنْ يُعَمِّـمَ هـذه الحَقيقَـةَ علـى الآخَريـنَ بِزَعْـمِ هِدايَتِهِـم إلـى الصِّراطِ المُسْـتَقيمِ وَلَـوِ اقْتَضـاهُ تَعْميمُهـا علـى هَـؤلاءِ الآخريـنَ التَّوَسُّـلَ بالقُـوَّةِ والشِّـدَّة. فـلا اسْتِمسـاكَ بِعَقيدَةٍ مَـعَ الظَّنِّ بأنَّهـا الأصْـدَقُ لا يَنْتَهـي إلـى شَـيْءٍ مِـنَ التَّعَصُّب: مِـنَ التَّعَصُّـبِ الأخْلاقِـيِّ أو الدّينيِّ أو السِّياسِـيِّ أوِ الفَلْسَـفِيِّ أو العِلْمِـيِّ. مِـنْ ثَـمَّ لا مُبالَغَـةَ قَـطُّ فـي اسْـتِخلاصِ الخُلاصَـةِ التّالِيَة: كُلُّ ذي أحَـدٍ يَحْمِلُ ما يَحْسُـبُهُ حَقيقَـةً على مَحْمَـلِ الحَقيقَةِ الفَـرْدِ، قامِعٌ للبَحْـثِ عَـنِ الحَقيقَـةِ قاتِـلٌ لها.

فَمَـنْ يَسـتَكينُ إلى وَهْمِ امْتِـلاكِ الحَقيقَةِ وَحِيازَتِها يَسْـتَغْني حُكمًـا عَنْ طَلَبِها وَيَسْـتَغْني عَـنْ مُحاوَرَةِ الآخَريـن وعَـنِ الإصْغـاءِ إلـى مـا لَدَيْهِـم مِـنْ أفْكارٍ

وعَـنْ وَضْعِ نَفْسِـهِ تَحْتَ امْتِحـانِ التَّنَـوُّعِ وَمُجَرَّبِه. وَحْدَهُ مَـنْ يُحِـبُّ الحَقيقةَ يَسْـعى إلَيْها بِـلا كَلالَة. ولأنَّـهُ كذلـكَ فالشَّـكُّ لَيْـسَ عَـدُوَّ الحَقيقَـةِ بَـل الدّاعِيَـةُ إلى الاسْـتمرارِ فـي طَلَبِها ونُشْـدانِها. ومِنْ هُنـا فـإنَّ مَـنْ يُؤْمِـنَ حَـقَّ الإيمـانِ بـأنَّ الحَقيقـةَ قيمَـةٌ عُلْيـا لا يَتَـرَدَّدُ عَـنِ المُثابَـرَةِ علـى وَضْـعِ مـا يَتَحَصَّـلُ لَدَيْـهِ مِـنْ حقائِـقَ علـى مِحَـكِّ الشَّـكِّ ولا يَتَأَخَّـر. وَعَلَيْـهِ أيْضًـا وأيْضًـا فـإنَّ شَـرْطَ التَّسـامُحِ المَشْـروطَ هـو أنْ يُنْكِرَ المَرْءُ ابْتِـداءً وجودَ حَقيقةٍ مُطْلَقَـةٍ لا تَـؤولُ ولا تَحـولُ ولا تَـتَبَدَّل.

نَعَـم، لا بُـدَّ للمَرْءِ مِنْ كَـثيرٍ مِـنَ الحَيْـرَةِ ولا بُدَّ لَهُ مِـنْ كَثيـرٍ مِـنَ التَّواضُعِ في تَقْديـرِ قُدْرَتِـهِ لِيُتاحَ لَهُ أنْ يَلْتقـي بآخَـرَ وآخَرينَ لا يَرى أو يَرَوْنَ إلى الأمورِ بالعَيْـنِ التـي يَراهـا هـو بِهـا ومِـنْ خِلالهـا. وهـذا هـو السَّـبيلُ الـذي يُفْضي بِنا إلـى أنْ نَحْمِـلَ تَعَدُّدَ الآراءِ واللُّغـاتِ والأديانِ والثَّقافاتِ والشُّـعوبِ على مَحْمَـلِ الثَّرْوَةِ مِنَ البَشَـرِيَّةِ لا على مَحْمَـلِ العَقَبَةِ المانِعَـةِ لِتَقَدُّمِ البَشَـرِيَّةِ وَتَطَوُّرِها.

تَحْـتَ هـذا العُنـوانِ أيْضًا فإنَّ الإنْـكارَ على وُجودِ حَقيقَـةٍ مُطلقَـةٍ لَيْـسَ بابًـا مِـنْ أبْـوابِ العَدَمِيَّـةِ. فَوَسَـطِيَّةُ الآخِذيـنَ بأنَّـهُ لا حَقيقـةَ مُطْلَقَـةٌ بَيْـنَ العقائِدِيِّيـنَ (الزّاعِميـنَ كلٌّ علـى طريقَتِـهِ امْتِلاكَ حَقيقـةٍ مُطْلَقَـةٍ مِـنَ الحَقائِـقِ)، والعَدَمِيِّيـنَ (المُنْكِريـنَ ابْتَـداءً وجـودَ الحَقيقـة)، ـــ وَسَـطِيَّةُ الآخِذيـنَ بِهـذا المَذْهَـبِ تَرْفَعُهُـم إلـى مَرْتَبَـةِ المُحِبّيـنَ حَـقَّ المَحَبَّـةِ للحَقيقَـةِ واسْـتِطرادًا إلى مَرْتَبَـةِ طُلّابِهـا المُثابريـنَ بِلا قُنوطٍ ولا كَلالَـة.

كَلّا، لَيْـسَ انْحيـازًا إلـى حِـزْبِ اللّاعَقْلانِيَّـةِ والعَشْـوائِيَّةِ أنْ يَتَقَبَّـلَ المَـرْءُ احْتِمـالَ دُخـولِ الخَطَـأِ علـى رأيِـهِ، وَأنْ يَضَـعَ نَفْسَـهُ ومعارِفَـهُ تَحْـتَ غِرْبـالِ التَّصْحيـحِ والتَّصويـبِ، بَـلْ هـو تَأْكيـدٌ علـى أوَّلِيَّـةِ النَّقْـدِ، وعلـى أوَّلِيَّةِ مُمارَسَتِهِ، وتَأْكيـدٌ علـى الحاجَـةِ المُسْـتَمِرَّةِ إلـى التَّفاوُضِ حِـوارًا مَـعَ الآخريـنَ بِمَـنْ فيهـم أولَئِـكَ الذيـن يُنافِحـونَ عَـنْ قِيَـمٍ مُخالِفَـةٍ للقِيَـمِ التـي يأخُـذُ بهـا الواحِـدُ مِنّـا.

كانَ جـون ميلتـون(*) مِـنْ أبْـرَزِ المُدافعيـنَ عَـنْ حُرِّيَّـةِ الصَّحافَـةِ بِوَجْـهِ الرِّقابَـةِ بَشَـتّى أشْـكالِها وصُوَرِهـا، ومِـنْ ثَمَّ فلا غَـرْوَ أنْ رَأى، وهو الضَّريرُ، إلـى الحَقيقَـةِ بِوَصْفِهـا نَبْـعَ مـاءٍ جارٍ:

«لَيْسَ مِمّـا يَغيـبُ عَـنْ كُلِّ ذي أحَـدٍ اعْتـادَ التَّبَصُّرَ بالأُمـورِ، والتَّمَعُّـنَ فيهـا، مـا للمُثابَرَةِ مِـنْ فَضْلٍ في تَفَتُّحِ معارِفِنا شـأنَ مـا لها مِنْ فَضْلٍ فـي الرِّياضاتِ الجَسَدِيَّة.
تُشَبَّهُ الحَقيقَـةُ، فـي الكِتـابِ المُقَـدَّسِ، بِمـاءٍ جـارٍ لأنَّ المـاءَ متـى ما انْقَطَعَ عَـنِ الجَرَيانِ أسِـنَ وخَمَّ.
كذلـك قُـلْ عَـنِ الحَقيقَة».

ومِمّـا يَذْهَـب إلَيْـهِ ميلتـون فـي مـا يَذْهَـبُ أنَّ أولَئِـكَ الذيـن يَتَوَسَّـلونَ بـ«العَدالَـةِ المُسَـلَّحَةِ» بِحُجَّـةِ إحْقـاقِ الحَقيقـةِ لا يأتـونَ مِنْ شَـيْءٍ، في واقِـعِ الأمْـر، سـوى قَتْـلِ الحَقيقَـةِ قَتْـلًا لا مَبْعَـثَ لَهـا مِنْـه؛ وَبِقَتْلِهِـمِ الحَقيقـةَ، يَقْتُلـونَ، علـى بَيِّنَةٍ مِـنْ أمْرِهِـم أو علـى غَيْـرِ بَيِّنَـةٍ، الحُرِّيَّـة. وخِلافُ

(*) جـون ميلتـون، (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤)، شـاعِرٌ وعالِـمٌ إنجليـزيٌّ أشْـهَرُ قصائِـدِهِ «الفِـرْدَوْس المَفْقـود» التـي كَتَبَهـا عـامَ ١٦٦٧. كُـفَّ بَصَـرُهُ ذاتَ حيـنٍ غَيْـرَ أنَّ هـذِهِ العاهَـةَ لَـمْ تَحُـلْ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ مُتابَعَـةِ الكِتابَـةِ والتَّفَـوُّقِ فيهـا.

ما تَقَـدَّم صَحيحٌ أيضًـا: مَـنْ دأبُـهُ قَمْـعُ الحُرِّيَّةِ، يَقْمَـعُ اسْـتِطرادًا كُلَّ سَـعْيٍ إلـى طَلَـبِ الحَقيقَـةِ ونُشْـدانِها:

«اسْـلُبوني مـا شِـئْتُم مِـنْ حُرِّيّاتـي ولكِـنْ دَعـوا لي حُرِّيَّـةَ القَـوْلِ والكِـتابَةِ بِحَسْـبِ مـا يُمْلِيـهِ علـيَّ ضَميـري».

فحُرِّيَّـةُ التَّعْبيـرِ عَـنِ الـرَّأْيِ، وحُرِّيَّـةُ الحِـوارِ والمُجادَلَـةِ، هـي ما يُتيـحُ تَجْميعَ نُتَـفِ الحَقيقَةِ، مِـنْ هُنـا وهُنـاك، وُصـولًا إلـى الحَقيقَـةِ:

«فـأنْ نَسْـعى، بِـلا كَلالَـةٍ، إلى تَعَلُّـمِ ما نَجْهَلُـهُ بِناءً علـى مـا نَعْرِفُـهُ، وأن نَسْـعى إلـى إضافَـةِ الحَقيقَـةِ علـى الحَقيقَـة، (باعْتِبارِ أنَّ الحَقائِـقَ تأتَلِفُ)، هذهِ هـي قاعِـدَةُ المَعْرِفَـةِ الذَّهَبِيَّـةُ فـي اللّاهـوتِ كمـا فـي الرِّياضيّات».

كُلُّ مـا تَقَـدَّمَ لا يَعْـدو أنْ يكـونَ قَليـلًا مِـنْ كَـثيرٍ حَقُّـهُ أنْ يُثْبَـتَ وأنْ يُسْـتَعاد.

مُقِـرًّا بِتَقْصيـري عَنْ إيفاءِ المَسْـأَلَةِ التـي نَحْنُ بَيْنَ يَدَيْهـا حَقَّهـا مِـنَ التَّفْصيـل أكْتَفـي، علـى سَـبيلِ

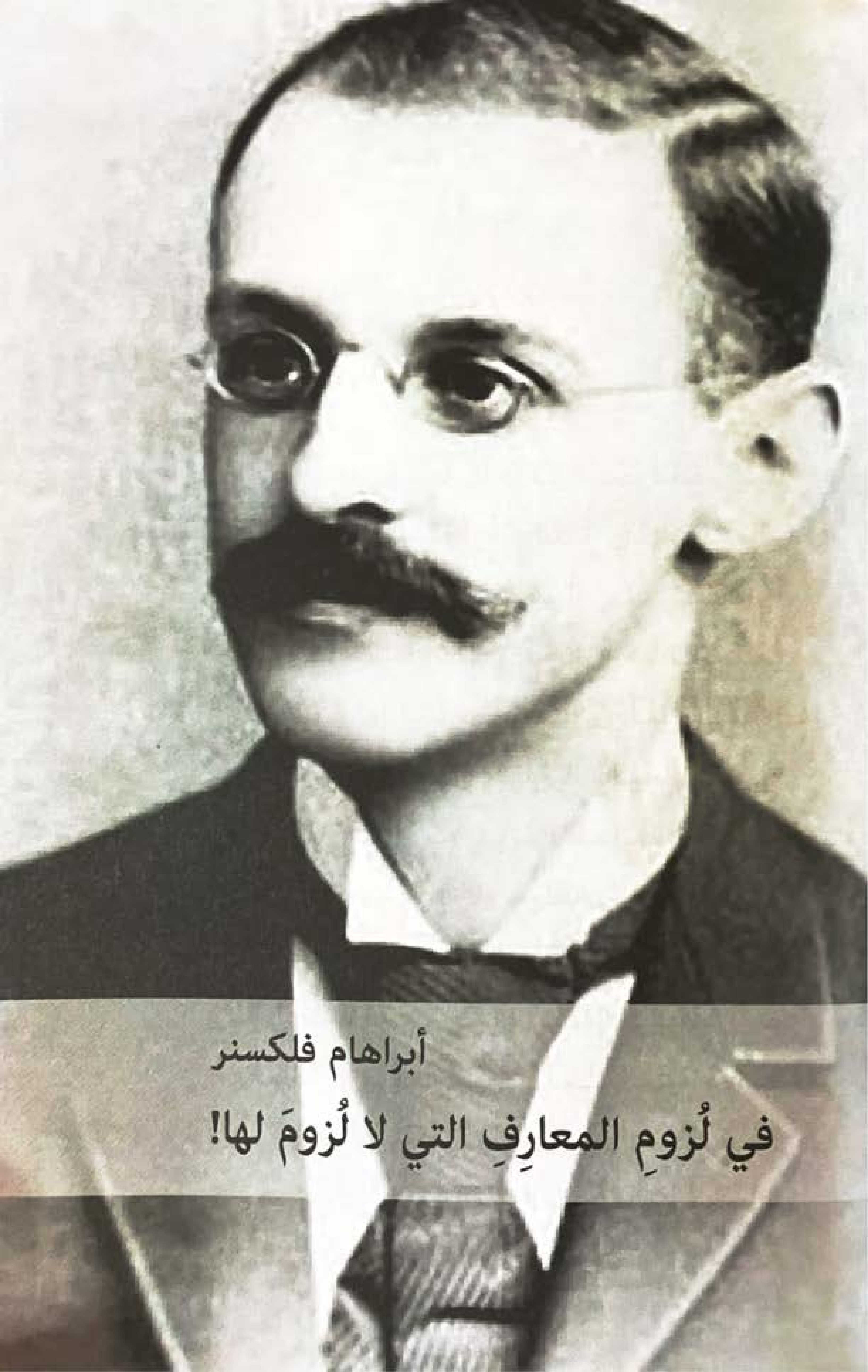
اخْتتـامِ هـذا الفَصْـلِ، بِقَـوْلٍ للفَيْلَسـوفِ الألمانـي لِسِـنْج يَخْتَصِـرُ فيهـا مُوجِـبَ طَلَـبِ الحَقيقـةِ ونُشْـدانِها علـى الإنْسـان:

«ليسَـتْ قيمَـةُ الإنْسـانِ في ما يَمْلِكُهُ مِـنْ حَقيقَةٍ أو مـا يَدَّعـي امْتِلاكَـهُ مِنْهـا وإنَّمـا فـي مـا يَبْذُلُـهُ مِـنْ جَهْـدٍ صـادِقٍ لِبلـوغِ الحَقيقَة.
فالمَلَـكاتُ التـي تَسيرُ بالإنْسـانِ إلـى مَزيـدٍ مِـنَ الكَمـالِ لا تَزيـدُ بِمـا يُحَصِّلُهُ مِـنَ الحَقيقَـةِ بَلْ بِما يَنْشُـدُهُ مِنها.
المِلْكُ والحِيازَةُ أخْصَرُ سَبيلَيْنِ إلى الدَّعَةِ المُتكاسِلَةِ والصَّلَفِ الأحْمَق.
لَـوِ اجْتَمَعَـتْ فـي يَميـنِ المَوْلـى كُلُّ الحَقائِـق، وفـي يُسْـراه كُلُّ المَشَـقَّةِ التـي يَقْتَضيهـا البَحْـثُ عِـنِ الحَقيقَـةِ، ثُـمَّ عَـرَضَ المَوْلـى عَلَـيَّ كَفَّيْـهِ وقـال: "إخْتَـرْ!"، لَمِلْـتُ، بِـلا تَـرَدُّدٍ، علـى بَيِّنَـةٍ مِنْ أمْـري، نَحْـوَ اليُسْـرى، وَلِسـانُ حالي يَقـول: هاتِ! مـولايَ، هـاتِ، إنَّمـا الحَقيقَـةُ الحَقيقَةُ لَـكَ وَحْدَكَ لا شَـريكَ لَـكَ فيهـا!».

كُلّي ثِقَةٌ بأنَّ هذا الاسْتِشْـهادَ، كما الاسْتِشْـهاداتِ التـي تَوالَـتْ في الصَّفَحـاتِ السّـابِقَةِ، كَفيلَةٌ بأنْ

تَجِـدَ طَريقَهـا إلـى أعْماقِ الفُـؤادِ مِـنْ كُلِّ واحِدٍ وواحِـدَةٍ مِنّـا، وبأنْ تُسَـرِّعَ مِـنْ وَتيـرَةِ المُتَباطِئِ مِـنْ خَفَقانِـهِ، وبـأنْ تَشْـهَدَ بالحَـقِّ علـى لُزومِ ما يُزَيِّـنُ لنـا أحْيانًا أنْ لا لـزومَ لَه.

نَعَـمْ، إنَّ هـذِهِ الكَلِمـاتِ تَشْـهَدُ، بِرَسْـمِنا، وَبِرَسْـمِ الأجْيـالِ التـي مِـنْ بَعْدِنـا، أنَّ النُّـزوعَ إلـى طَلَـبِ المَعْرِفَـةِ المُتَحَـرِّرَ مِـنْ أيِّ مُوجِبٍ نَفْعِـيٍّ أو عَمَلِيٍّ هـو المُعَـوَّلُ عليـه لِتُرَفْـرِفَ بالبَشَـرِيَّةِ أجْنِحَتُهـا صَـوْبَ مزيـدٍ مِـنَ الحُرِيَّةِ ومِـنَ التَّسـامُحِ... بَلْ قُل: صَـوْبَ مَزيـدٍ مِـنَ الإنْسـانيَّة...


أبراهام فلكسنر
فِي لُزومِ المعارِفِ التي لا لُزومَ لها!

ا

أَلَيْـسَ مِمّـا يُسْـتَغْرَبُ لَهُ أنْ نَجِدَ في هـذا العالَمِ، عالَمِنـا، الـذي تَـتَناهَبُهُ أحْقـادٌ عَمْيـاءُ تَـكادُ أنْ تَقْضِـيَ علـى الحَضـارَةِ نَفْسِـها ــ أَلَيْـسَ مِمّـا يُسْـتَغْرَبُ لَـهُ أنْ نَجِـدَ رِجـالًا ونِسـاءً، مِـنْ سـائِرِ الأعْمـارِ، يَنْـأَوْنَ بِأَنْفُسِـهِم، كُلِّيًّـا أو جُزْئِيًّـا، عَـنْ صَخَـبِ الحَيـاةِ اليَوْمِيَّـةِ وضَوْضائِهـا ويُكَرِّسـونَ أنْفُسَـهُم لِصِناعَـةِ المَزيـدِ مِـنَ الآثـارِ الجَميلَـةِ، وَلِتَوْسـيعِ آفـاقِ العُلومِ، ولاخْتِراعِ عِلاجاتٍ تَشْـفي مِـنْ أمْـراضٍ تُوْصَـفُ بالمُسْـتَعْصِيَةِ، وللتَّخْفيـفِ مِـنْ عَذابـاتِ البَشَـرِ، ويكـونُ هـذا السَّـعْيُ مِـنْ هَـؤلاءِ بَيْنَمـا يَنْصَـبُّ جَهْـدُ آخَريـنَ، يَتَمَلَّـكُهُمُ التَّعَصُّـبُ، علـى نَشْـرِ البَشـاعَةِ والألَـمِ واليَـأْسِ والضَّغائِـنِ بِـكُلِّ مـا أُوْتـوا مِـنْ بَـأْسٍ وقُـوَّةٍ؟

نَعَـمْ، مِـنْ أوَّلِ الأمَـرِ لَـمْ يَـزَلْ عالَمُنـا هـذا مَكانًـا يَعُمُّـهُ البُـؤْسُ والاضْطِـراب. هـو كذلِـكَ، ولكـنْ مِـنْ حُسْـنِ الحَـظِّ أنَّ شـيمَةَ الشُّـعَراءِ والفَنّانيـنَ والعُلَمـاءِ أنْ يَتَجاهَلـوا ما يَحوطُ بِهِم مِنْ أسْـبابِ القُنـوطِ فَيَمْضـونَ فـي حـالِ سَـبيلِهِم حاجِزيـنَ بَيْنَهُـمْ وَبَيْـنَ كُلِّ مـا يُمْكِـنُ أنْ يَقْطَـعَ عَلَيْهِـم طَريـقَ الشِّـعْرِ أو مَنافِـذَ الاكْـتِشاف.

بالمَقاييـسِ العَمَلِيَّـةِ النَّفْعِيَّـةِ، لا جَـدْوى، فـي الظّاهِـرِ، مِـنْ أعْمـالِ الفِكْـرِ والذِّهْنِ أو مـا يُمْكِـنُ أنْ نُطْلِـقَ عَلَيْـهِ عُمومًا مُسَـمّى النَّشـاطِ الثَّقافيّ؛ فإنَّمـا النَّشـاطُ الثَّقافـيُّ، تَبَعًـا لهـذِهِ المَقاييـسِ، مَرْفِـقٌ مِـنْ مَرافِـقِ الحَيـاةِ البَشَـرِيَّةِ يَجِـدُ بَعْـضُ النّـاسِ فـي وَقْـفِ أنْفُسِـهِم وَحَياتِهِم عَلَيْـهِ مُتْعَةً، بَـلْ مُتَعًـا، لا تُوَفِّرُهـا المَرافِـقُ الأُخـرى.

إنَّ غايَتـي مِنْ هذهِ المَقالَـةِ أنْ أُبَيِّنَ، أوْ بالأخْرى، أنْ أُحـاوِلَ أنْ أُبَيِّـنَ، كَيْـفَ يَتَّفِـقُ لهـذِهِ المُتَـعِ النّافِلَـةِ التي يَسْـتَغْرِقُ فيها بَعْضُ النّـاسِ أنْ تُؤْتِـيَ نَتائِـجَ باهِـرَةً لم تَخْطُرْ، أحيانًـا، حتّى بِبالِ طُلّابها.

مِنَ الأحاديثِ المَكْرورَةِ التي تُصَمُّ بِها الآذانُ، حَديثٌ مُفادُهُ أنَّ عَصْرَنا المُسْتَغْرِقَ في مادِّيَّتِهِ مَدْعُوٌّ بِإلْحاحٍ إلى السَّعْيِ إلى أنْ تُوَزِّعَ مَوارِدَهُ المادِّيَّةُ، وفُرَصُ النَّجاحِ الاجْتِماعِيِّ فيهِ، على نَحْوٍ أعْدَل.

فَمِنْ سِماتِ عَصْرِنا التَّذَمُّرُ المُبَرَّرُ البالِغُ أحْيانًا حَدَّ الثَّوْرَةِ الذي يَصْدَعُ بِهِ كُلُّ هؤلاءِ الذينَ كَتَبَتْ عَلَيْهِم المَقاديرُ أن يُحْرَموا النَّصيبَ العادِلَ مِنَ الخَيْراتِ ومِنَ الفُرَصِ، والذي يُؤَدّي بِهِم، أو بِطائِفَةٍ كَبيرَةٍ مِنْهُم، إلى الإعْراضِ عَنْ فُروعِ العِلْمِ التي تَخَصَّصَ فيها آباؤهُم، وإلى التَّحَوُّلِ إلى فُروعِ العِلْمِ التي تُعْنى بالاجْتِماعِ والاقْتِصادِ وفُنونِ التَّدْبيرِ الحُكوميّ.

لا اعْتِراضَ عِندي على هذا التَّوَجُّه. فالعالَمُ هو ما تَهْدينا حَواسُّنا إلَيْهِ باعْتِبارِهِ العالَم. وطالَما أنَّ هذا العالَمَ على حالِهِ، وطالَما أنَّنا لَمْ نُحْسِنْ تَطْويرَهُ ولا أفْلَحْنا في جَعْلِهِ أعْدَلَ مِمّا هو، فلا غَرْوَ أنْ يَسْتَمِرَّ المَلايينُ مِنَ البَشَرِ في

حَثَّ الخُطى إلى نِهاياتِهِم المَحْتومَةِ صامِتينَ مَحْزونينَ مُحْبَطين.

ولَطالَما رَثَيْتُ، أنا نَفْسي، أنَّ مَدارِسَنا تَتَعامى عَنْ واقِعِ العالَمِ أي عَنِ العالَمِ الذي لا مَهْرَبَ للتَّلاميذِ والطُّلّابِ، عاجِلًا أم آجِلاً، مِنَ العَيْشِ فيهِ ومِنَ النُّزولِ عِنْدَ أحْكامِه.

كانَ ذلكَ مِنّي ولكِنَّني، اليَوْمَ، لا أمْلِكُ إلّا أنْ أتَساءَلَ: هَلْ مِنْ مُتَّسَعٍ بَعْدُ، في هذا العالَمِ الذي أُخْلِيَ مِنْ كُلِّ ما لا لُزومَ لَهُ — هَلْ مِنْ مُتَّسَعٍ فيهِ، بَعْدُ، لِكَمالاتِ الحَياةِ الإنْسانِيَّةِ، أي لِتِلْكَ العناصِرِ التي تَمْحَضُ الحَياةَ الإنْسانِيَّةَ بُعْدَها الرُّوحيّ؟ بِكَلامٍ آخَرَ: هل ضاقَ تَعْريفُنا لِما هو لازِمٌ إلى حَدٍّ لا مَحَلَّ مَعَهُ، بَعْدُ، لِنَزَواتِ الرّوحِ الإنْسانِيَّةِ بَلْ لِطَيْشِها ونَزَقِها؟

ولنا أنْ نَنْظُرَ في هذهِ المَسْألَةِ مِنْ وُجْهَتَيْنِ اثْنَتَيْن: الوُجْهَةِ العِلْمِيَّةِ والوُجْهَةِ الإنْسانِيَّةِ، (أو الرّوحيَّة).

فَلْنَبْدأ بالأولى: لِسَنَواتٍ خَلَتْ دارَ بَيْني وَبَيْنَ جورج إيستمان(*) حَديثٌ مَدارُهُ على النّافِعِ والنّافل؛ أمّا مُناسَبَةُ هذا الحَديثِ مَعَ هذا الرَّجُلِ الحَكيمِ اللَّطيفِ البَعيدِ النَّظَرِ عِلاوَة على ما وُهِبَهُ مِنْ ذائِقَةٍ موسيقيَّةٍ فَنِّيَّةٍ رَفيعةٍ فَما كانَ إيستمان قد عَقَدَ العَزْمَ عَلَيْهِ مِنْ وَقْفِ جُزْءٍ مِنْ ثَرْوَتِهِ الطّائِلَةِ لِتَشْجيعِ التَّعْليمِ في فُروعِ العِلْمِ النّافِعَة.

في مَعْرِضِ حَديثِنا سَأَلْتُهُ، على بَيِّنَةٍ مِمّا في سُؤالي مِنْ مُجازَفَة: مَنْ هُوَ المُقَدَّمُ لَدَيْكَ مِنَ العُلَماءِ بِلِحاظِ ما أنْعَمَهُ على البَشَرِيَّةِ مِنْ مَنْفَعَةٍ في المَجالِ العِلْمِيّ؟ بلا تَرَدُّدٍ أجاب: ماركوني! لَمْ أتَمالَكْني، عِنْدَ جَوابِهِ هذا، مِنَ التَّعْليق: «أيًّا تَكُنِ المُتْعَةُ التي يُوَفِّرُها لنا المِذْياعُ، وأيًّا تَكُنْ أهَمِّيَّةُ الاتِّصالِ اللّاسِلْكِيِّ في حَياةِ البَشَرِ، فإنَّ يَدَ ماركوني في هذا جميعًا لا تَكادُ تُذْكَر!».

(*) جورج إيستمان، (١٨٥٤ ـ ١٩٣٢)، مُؤَسِّسُ شَرِكَةِ «إيستمان كوداك» التي عَمَّمَتْ ثقافَةَ التَّصْويرِ بَيْنَ عامَّةِ النّاس.

وإنْ أنْسى لا أنْسى دَهْشَتَهُ مِنْ تَعْليقي هذا. وإذِ اسْتَزادَني في بَيانِ ما أعْني حَدَّثْتُهُ بالكَلِماتِ التّالِيَة: «يا سَيِّدي العَزيز، لا، لَيْسَ لي، ولا لأحَدٍ أنْ يُنْكِرَ فَضْلَ ماركوني؛ غَيْرَ أنَّهُ، إنْ كانَ لا بُدَّ مِنْ أن يُنْسَبَ فَضْلُ هذا الاخْتِراعِ الحاسِمِ إلى أحَدٍ مِنَ النّاس، فالأوْلى بالفَضْلِ أنْ يُنْسَبَ إلى العَلّامة كليرك ماكسويل الذي اشْتَغَلَ عام ١٨٦٥ على مَجْموعَةٍ مِنَ الحِساباتِ المُعَقَّدَةِ العَويصَةِ في مَجالِ المِغْنَطيسيّاتِ والكَهْرباءِ والذي نَشَرَ المُعادَلاتِ النَّظَرِيَّةَ التي تَوَصَّلَ إلَيْها مِنْ حِساباتِهِ تِلْكَ عام ١٨٧٣.

في تِلْكَ السَّنَة، وبِمُناسَبَةِ مُؤْتَمَرٍ عَقَدَهُ "المَعْهَدُ البريطانِيُّ للتَّقَدُّمِ العِلْمِيِّ"، عَلَّقَ أُسْتاذٌ بِجامِعَةِ أوكسفورد على أبْحاثِ ماكسويل وخُلاصاتِها بالقَوْل: "حَقٌّ على كُلِّ عالِمِ رِياضِيّاتٍ يُطالِعُ هذهِ الأبْحاثَ أنْ يُقِرَّ بأنَّها إضافَةٌ هامَّةٌ إلى مَنْهَجِ الرِّياضِيّاتِ البَحْتِ وعِلْمِها".

وخِلالَ السَّنَواتِ الخَمْسِ عَشْرَةَ التّالِيَةَ رَفَدَتْ

اكْـتِشافاتٌ أُخْـرى الجَهْـدَ النَّظَـرِيَّ الـذي رادَهُ ماكسـويل. وأخيرًا، في ١٨٨٧ و١٨٨٨ حَلَّ هَيْنريخ هرتـس، مُسـاعِدُ العَلّامَـةِ هلْمهولتـس(*) المَسْـألَةَ التـي كانَـتْ لَمْ تَـزَلْ حتّى يَوْمذاكَ عالِقَـةً ومَوْضِعَ أخْـذٍ ورَدٍّ وهـي مَسْـألَةُ التَّعَـرُّفِ علـى المَوْجـاتِ الكَهرومِغْنَطيسـيَّةِ المُوصِلَةِ للإشـاراتِ اللّاسـلكيَّة. علـى أنَّـهُ، وَلِلْعِلْـمِ بِالشَّـيْء، فـلا ماكسـويل ولا هرتـس كانـا فـي شُـغْلٍ شـاغِلٍ مِـنَ التَّطبيقـاتِ العَمَليَّـةِ المُحْتَمَلَـةِ لأبْحاثِهِمـا واكْتِشـافاتِهِما، بَـلْ لا مُبالَغَـةَ فـي القَـوْلِ إنَّ هـذهِ التَّطبيقـاتِ كانَـتْ آخِـرَ هَمِّهِما.

بالمَعْنـى القانونـيِّ، ماركونـي، نَعَـمْ، هـو صاحِبُ الاخْتِـراعِ، أمّـا بالمَعْنـى العِلْمـيِّ فما الـذي يُمْكِنُ نِسْـبَةُ اخْتراعِهِ إلى ماركوني؟ لا شَـيْءَ حَقًّا سِـوى بَعْضِ التَّفاصيلِ التِّقْنِيَّةِ التي يَتَألَّفُ مِنْها مِكْشـافُ المَوْجـاتِ، جِهـازُ الاسْـتِقْبالِ الـذي نَتَعـارَفُ علـى

(*) هيرمـان هلمهولتـس، (١٨٢١ ـ ١٨٩٤)، فيزيائِـيٌّ ألمانِـيٌّ لَـهُ إسْـهاماتٌ جَليلَـةٌ فـي عَـدَدٍ مِـنَ المَجـالاتِ العِلْمِيَّـة.

تَسْمِيَتِهِ بـ "الرّاديو"/"المِذْياعِ"، والذي يَتَقادَمُ اسْتِخدامُهُ إلّا في نِطاقاتٍ جُغرافِيَّةٍ ضَيِّقَة.

نَعَمْ، رُبَّ قائِلٍ إنَّ ماكسويل وهرتس لَمْ يَخْتَرِعا شَيْئًا، وهو قَوْلٌ صَحيحٌ، ولكنْ صَحيحٌ أيْضًا أنَّهُ لَوْلا ما اسْتَغْرَقا فيهِ مِنْ جَهْدٍ نَظَرِيٍّ لَما تَمَكَّنَ فَنِّيٌّ ماهِرٌ مِنْ قَبيلِ ماركوني مِنِ اخْتِراعِ هذِهِ الوَسيلَةِ الجَديدَةِ النّافِعَةِ والمُسَلِّيَةِ مِنْ وَسائِلِ الاتِّصال، ولَما تَحَقَّقَ لآخَرينَ، بِفَضْلِ هذِهِ الوَسيلَةِ، على قِلَّةِ مُساهَمَتِهِم في تَطْويرها، ما تَحَقَّقَ لَهُم مِنْ مَجْدٍ ومَكاسِب. فَلْنَسْأَلِ السُّؤالَ مُجَدَّدًا: مَنْ هوَ صاحِبُ اليَدِ في هذا الفَتْح؟ بِلا تَرَدُّدٍ: إنَّهُما العَبْقَرِيّانِ ماكسويل وهرتس اللَّذانِ صَفَتْ نِيَّتُهُما مِنْ أيِّ قَصْدٍ نَفْعِيّ. أمّا ماركوني فإنَّما اخْتَرَعَ ما اخْتَرَعَ لِوَجْهِ النَّفْعِ لَيْسَ إلّا...».

وإذِ اسْتَحْضَرَ ذِكْرُ هرتس إلى خاطِرِ السَّيِّدِ إيستمان التَّرَدُّداتِ الهِرتسِيَّة، اقْتَرَحْتُ عَلَيْهِ أنْ يَتَحَقَّقَ مِنْ أساتِذَةِ الفيزياءِ بِجامِعَةِ روتْشِسْتر مِمّا قامَ بِهِ ماكسويل وهرتس مَعَ ثِقَتي المُطْلَقَةِ

بِما أُؤَكِّدُهُ مِنْ أنَّ العالِمَيْنِ هَذَيْنِ لَمْ يَقْصِدا فـي كُلِّ أبْحاثِهِما إلى أيَّةِ غايَةٍ عَمَلِيَّةٍ نَفْعِيَّةٍ، ومَعَ ثِقَتي بأنَّ المُعْظَمَ مِنَ الاكْتِشافاتِ ومِنَ الاخْتِراعاتِ الكُبْرى التي أفادَتِ البَشَرِيَّةُ مِنْها إنَّما جَرَتْ على أيْدي رِجالٍ ونِساءٍ لَمْ يُوَلّوا في ما اكْتَشَفوهُ واخْتَرَعوهُ وَجْهَ النَّفْعِ والجَدْوى وإنَّما لَبّوا نِداءَ الفُضولِ والمَعْرِفَةِ المُجَرَّدَة.

- لبّوا نِداءَ الفُضول؟

- نَعَمْ، لبّوا نِداءَ الفُضول!

فالفُضولُ، سَواءٌ أتَمَخَّضَتْ عَنْهُ أُمورٌ نافِعَةٌ أمْ لَمْ يَتَمَخَّضْ عَنْهُ شَيْءٌ، هو السِّمَةُ الأبْرَزُ مِنْ سِماتِ الفِكْرِ الحَديثِ. والحَقيقَةُ أنْ لا جَديدَ حَقًّا بِأنَّهُ كذلك.

فَنَسَبُ الفُضولِ هذا يَرْتَفِعُ إلى عُصورٍ خَلَت، بَلْ يَرْتَفِعُ إلى چاليليو وبيكون(*) ونيوتن، والأوْلى

(*) فرانسيس بيكون، (١٥٦١ ـ ١٦٢٦)، فَيْلَسوفٌ وَرَجُلُ دَوْلَةٍ وكاتِبٌ إنْچليزيٌّ مِنْ رُوّادِ «المُلاحَظَةِ والتَّجْريب».

بِنا أنْ نُشَجِّعَ ازْدهارَهُ بَيْنَنا، والأوْجَبُ على المُؤَسَّساتِ العِلَمِيَّةِ ومَعاهِدِ البَحْثِ أنْ تُشَجِّعَ على ذلك أيضًا. فَبِمِقْدارِ ما يُزاحُ عَنْ كاهِلِ هذِهِ المُؤَسَّساتِ والمَعاهِدِ مُوجِبُ الإنْتاجِ النَّفْعِيِّ المُباشَرِ، بِمِقْدارِ ما يُرَجّى أنْ تَزيدَ مُساهَماتُها في خَيْرِ البَشَرِيَّةِ وصَلاحِها، وبِمِقْدارِ ما يُرَجّى لها أيْضًا، (ولَيْسِ هذا مِمّا يُسْتَهانُ بِهِ)، أنْ تُشْبِعَ الفُضولَ وحُبَّ الاسْتِطلاعِ بِوَصْفِهِما، في عَصْرِنا هذا، سَيِّدا الحياةِ الثَّقافِيَّةِ والعِلْمِيَّةِ.

II

وما يَصْدُقُ على العالِمِ هينريخ هيرتس الذي عَمِلَ طيلَةَ سَنَواتٍ، على أواخِرِ القَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ، بِصَمْتٍ وَتَجَرُّدٍ، في مُخْتَبَرِ أستاذِهِ هلمهولتس، يَصْدُقُ، إلى حَدٍّ بَعيدٍ، على كُلِّ عُلماءِ العالَم.

حَسْبُنا أنْ نَتَمَثَّلَ في خَيالنا، وَلَوْ لِلَحْظَةٍ واحِدَةٍ، أَنَّهُ لولا الجُهودُ التي بَذَلَها بَعْضُ هَؤلاءِ لَكُنّا

نَعيـشُ فـي عالَـمٍ يُخَيِّمُ عَلَيْـهِ، في ما يُخَيِّـمُ، الظّلامُ ــ الظَّـلامُ بِالمَعْنـى الحَرْفِـيِّ للكَلِمَة...

فـإنْ يُسْـتَفْتى النّـاسُ فـي مَشـارِقِ الأرْضِ وَمَغارِبِها عَـنْ الاخْتِـراعِ الأوْسَـعِ انْتِشـارًا والأكثَـرِ تأثيـرًا على حَياتِهِـم العَمَليَّـةِ لمـا تَـرَدَّدَ المُعْظَـمُ مِنْهُـم عَـنِ القَـوْل: الكَهْرَبـاء! فَمَـنْ هُـمُ أُولئـك الذيـن نَديـنُ لَهُـم بالاكْـتِشافاتِ الرَّئيسَـةِ التـي أفْضَـتْ إلـى اخْتِـراعِ الكَهْرَبـاء؟ سُـؤالٌ وَجيـهٌ وجَوابُهُ فـي مَحَلِهِ فـي سِـياقِ بَحْثِنـا هـذا.

هاكُم بَعضًا مِنْ قِصَّةِ الكَهرباء: وُلِدَ مايكل فارادي، (١٧٩١ ـ ١٨٦٧)، لأبٍ يَعْمَلُ حَدّادًا. على الرّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ العُمْرِ التَحَقَ مايكل بِحانوتِ كُتُبِيٍّ يَتَعاطى أيْضًا تَجْليدَ الكُتُبِ لِيَتَعَلَّمَ مِهْنَةَ التَّجليدِ هذِه.

ثُـمَّ كانَ ذاتَ يَـوْمٍ، بَعْـدَ سَـنَواتٍ علـى ذلـكَ، أنِ اصْطَحَبَـهُ صَديـقٌ لَـهُ إلـى «المَعْهَـدِ المَلَـكِيِّ» لِحُضـورِ مُحاضَـراتٍ فـي الكيميـاء يُلقيهـا السِّـير همفـري ديفـي.

مِنْ وَحْيِ هذه المُحاضَراتِ، دَوَّنَ الشّابُّ ذو الإحْدى والعِشْرينَ سَنَةً مَجْموعَةً مِنَ المُلاحَظاتِ وافى السّير ديفي بِنُسْخَةٍ مِنْها.

لَمْ يَسْتَهْتِر ديفي بِهَذِهِ المُلاحَظاتِ ولا تأخَّرَ عن الاتِّصالِ بالشّابِ، وما هي إلّا أشْهُرٌ حتّى وَجَدَ فارادي نَفْسَهُ في وَظيفَةِ باحِثٍ مُساعِدٍ في مُخْتَبَرِ الكيمياءِ الذي يُديرُهُ ديفي.

وما إنْ دَخَلَ العامُ التّالي حتّى وَجَدَ مايكل نَفْسَهُ يُرافِقُ السّير ديفي في رِحْلَةٍ عِلْمِيَّةٍ إلى أوروبّا. وفي عامِ ١٨٢٥، على الرّابعةِ والثّلاثينَ مِنَ العُمْرِ، عُيِّنَ مايكل مُديرًا لِمُخْتَبَرِ «المَعْهَدِ المَلَكِيِّ» وأقامَ في هذا المَنْصِبِ أرْبَعًا وخمسينَ مُتَتاليات.

شَيْئًا فَشَيْئًا كانَ اهْتِمامُ فارادي قَدْ تَحَوَّلَ مِنَ الكيمياءِ إلى الكَهْرَبائِيّاتِ والمِغْنَطيسيّاتِ وهُما المَجالانِ اللّذان انْتَهى بِهِ الأمْرُ أنْ وَقَفَ عَلَيْهِما مُعْظَمَ حَياتِه. بالطَّبْع لَمْ يَخْلُ فارادي

فـي هَذَيْـنِ المَجالَيْـنِ مِـنْ أسْلاف؛ فَمِـنْ قَبْلِهِ كان الدِّنْمَرْكِيُّ هانز كريسـتيان أورستد، (١٧٧٧ ـ ١٨٥١)، والفَرَنْسِـيُّ أندريـه مـاري أمبيـر، (١٧٧٥ ـ ١٨٣٦)، والبريطانِـيُّ ويليـم هايده ولسـتو، (١٧٦٦ ـ ١٨٢٨) قَـدْ فَتَحوا فيهِمـا عَدَدًا مِنَ الفُتوحـاتِ، غَيْرَ أنَّ هذهِ الفُتوحـاتِ بَقِيَـتْ مَغْمـورَةً وناقِصَة.

فـي عـامِ ١٨٤١ نَجَـحَ فـارادي فـي حَـلِّ عَـدَدٍ مِنَ المَسائِلِ التـي لَـمْ يَكُـنْ أسْلافُهُ قَـدْ تَمَكَّنـوا مِنْها واسْـتَحْدَثَ مـا نُسَـمّيهِ بـ«التَّيّـارِ الكَهْربائيّ».

بَعْـدَ أرْبَـعِ سَـنَواتٍ علـى ذلـكَ اكْـتَشَفَ تأثيـرَ المِغْنَطيـسِ علـى «الضَّـوْءِ المُسْـتَقْطَبِ» ودَشَّـنَ مَـعَ هـذا الاكْـتِشافِ مَرْحَلَـةً جَديـدةً مِـنْ حَياتِـهِ المِهَنِيَّـةِ والعَمَلِيَّـةِ لا تَـتَدَنّى ألَقًـا عَـنِ المَرْحَلَـةِ الأولى. وإنْ تَـكُـنْ اكْتِشـافاتُ فارادي في المَرْحَلَةِ الأولـى قَـدْ تُرْجِمَـتْ إلـى مـا لا حَصْرَ لَـهُ ولا عَدَدَ مِـنَ التَّطْبيقـاتِ والاسْـتِخداماتِ العَمَلِيَّـةِ حَيْـثُ خَفَّفَـتِ الكَهْربـاءُ بِمـا لا يُـقاسُ مِنْ أعْبـاءِ الحَياةِ وتَـكاليفِها، فـإنَّ اكْـتِشافاتِ المَرْحَلَـةِ الثّانِيَـةِ لَمْ

تُتَرْجَمْ، حتّى اليَوْمَ، تَطْبيقاتٍ عَمَلِيَّة. هَلْ لِهذا الفارِقِ بَيْنَ المَرْحَلَتَيْنِ، وما تَرَتَّبَ على كُلِّ واحِدَةٍ مِنْهُما مِنْ نَتائِجَ عَمَلِيَّةٍ أوْ لَمْ يَتَرَتَّب، عِنْدَ فارادي نَفْسِهِ، مِنْ حُسْبان؟ أحْمَقُ مَنْ يَظُنُّ أنَّهُ كذلك!

فَطيلَةَ حَياتِهِ لَمْ يُبالِ فارادي أدْنى مُبالاةٍ بالوَجْهِ العَمَلِيِّ النَّفْعِيِّ لاكْتِشافاتِه. مُسْتَغْرِقًا في فَكِّ أسْرارِ الكَوْن، في مَجالِ الكيمياءِ أوَّلًا ثُمَّ في مَجالِ الفيزياءِ، لَمْ يُلْقِ فارادي أدْنى بالٍ إلى ما يُمْكِنُ أنْ يَتَأَدّى مِنِ اكْتِشافاتِهِ بَلْ لَعَلَّهُ لَوِ انْشَغَلَ بِذَلِكَ لَضَيَّقَ على نَفْسِهِ وعلى فُضولِهِ، واسْتِطْرادًا على مَلَكَةِ الإبداعِ لَدَيْه.

لَمْ تأخُذِ اكْتِشافاتُ فارادي كُلَّ مَداها النَّفْعِيِّ والعَمَلِيِّ إلّا مُتَأَخِّرًا؛ أمّا تَجارِبُهُ التي أتاحَتْ لَهُ الوصولَ إلى تِلْكَ الاكْتِشافاتِ فَلَمْ تَخْضَعْ يَوْمًا لِمِعْيارِ النَّفْعِ والتَّطْبيقِ العَمَلِيّ.

في هذا العالَمِ الذي نَعيشُ فيهِ والذي هو على

ما هـو، مِـنَ الواجِـبِ أنْ نُسارِعَ إلى القَـوْلِ بـأنَّ يَـدَ العِلْـمِ فـي تَطْويـرِ التِّقْنِيّـاتِ الحَرْبِيَّـةِ، وكُلُّنـا يَعْـرِفُ بـأنَّ هَـذه التِّقَنِيّاتِ تَـزْدادُ فَتْـكًا وتَدْميرًا ـ بِـأنَّ يَـدَ العِلْمِ هـذِهِ نَتيجَـةٌ ثانَوِيَّةٌ، وأحْيانًـا طارِئَةٌ، مِـنْ نَتائِـجِ البَحْـثِ العِلْمِـيِّ لا يَتَحَمَّلُ هـذا البَحْثُ مَسْـؤولِيَّتَها والتَّبِعَـةَ عَنْها.

لِعَهْـدٍ قَريـبٍ خَـلا ذَكَّرَنـا اللـورد ريليغ، رَئيـسُ «المَعْهَـدِ البريطانِـيِّ للتَّقَـدُّمِ العِلْمِـيِّ»، مُصيبًـا فـي تَذْكيرِنـا وفي مـا تَكَبَّدَ عَنـاءَ التَّذْكيـرِ بِه، بأنَّ المَسْـؤوليَّةَ عَنِ اسْـتِخْداماتِ العَناصِرِ الكيميائِيَّةِ فـي الحُـروبِ الحَديثَـةِ إنَّمـا تَقَـعُ علـى البَشَـرِ وجُنونِهِـم لا علـى العُلَمـاءِ ومَقاصِدِهِـم.

لَقَدْ أثْمَرَتْ دِراسَةُ مُرَكَّباتِ الكَرْبون وتَفاعُلاتِها، في مَنْأى مِنْ أيِّ غايَةٍ نَفْعِيَّةٍ، ثِمارًا شَتّى مِنْها ما كانَ مِنْ تَخْليقِ مادَّةِ النِّيتروغليسيرين، عِلْمًا أنَّ للنّيتروغليسرين اسْتِخْداماتٌ مِنْها النّافِعُ ومِنْها الضّارّ. ثُمَّ كانَ أنْ تَوَصَّلَ الكيميائِيُّ السُّوَيْدِيُّ ألفرد نوبل، (١٨٣٣ ـ ١٨٩٦)، بأنْ مَزَجَ بَيْنَ

النّيتروغليسيرين ومَوادَّ أُخْرى، إلى إنْتاجِ مادَّةٍ مُتَفَجِّرَةٍ صَلْبَةٍ تَقْبَلُ التَّحَكُّمَ بها. صَحيحٌ أنَّ الدّيناميتَ باتَ مُرادِفًا لِشُرورِ الحَرْبِ والإرْهابِ ومَآسيهما، ولكِنْ... فَلْنَتَذَكَّرْ أنَّ الفَضْلَ في حَفْرِ المَناجِمِ وَفي شَقِّ أنْفاقِ القِطاراتِ يَعودُ للدّيناميت أيْضًا!

وبِهذا المَعْنى فإنَّ المَسْؤولِيَّةَ عَنِ اسْتِخداماتِ الدّيناميتِ لأغْراضٍ حَرْبِيَّةٍ لا يُمْكِنُ أنْ تُلْقى على العُلَماءِ كما أنَّ دِراسَةَ العُلَماءِ لِطَبَقاتِ الأرْضِ لا يُلْقي عَلَيْهِم مَسْؤوليَّةَ الزَّلازِلِ أو دِراسَةَ المُحيطاتِ مَسْؤوليَّةَ الفَيَضانات!

وما يَصِحُّ على الدّيناميتِ يَصِحُّ على اسْتِعْمالِ بَعْضِ الغازاتِ لِغاياتٍ حَرْبِيَّة. فَلْنَتَذَكَّرْ: لألْفَيِّ عامٍ ماتَ پلين(*) اخْتِناقًا نَتيجَةَ اسْتِنْشاقِهِ غازًا سامًّا انْبَعَثَ مِنْ بُركانِ الڤيزوف خِلالَ إحْدى ثَوْراتِه. هَلْ مُفادُ ذلك أنَّ دِراسَةَ الڤيزوف هي ما تَسَبَّبَ بِمَوْتِ پلين؟

(*) پلين، (٢٣ ـ ٧٩)، عالِمُ طَبيعِيّاتٍ رومانِيّ. مُؤَلِّفُ **التّاريخ الطّبيعي**.

لَـمْ يَقْصِـدِ العُلَمـاءُ يَـوْمَ أنْ عَزَلـوا مـادَّةَ الكلور، أو يَـوْمَ أنْ صَنَعـوا غـازَ الخَـرْدَلِ، إلـى مـا اسْـتُخْدِمَتْ لَـهُ هـذهِ المَـوادُّ علـى أيْـدي فُـلانٍ أو فُـلانٍ مِـنَ الذيـن أدْرَكـوا أيْضًـا ما يُمْكِـنُ أنْ يَعْنيه، مَـعَ تَطَوُّرِ عِلْـمِ الطَّيَـرانِ، إلْقـاءُ هذهِ المـوادِّ مِنَ الجَـوِّ. مَعْقِدُ الأمْـرِ إذًا، متـى ما تَعَلَّـقَ الأمْرُ بالدّيناميـتِ أو بِغازِ الخَـرْدَلِ، هـو في المَسـؤولِيَّةِ عن الاسْـتِخدامِ لا في المَسْـؤولِيَّةِ عَـنِ الاخْتِراع.

فَلْنَنْتَقِــلِ الآنَ للحَديــثِ بَعْــضَ الشَّــيْءِ عَــنِ الرِّياضيّــاتِ البَحْــت.

علـى مـا نَعْرِف جَميعًـا فإنَّ الفَتْـحَ الأبْرَزَ فـي عِلْمِ الرِّياضِيّـاتِ خِـلالَ القَرْنَيْـنِ الثّامِـنِ والتّاسِـعَ عَشَـرَ هـو الهَنْدَسَـةُ غَيْـرُ الإقْليديَّـة. هـو كذلـك، بَيْـدَ أنَّ التَّذْكيـرَ واجِـبٌ بـأنَّ العَلّامَةَ الرِّياضـيَّ يوهان كارل فريدريـش چـاوس (١٧٧٧ـ ١٨٥٥)، مـع عُلُـوِّ كَعْبِهِ بَيْـنَ رِياضِيّـي زَمانِـهِ، لَـمْ يَجْرؤ علـى نَشْـرِ نَظَرِيَّتِهِ الخاصَّـةِ بالهَنْدَسَـةِ غَيْـرِ الإقْليديَّـةِ طيلَةَ رُبْـعِ قَرْن. ومِـنْ بـابِ التَّذْكيـرِ أيْضًا فـإنَّ نَظَرِيَّةَ النِّسْـبِيَّةِ ذاتِ

الاسْتِخداماتِ العَمَليَّةِ العَديدَةِ ما كانَ لها أنْ تُكْتَشَفَ لَوْلا الفَتْحُ العِلْمِيُّ الذي فَتَحَهُ چاوس وأبْقاهُ طَيَّ الكِتْمانِ سَنَواتٍ طَويلَة.

كَذلِكَ قُلْ عَنِ النَّظَرِيَّةِ الرِّياضِيَّةِ المَعْروفَةِ بـ«نَظَرِيَّةِ المَجْموعات». لَمْ تَخْرُجْ هذهِ النَّظَرِيَّةُ، أوَّلَ الأمْرِ، عَنْ كَوْنِها نَظَرِيَّةً رِياضِيَّةً مُجَرَّدَةً طَوَّرَها، جَماعَةٌ مِنَ العُلماءِ، خِلالَ أبْحاثِهِم، على نَحْوٍ مِنَ الصُّدْفَةِ والاتِّفاق. على أنَّهُ، فَهَذِهِ النَّظَرِيَّةُ غَيْرُ ذاتِ الاسْتِخْدامِ العَمَلِيِّ هي في أساسِ نَظَرِيَّةِ «الكوانتوم» التي تُتيحُ بِدَوْرِها لآلافِ البَشَرِ، يَوْمِيًّا، أنْ يُخْضَعوا، لِدَواعٍ عِلاجِيَّةٍ، على غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ كُلِّ هذهِ التَّفاصيلِ، للتَّحْليلِ الطِّبِّيِّ المَعْروفِ بـ«التَّحْليلِ الطَّيْفِيّ»!

لا يَخْرُجُ حِسابُ الاحْتِمالاتِ عَنْ هذهِ الدّائِرَةِ مِنْ صُدَفِ البَحْثِ العِلْمِيِّ واتِّفاقاتِه. فَلَقَدْ نَشَأَ حِسابُ الاحْتِمالاتِ مِنْ عَزْمِ عَدَدٍ مِنْ عُلَماءِ الرِّياضِيّاتِ على عَقْلَنَةِ ألْعابِ الحَظّ. نَعَم، لَمْ يَتَوَصَّلوا إلى ما قَصَدوا إلَيْهِ ولَكِنَّ أبْحاثَهُم

هـي القاعِـدَةُ العِلْمَيَّـةُ التي تَسْـتَنِدُ إلَيْها شَـرِكاتُ التَّأْميـنِ فـي العُقـودِ التـي تُوَقِّعُهـا مَـعَ عُمَلائِهـا!

وبمـا أنَّ الشَّـيْءَ بالشَّـيْءِ يُذْكَـرُ، يَحْلـو لـي هُنا أنْ اسْتَشْـهِدَ بِمُقْتَطَـفٍ مِـنْ مَقالَـةٍ نُشِـرَت مؤخَّرًا في إحْـدى المَجَـلّاتِ العِلْمِيَّة:

«يَبْـدو لـي أنَّ شُـهَرَةَ العلّامَـةِ ألبـرت آينشـتاين قَـدْ طـارَتْ إلـى آفـاقٍ أبْعَـدَ مِنْ تِلْـكَ التـي كانَتْ قَـدْ وَصَلَتْهـا مِـنْ بَعْـدِ أنْ ذاعَ فـي المَـلَأ أنَّ هـذا الرِّياضـيَّ والفيزيائـيَّ الفَـذَّ قَـدْ بَلْـوَرَ لِخَمْـسَ عَشَـرَةَ سَـنَةً خَلَـتْ مُعـادَلاتٍ رِياضيَّـةً تُسْـهِمُ فـي تَفْسـيرِ سُـيولَةِ غـازِ الهليـوم الفائِقَـةِ عِنْـدَ تَعْريضِهِ لِدَرَجـاتِ حـرارةٍ قَريبَـةٍ مِـنَ الصِّفْـرِ المُطْلَق. ففي مُؤْتَمَـرٍ دعـا إليـه "المَعْهَـدُ الكيميائِـيُّ الأميركـيُّ" نَسَـبَ الأُسْـتاذُ بِجامِعَـةِ باريـس ف. لنـدن ـــ الأُسْـتاذُ الزّائِـرُ بِجامِعَـةِ ديـوك حاليًّا ـ نَسَـبَ إلى ألبـرت آينشـتاين الفَضْـلَ فـي اشْـتِقاقِ مَفْهـومِ "الغـازِ المِثالِـيِّ" وذلـك بالإحالَـةِ إلـى عَـدَدٍ مِـنَ المَقـالاتِ التـي كانَ آينشـتاين قَـدْ نَشَـرَها خِـلالَ العامَيْـنِ ١٩٢٤/١٩٢٥.

فـي ذلـكَ الحيـنِ لَـمْ يَكُـنْ آينشـتاين مَشْـغولًا بِنَظَرِيَّـةِ النِّسْـبِيَّةِ وإنَّمـا بِعَـدَدٍ مِـنَ المَسـائِلِ

التَّفصيليَّـةِ المُنْقَطِعَـةِ، علـى ما بَـدَتْ أيّامَذاكَ، عَنْ أيِّ بُعْـدٍ عَمَلِـيِّ أوْ أيِّ تَطْبيـقٍ مُحَـدَّد.

كانَ آينشـتاين مَشْـغولًا بِوَصْـفِ مـا يَلْحَـقُ بِبَعْضِ الغـازاتِ لـدى تَعْريضِها لِدَرجـاتِ حَـرارةٍ مُتَدَنِّيَـة. وإذْ كانَ مَعْروفًـا لـدى العُلَماءِ، علـى وَجْه العُمومِ، مـا يُصيـبُ الغـازاتِ في مِثْلِ هـذه الحالِ، لَـمْ يُلْقَ بـالٌ إلى أبْحـاثِ آينشـتاين تِلْـكَ ومَقالاتِه.

ثُمَّ كانَ ما كانَ مِنِ اكْـتِشافِ آينشـتاين أنَّ الهليومَ اسْـتِثْناءٌ علـى القاعِـدَةِ، حَيْـثُ إنَّـهُ عِنْـدَ تَعْريضِـهِ إلـى حَـرارَةٍ مُتَدَنِّيَـةٍ يَـزْدادُ سُـيولةً عِـوَضَ أنْ يَزْدادَ لُزوجَـةً شـأنَ الغـازاتِ الأُخـرى، ثُـمَّ إنَّـهُ، عِنْـدَ تعْريضِـهِ لِهَـذِهِ الحَـرارَةِ يَتَحَـوَّلُ إلى ناقِـلٍ للحَرارَةِ لا مَثيـلَ لَـه...».

ويَخْلُـصُ لنـدن بَعْـدَ مَزيـدِ شَـرْحٍ وتَفْصيـلٍ إلى أنَّ سُـيولَةَ الهليـومِ المُدْهِشَـةِ تُبَرِّرُ تَصَـوُّرَ السُّـيولَةِ كَمَفْهـومٍ قَريـبٍ مِـنْ طَـوافِ الإلكترونـاتِ فـي المَعـادِنِ...

بَيْـتُ القَصيـدِ أنَّ الطَّريـقَ إلـى النِّسْـبِيَّةِ التـي لا تُذْكَـرُ إلّا بالإحالَـةِ إلـى اسْـمِ آينشـتاين لـم تَـكُنْ

خطًّا مُسْتَقيمًا بَيْـنَ نُقْطَتَيْـنِ اثْنَتَيْـن. لَقَـدِ اقْتَضى آينشـتاين أنْ يَعْبُـرَ بِمَحطَاتٍ بَحْثِيَّـةٍ شَتّى، لا جَـدْوى مِنْهـا بالمَعْنـى العَمَلِـيِّ للكَلِمَـةِ، قَبْـلَ أنْ انْقَدَحَـتْ عَبْقَرِيَّتُـهُ عَن تِلْـكَ المُعادَلَـةِ الفَذَّةِ التي وَسَّـعَتْ لنـا الكَـوْنَ وَوَسَّـعَتْ مَعْرِفَتَنـا بِـه.

فَلْنَعُدْ عَوْدَنا الآنَ مِنْ آينشـتاين إلى القَرْنِ التَّاسِـعَ عَشَـرَ وإلـى نَمـوذَجٍ ذي صِلَـةٍ بالطِّـبِّ وبِالصِّحَّـةِ العامَّـةِ وأعْني بِـهِ عِلْمَ الجَراثيـمِ أو البَكْتريولوجيا.

غَـداةَ الحَـرْبِ الفَرَنْسِيَّةَ/البروسـيَّةِ، (١٨٧٠)، أسَّسَـتْ ألمانيـا جامِعَـةَ ستراسـبورچ العَريقَـةَ وَجَعَلَـتْ علـى رَأْسِـها الطَّبيبَ العَلّامَـةَ هاينريش ڤيلهـم فـون ڤالدايـر (١٨٣٦ ـ ١٩٢١).

وَيَـرْوي فـون ڤالداير، مِمّـا يَرْويهِ فـي مُذَكِّراتِهِ، أنَّ أحَـدَ الطُّلّابِ الذين تابَعـوا أوَّلَ الفُصولِ الدِّراسِـيَّةِ فـي الجامِعَـةِ المُسْـتَحْدَثَةِ كانَ طالِبًا في السّابِعَةَ عَشَـرَ، لَيْـسَ فـي شَـخْصِهِ مـا يَسْـتَرعي الانْتِبـاهَ لِلْوَهْلَـةِ الأوْلـى، اسْـمُهُ پول إرليـخ. لَمْ يُبْـدِ إرليخ،

(١٨٥٤ ـ ١٩١٥)، كَبيـرَ اهْتِمـامٍ بِـدُروسِ التَّشْـريحِ التـي كانَ تَعْليمُها مِـنْ مَسْـؤولِيَّةِ فـون ڤالدايـر... علـى أنَّهُ:

«لَمْ أتأَخَّرْ بـأنْ لاحَظْتُ بـأنَّ إرليخ يُمْضـي السّاعاتِ الطِّوالَ مُنْكَبًّا علـى مَكْـتَبِهِ مُسْـتَغْرِقًا بِتَفَحُّصِ أشياءَ ما بالميكروسـكوپ. كذلك لاحَظْتُ أنَّ بُقَعًا مِنْ كُلِّ الألْوانِ تَنْتَشِرُ فَوْقَ مَكْـتَبِهِ وَيَزْدادُ انْتِشـارُها اليَـوْمَ تِلْـوَ الآخَر. ذاتَ يَوْمٍ حـانَ مِنّي أنْ أفهَمَ فـي مـا يَقْضـي هـذا الطّالِـبُ وَقْتَـه؛ فَدَنَوْتُ مِنْـهُ واسْتَفْسَـرْتُ مِنْـهُ عَمّـا يُشْـغِلُه. بِرَباطَـةِ جَأْشٍ شَـزَرَني الطّالِـبُ وقـال: "Ich probiere"، وهـي عِبـارَةٌ تَحْتَمِـلُ التَّأْويـلَ علـى مُـؤَوِّلِ "إنَّنـي أُجَرِّبُ" كمـا علـى مُـؤَوِّلِ "إنَّني ألْهـو". فَقُلْـتُ لَهُ: "حَسَـنًا، واصـل لَهْـوَك". كانَ ذلـكَ مِنّـي ولكِنَّنـي سُـرْعانَ ما تَبَيَّنْـتُ أنَّ إرليـخَ طالِـبٌ اسْـتِثْنائِيٌّ وأنَّـهُ لَـمْ يَحْتَجْ إلـى مَزيـدِ تَوْجيـهٍ لِيَجِـدَ طَريقَه!».

عَـنْ حُسـنِ تَقْديـرٍ وحِكْمَـةٍ تَـرَكَ فـون ڤالدايـر لإرليـخ أنْ يُتابِـعَ لَهْـوَه! واصَـلَ التِّلْميـذُ، علـى شَـيْءٍ مِـنَ التَّعَثُّـرِ أحْيانًـا، دِراسَـةَ الطِّـبِّ ونـالَ الإجـازَةَ فيـهِ وعـادِ الفَضْـلُ في ذلـكَ، علـى نَحْوٍ

حاسِـمٍ، إلـى أسـاتِذَتِهِ الذين أدْرَكوا أنَّـهُ لا يَنْوي اتِّخـاذَ الطِّـبِّ مِهْنَـةً يَعْتـاشُ منهـا.

عِنْدَ تَخَرُّجِهِ قَصَدَ إرليخ مَدينَةَ برسلاو حَيْثُ عَمِلَ تَحْتَ إشْرافِ العَلَّامَةِ يوليوس كونهايم (١٨٣٩ ـ ١٨٨٤) الذي دَرَسَ على يَدِهِ طَبيبٌ نَعْرِفُهُ جَيِّدًا في هذهِ البلادِ، [في الولاياتِ المُتَّحِدَةِ الأميركيَّة]، هو الدّكتور وليم وِلْش، (١٨٥٠ ـ ١٩٣٤)، مُؤَسِّسُ كُلِّيَّةِ الطِّبِّ في جامِعَةِ جون هوپكينز.

لا يَبْـدو أنَّ خاطِـرَ النَّفْـعِ والجَدْوى مَـرّا يَوْمًا في خاطِـرِ إلريـخ. مِـنْ ثَـمَّ تابَـعَ، مـا اسْـتَطاعَ، لَهْوَهُ لا مُقَدِّمًـا علـى فُضولِـهِ العِلْمِيِّ أيَّ شَـيْءٍ آخَر...

ثُـمَّ كانَ أنِ ابْتَـدَعَ العَلّامَـةُ الألْمانِـيُّ هينريـش كـوخ، (١٨٤٣ ـ ١٩١٠)، ومُعاونُـوُه عِلْمًـا جَديدًا عُـرِفَ باسـم البكـتيريولوجيا فأفـادَ أحَـدُ زُمـلاءِ إرليـخ مِـنْ تَجارِبِهِ في مَجـالِ تَلْوينِ البَكْـتيريا، وواصَـلَ إرليـخ نَفْسُـهُ تجارِبَـهُ وَلَهْـوَهُ فَطَـوَّرَ بِنَفْسِـهِ تِقَنِيَّـةَ تَلْويـنِ صَفائِـحِ الـدَّمِ التـي يَقـومُ

علـى أساسِـها تَوْزيـعُ الكُرَيـاتِ الدَّمَوِيَّـةِ إلـى بَيْضـاءَ وحَمْـراء!

فـي آلافٍ مُؤَلَّفَـةٍ مِـنْ مُخْتَبَـراتِ العالَـمِ ومَشـافيهِ، تُجْـرى يَوْمِيًّـا آلافٌ مُؤَلَّفَـةٌ مِـنْ فُحوصـاتِ الـدَّمِ التـي تُحيـلُ، علـى عِلْـمٍ وبَيِّنَـةٍ مِمَّـنْ يَقومـونَ بِها وَمِمَّـنْ يَسْـتَفيدونَ مِنْهـا، أو علـى غَيْرِ عِلْـمٍ وَبَيِّنَةٍ منهـم، إلـى تَجـارِبِ إرليـخ وإلـى مـا انَصْـرَفَ إلَيْه يَوْمًـا، فـي زاوِيَـةٍ مِنْ زَوايـا مُخْتَبَرٍ في سَتراسـبوغ، مِـنْ لَهو!

فَلْنَضْرِبْ مَثَلًا آخَرَ، مِنْ عِدادِ أمْثِلَةٍ كَثيرةٍ، مُسْتَوحًى هذهِ المَرَّةِ مِنْ عالَمِ الصِّناعات؛ وأُحيلُ هُنا، في تَفاصيلِ المَثَلِ الذي أضْرِبُهُ، إلى العَلّامةِ والتر برل، (١٩١٧ ـ ١٩٩٨)، مِنْ أعْلامِ مَعْهَدِ كارنچي للتكنولوجيا بمدينة بيتسبرچ الأميركـيَّة: إنَّما نَدينُ بِنُشوءِ تِقْنِيَّةِ الحَريرِ الصِّناعيِّ إلى النَّبيلِ الفَرَنْسِيِّ الكونت شاردونيه، (١٨٣٩ ـ ١٩٢٤)!

كانَـتِ التِّقْنِيَّـةُ التـي يَلْجَـأ إليهـا شـاردونيه تَنُـصُّ

علـى تَذْويـبِ قُطْـنِ النِّيتـرونِ فـي كُحـولِ الأثيـرِ ثُـمَّ علـى تَصْفِيَـةِ المَحلـولِ اللَّـزِجِ المُتَخَلِّـقِ مِـنْ هـذا المَزيـجِ خَلَـلَ أنابيـبَ دَقيقَةٍ ثُمَّ علـى تَغْرِيقِ المَزيـجِ المُصَفَّـى فـي المـاءِ بِمـا يَضْمَـنُ تَجَمُّـدَ السَّـائِلِ علـى هَيْئَـةِ شُـعَيْراتٍ تُعَرَّضُ بَعْـدَ تَغريقِها فـي المـاءِ للهَـواءِ قَبْـلَ أنْ تُـلَفَّ علـى بكـرات.

ذاتَ يَـوْمٍ لاحَـظَ شـاردونيه خِـلالَ جَوْلَـةٍ لَـهُ فـي مَصْنَعِـهِ فـي بيزانسـون، (شَـرْق فَرَنْسـا)، الـذي كانَـتِ المِيـاهُ قَـدِ انْقَطَعَـتْ عَنْـهُ أنَّ عَمَلِيَّـةَ الغَزْلِ بِـدونُ التَّغْريـقِ فـي المـاءِ تُؤْتـي نَتائِجَ أفْضَـلَ مِنْ عَمَلِيَّـةِ الغَـزْلِ مَـعَ التَّغْريـق: يَوْمـذاكَ اكْـتُشِفَ ما يُسَـمَّى الغَـزْلُ الجـافُّ، وهـي تِقْنِيَّـةُ غَـزْلٍ مـا تَزالُ مُسْـتَخدَمَةً إلـى يَوْمِنـا هـذا علـى أوْسَـع نِطـاق.

III

لا يُفْهَمَـنَّ مِمّـا تَقَـدَّمَ أنَّنـي أزْعُمُ بـأنَّ كُلَّ الأبْحاثِ التـي تُجْرى وَراءَ أبـوابِ المُخْتَبَراتِ المُغْلَقَةِ تَنْتَهي

حَتْمًا إلى نَتائِجَ عَمَلِيَّةٍ أوْ أنَّ هذهِ النَّتائِجَ هي ما يَحْتَجُّ للبَحْثِ العِلْمِيِّ.

إنَّما مَعْقِدُ دَعْوَتي البَسيطَةِ والجازِمَةِ، في آنٍ، هي أنْ نَنْفي مِنْ قاموسِنا كَلِمَةَ «جدْوى»، وأنْ نَدَعَ للفِكْرِ وللخَيالِ البَشَرِيَّيْنَ أنْ يُحَلِّقا على سَجِيَّتِهما.

لا اسْتَبْعِدُ أنْ يَفيدَ بَعْضُ المُشَعْوِذينَ مِنْ هذهِ الحُرِيَّةِ المُطْلَقَةِ في البَحْثِ، ولا أسْتَبْعِدُ اسْتِطرادًا أنْ نَخْسَرَ بَعْضَ الأمْوال؛ ولكِنَّ خَيْرَ هذا، تَحْريرَ العَقْلِ والفِكْرِ، بِشَرٍّ ذا. نَعَم، يَقيني أنَّ المُعادَلَةَ بَيْنَ ما يُمْكِنُ أن يَحْصُلَ مِنْ شَرٍّ ومن خَيْرٍ راجِحَةٌ لِمَصْلَحَةِ هذا الأخير.

ولنَتَذكَّرْ، وَلنُذَكِّرْ بَعْضُنا بَعْضًا: لَوْلا ما حَلَّقَتْهُ عَبْقَرِيَّةُ الأميركي جورج هيل، (١٨٦٨ ـ ١٩٣٨)، والبريطاني إرنست رذرفورد، (١٨٧١ ـ ١٩٣٧)، وآينشتاين وأقرانِهِم لما باتَتْ أقاصي الفَضاءِ حَدودَ عالَمِنا، ولما انْطَلَقَتْ مِنَ الذَّرَّةِ هذهِ

الطّاقَـةُ الهائِلَـةُ التـي تَحْـتَ أَيْدينـا اليـوم. ولَـوْلا داعِيَـةُ الفُضـولِ التـي تَلَبَّسَـتْ أَمْثالَ الدَّنْمَركـيِّ نيلـس بـور، (١٨٨٥ ـ ١٩٦٢)، والأميركـيِّ روبـرت ميلّيـكان، (١٨٦٨ ـ ١٩٥٣)، وَرَغَّبَتْ لَهُما، ولآخَرينَ، بِـأَنْ يَفُكّوا سِـرَّ الـذَّرَّةِ، وَبِـأَنْ يَطَّلِعوا على مَكْـنونِ تَـكوينِها، لما كانَـتْ حَيـاةُ المَلاييـنِ المُمَلْيَنَةِ مِنَ البَشَـرِ علـى مـا هـي عَلَيْـهِ اليَـوْم.

ولكـنْ فَلْنَتَذَكَّـرْ أَيْضًـا أَنَّ التَّبَـدُّلَ الـذي دَخَـلَ على حَيـاةِ هَـؤلاءِ البَشَـرِ كانَ نَتيجَـةً ثانَوِيَّـةً وَلَـمْ يَكُـنْ، علـى الإطْـلاقِ، داعِيَـةَ فُلانٍ أو فُلانٍ مِـنَ العُلَمـاءِ إلـى مـا انْصَـرَفَ إلَيْـهِ مِـنْ بَحْـثٍ ومـا بَذَلَـهُ مِـنْ جُهْـد. مِـنْ ثَمَّ دَعْوَتـي إلى تَرْكِ الباحِثيـنَ والعُلَماءِ وشأنِهِم.

أَحْمَـقُ مَـنْ يَظُـنُّ أَنَّ بِوُسْـعِ «مُديرٍ» مـا أَوْ «إدارَةٍ» مـا أَنْ تُديـرَ الفِكْـرَ والخيـالَ العِلْمِيَّيْنَ بِأَفْضَـلَ مِمّا يَسْـتَطيعانِ، هُمـا نَفْسُـهُما، أَنْ يُديرا نَفْسَـيْهِما.

فَلْنَعُـدْ عَوْدَنـا إلـى نَمـوذَجِ البكتيريولوجيـا: ما مِنْ

عاقِلٍ يُمْكِنُهُ أنْ يَذْهَبَ إلى القَوْلِ بأنَّ أثْمانَ ما انْصَرَفَ إلَيْهِ إرليخ مِنْ لَهْوٍ تَزينُ مِنْ شَيْءٍ في مِيزانِ المَنافِعِ التي عادَتْ بِها على البَشَرِيَّةِ اكْتِشافاتُهُ واكْتِشافاتُ الفرنسيِّ لوي پاستور (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥)، أوِ الألمانِيِّ روبرت كوخ، (١٨٤٣ ـ ١٩١٠)، أوِ الأميركيِّ ذي الأصولِ الألمانِيَّةِ تيوبالد سميث، (١٨٥٩ ـ ١٩٣٤)، وغيرِهِم. بَلْ هَلْ مَنْ يَسَعُهُ القَوْلُ إنَّ ما اكْتَشَفَهُ هَؤلاءِ كانَ لِيُكْتَشَفَ لَوْ أنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ وَضَعَ نَصْبَ عَيْنَيْهِ الجَدْوى العَمَليَّةِ لِما يَقوم بِهِ؟

إنَّ هَؤلاءِ المُبْدِعينَ العِظامَ ــ وكُلُّ عالِمٍ حَقًّا مُبْدِعٌ ـ إنَّما تَبِعوا سَبيلَ الفُضولِ وحُبِّ الاسْتِطلاعِ وهو ما سارَ بِهِم إلى ما تَحَقَّقَ على أيْديهِم مِن اكْتِشافات.

كذلك، لا يُفْهَمَنَّ مِنْ قَوْلي الانْتقاصُ مِنْ معاهِدِ الهَنْدَسَةِ أو الحُقوقِ أو سِواها حَيْثُ يَتَسَيَّدُ الدّافِعُ النَّفْعِيّ. بَلْ قَدْ يَحْدُثُ أحْيانًا أنْ تَسْتَثيرَ عَقَباتٌ أوْ صُعوباتٌ عَمَلِيَّةٌ في مَرافِقِ الصِّناعَةِ

أو فـي المُخْتَبـراتِ تَسـاؤلاتٍ نَظَرِيَّـةً يُـؤدّي التَّأَمُّلُ فيهـا، والسَّـعْيُ إلـى اقْتِـراحِ حُلـولٍ لهـا، إلـى فَتْـحِ آفـاقٍ جَديـدةٍ تُسْـهِمُ فـي تَذْليـلِ تِلْـكَ العَقَبـاتِ أو لا تُسْـهِم كمـا، لَرُبَّمـا، فـي اجْتِـراحِ اجْتِراحـاتٍ غَيْـرِ مُتَوَقَّعَـةٍ ذاتِ تَرْجَمـاتٍ مُسْـتَقْبَلِيَّةٍ، نَظَرِيَّةٍ أو عَمَلِيَّة .

إنَّ المُراكَمَـةَ المُتَسـارِعَةَ لِرَصيـدٍ مُتَعاظِـمٍ مِـنَ المَعـارِفِ اللّانَفْعِيَّـةِ أو النَّظَرِيَّـةِ البَحْـتِ قَدْ أفْضى إلـى واقِـعٍ غَيْـرِ مَسْـبوقٍ مِـنْ ذي قَبْـل. فـإنَّ عَدَدًا مُتَزايـدًا مِـنَ المَشـاكِلِ ذاتِ الطَّبيعَـةِ العِلْمِيَّـةِ قَـدْ دَخَلَـتْ تَحْـتَ حَـدِّ التَّفْكيـرِ العِلْمِـيِّ ولا أعْنـي بذلـكَ التَّفْكيـرَ العِلْمِيَّ المُتَوَجِّـهَ وُجْهَـةً عَمَلِيَّةً بَلِ التَّفْكيـرَ العِلْمِـيَّ الخالِـص.

لَقَـدْ ضَرَبْـتُ في مـا تَقَدَّمَ بِشَـخْصِ ماركونـي مِثالًا علـى ذَلِكَ: إنَّ أفْضـالَ هذا المُخْتَرِعِ على البَشَـرِيَّةِ لا تَنْفـي عَنْـهُ أنَّـهُ لَـمْ يَفْعَـلْ مِـنْ شَـيْءٍ سِـوى تَجْميـعِ مـا كانَ قـدْ سُـبِقَ إلَيـهْ مِـنَ الاكْـتِشافاتِ وتَرْجَمَـةِ هـذه الفُتوحـاتِ العِلْمِيَّـةِ إلـى أداةٍ ذاتِ

اسْتِخْداماتٍ عَمَلِيَّة. كَذَلِكَ الأَمْرُ مِنْ توماس أديسون مَثَلًا. أمّا متى نَظَرْنا إلى پاستور وما في رَصيدِهِ مِنْ أفْضالٍ فَسَوْفَ نَجِدُ أنْفُسنا بَيْنَ يَدَيَّ طِرازٍ مُخْتَلِفٍ كُلَّ الاخْتِلاف.

ففي حينِ لَمْ يَتَأَنَّفْ پاستور مِنَ التَّصَدّي لِمُشْكلاتٍ ذاتِ طَبيعَةٍ عَمَلِيَّةٍ مِنْ مِثْلِ تِلْكَ التي تَعْرِضُ لأشْجارِ الكَرْمَةِ في نُمُوِّها أو التي تَعْرِضُ لِتَخْميرِ الجِعَةِ، فهو، في اجْتِهادِهِ لاجْتِراحِ حُلولٍ لِهَذِهِ المُشْكلاتِ، كانَ يَسْتَخْلِصُ خُلاصاتٍ نَفيسَةً، وإنْ غَيْرَ ذي قيمَةٍ نَفْعِيَّةٍ مُباشَرَة، لَمْ تَلْبَثِ البَعْضُ مِنْها أنْ أثْبَتَتْ ما هي عَلَيْهِ مِنْ أهَمِيَّةٍ ومِنْ خَطَر.

لَقَدْ كانَ إرليخ، كما جاءَ في ما سَبَقَ مِنْ قَوْلٍ، عالِمًا يَصِحُّ وَصْفُهُ بالتَّأَمُّلِيِّ العاكِفِ على اسْتِرْضاءِ دواعي الفُضولِ وحُبِّ الاسْتِطلاعِ، على أنَّ إرليخ هذا، نَفْسَهُ، انْشَغَلَ ذاتَ حينٍ بِمَرَضِ السِّفْلِسِ وَلَمْ يُغادِرِ انْشِغالَهُ بِهذا المَرَضِ إلّا بَعْدَ أنْ تَمَكَّنَ مِنْ إيجادِ عِلاجٍ لَه.

كذلِكَ قُلْ عَن اكْتِشافِ الأنسولين على يَدِ الكَنَدِيِّ فريدريك بانتينچ، (١٨٩١ ـ ١٩٤١)، وعَنِ اكْتِشافِ قُدْرَةِ مُسْتَخْرَجاتِ الكَبِدِ على مُعالَجَةِ الأنيميا الخَبيثَةِ على يَدَيِّ العالِمَيْنِ الأميركِيَّيْنِ جورج مينو، (١٨٨٥ ـ ١٩٥٠)، وَجورج ويبل، (١٨٧٨ ـ ١٩٧٦).

يَشْتَرِكُ هذانِ الاكْتِشافانِ بأنَّ أصْحابَهُما أدرَكوا أنَّ في كَمٍّ المَعارِفَ النَّظَرِيَّةِ التي كَدَّسَها العُلَماءُ قَبْلَهُمُ ولَمْ يُبالَوا باسْتِخْداماتِها التَّطْبيقيَّة ما يُمكِن الإفادَةُ مِنْه لاجْتِراحِ جَوباتٍ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الأسْئِلَةِ ذاتِ الطَّبيعَةِ العَمَلِيَّة. بِناءً عَلَيْهِ، لا بُدَّ مِنْ كَثيرٍ مِنَ الدِّقَّةِ والتَّأنّي في نِسْبَةِ اكْتِشافٍ مُعَيَّنٍ إلى أحَدٍ مِنَ النّاسِ... فَلِمُعْظَمِ الاكْتِشافاتِ أنْسابٌ عَريقَةٌ وأحْيانًا أنْسابٌ غامِضَة.

يَبْدَأُ الأمْرُ باكْتِشافٍ جُزْئِيٍّ هُنا يَليهِ آخَرُ هُناكَ يَليهِ ثالِثٌ هُنالِك ثُمَّ يَتَّفِقُ لأحَدِهِم أنْ يَضُمَّ هذهِ الأجْزاءَ إلى بَعْضِها البَعْضَ ضَمًّا عَبْقَرِيًّا فَيَكونُ ما نُطلِقُ عَلَيْه اسْمَ الاكْتِشاف. هذا شَأْنُ الأنْهارِ الكُبْرى تَبْدَأ حَيْثُ تَبْدَأُ سَواقٍ صَغيرَةٌ في

غابـاتٍ قَصِيَّـةٍ تَرْفِدُهـا سَـواقٍ أكْبَر تَتَجَمَّـعُ مِياهُها لِتَشُـقَّ طَريقَها شَـيْئًا فَشَـيْئًا مُتَحَوِّلَةٍ خِلالَ مَسـيرِها إلـى هـذهِ الأنْهـارِ العَظيمَةِ الهـادِرة.

تُثْبِـتُ هـذه الشَّـواهِدُ والاعْتِبـاراتُ، إذا كانَ لا بُـدَّ مِـنْ إثْبـات، الأهَمِيَّـةَ القُصْـوى لِحُرِّيَّـةِ الفِكْـرِ والبَحْـث.

لَقَدِ اكْتَفَيْتُ في ما تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلي بِضَرِبِ أمْثِلَةٍ مَأْتاها العُلومُ التَّجْريبِيَّةُ والرِّياضِيّاتُ على أنَّ الحُرِّيَّةَ لا تَـتَجَزَّأُ، وما يَصِحُّ على العُلومِ وعلى الرِّياضيّاتِ يَصِحُّ أيْضًا على الفُنونِ البَصَرِيَّةِ وعلى الموسيقى وعلى شَتّى التَّعْبيراتِ الفِكْرِيَّةِ التي تَحْمِلُ النَّفْسَ إلى أعْلى عِلِّيينَ ولا تَحْتاجُ، اسْتِطرادًا، وخارِجَ هذا المُؤَدّى، إلى ما يُـبَرِّرُ الحُرِّيَّةَ التي تَحْتاجُ إلَيْها.

إنَّ الدِّفاعَ عَنْ أهَمِيَّةِ هذهِ التَّعْبيراتِ بِصَرفِ النَّظَرِ عَنْ أيَّةِ غايَةٍ نَفْعِيَّةٍ هو دِفاعٌ عَنْ مُؤَسَّساتِ البَحْثِ العِلْمِيِّ ومَعاهِدِه. والمُؤَسَّساتُ التي تَسْتَحِقُّ هذا الدِّفاعَ عَنْها هي المُؤَسَّساتُ التي تُسْهِمُ على مدى

أجْيالٍ مُتَتابِعَةٍ في إطْلاقِ طاقاتِ طُلّابِها حتّى لا تَحْتاجُ إلى ما يُبَرِّرُ وُجودَها والمُرافَعَةَ عَنْ بقائِها بِصَرفِ النَّظَرِ عمّا قَدْ يَكونُ لِكُلِّ طالِبٍ بِعَيْنِه مِنْ يَدٍ أو فَضْلٍ في نَماءِ المَعارِفِ البَشَرِيَّة. بَلْ أقولُ: إنَّ قَصيدَةً واحِدَةً أو سيمفونِيَّةً واحِدَةً أوِ اكتِشافًا عِلْمِيًّا واحِدًا كَفيلٌ بأنْ يُبَرِّرَ ضَرورةَ المُحافَظَةِ على هذِه المُؤسَّسات...

ويَبْدو لي، في ما يَبْدو، أنَّ لِما أقولُهُ هُنا مُبَرِّراتٍ آنِيَّةً كثيرةً؛ ففي عَدَدٍ مِنْ بِقاعِ الأرْض، ولا سِيَّما في إيطاليا وفي ألمانيا، تَتَعَرَّضُ حُرِّيَّةُ البَحْثِ والتَّفْكيرِ الحُرِّ إلى إساءاتٍ مُقْلِقَة. لَقَدْ أُعيدَتْ هَيْكَلَةُ بَعْضِ الجامِعاتِ على نَحْوٍ يَجْعَلُ مِنْها مَرافِقَ عِلْمِيَّةً في خِدْمَةِ إيديولوجيّاتٍ سِياسيَّةٍ واقتصاديَّةٍ بَلْ وعُنْصُرِيَّةٍ أحيانًا. ولَمْ يَخْلُ الأمْرُ أنْ شَهِدْنا في بَعْضِ الدُّوَلِ الدّيمقراطيَّةِ القَليلَةِ بَعْدُ في هذا العالَمْ أصْواتًا نَشازًا تُشَكِّكُ في أهَمِيَّةِ الإبْقاءِ على الحُرِّيّاتِ الجامِعِيَّةِ في إتاحَتِها البَحْثَ والتَّعْبيرِ الحُرّ.

فَلْنُسَلِّمْ إذًا، مَرَّةً لا عَوْدَةَ عَنْها، بأَنَّ العَدُوَّ اللَّدودَ للجِنْسِ البَشَرِيِّ لَيْسَ العالِمَ الجَرِيءَ الذي لا يَخْشى في البَحْثِ لَوْمَةَ لائِمٍ، سَواءٌ أأصابَ في بَحْثِهِ أم أخْطَأَ، وإنَّما عَدُوُّهُ ذَلِكَ الذي يُحاوِلُ أنْ يَحْبِسَ الفِكْرَ البَشَرِيَّ في زِنْزانَةٍ لا تَتَّسِعُ لِما أثْبَتَ هذا الفِكْرُ في إيطاليا وألمانيا وبريطانيا والوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ الأميركيَّةِ وغَيْرِها أنَّ لَهُ مِنْ أجْنِحَةٍ خَفّاقَة!

بالطَّبْعِ، هذِهِ الفِكْرَةُ لَيْسَتْ بالجَديدَة. إنَّها الفِكْرَةُ نَفْسُها التي اعْتَمَلَتْ في خاطِرِ ڤيلهم فون همبولت، (١٧٦٧ ـ ١٨٣٥)، يَوْمَ أنْ غزا نابليون ألمانيا فَرَسَمَ لإنْشاءِ جامِعَةٍ في بَرْلينَ وكُتِبَ له أن يُؤَسِّسَها.

إنَّها هيَ هيَ الفِكْرَةُ التي سارَ على هَدْيٍ مِنْها المُرَبّي الأميركيُّ العَلّامَةُ دانيل كويت چيلمان، (١٨٣١ ـ ١٩٠٨)، عِنْدما أنْشَأَ عامَ ١٨٧٦ جامِعَةَ جون هوپكِنز، وهي الجامِعَةُ التي لَمْ تَلْبَثْ جامِعاتُ الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ وسواها أنْ نَهَجَتْ نَهْجَها في هَيْكَلَةِ نَفْسِها.

إنَّها هـيَ هـيَ الفَكْـرَةُ التـي يُفْتَـرَضُ أن يُخْلِصَ لها كُلُّ واحِـدٍ مِـنَ النّـاسِ حَريصٍ علـى الارْتِقاءِ بِنَفْسِـهِ وعَقْلِـهِ كائِنًـا ما تَـكُنِ الأثْمـانُ التي قَـدْ يُرَغَمُ على دَفْعِهـا لِقاءَ هـذا الإخْلاص.

أقـولُ قَوْلـي هـذا مَـعَ التَّأْكيـدِ علـى أنَّ التَّمَسُّـكَ بالحُرِّيَّـةِ مُقَـدَّمٌ علـى أشْـكالِ التَّجديـدِ سَـواءٌ أكانَ فـي مَجـالِ الآدابِ أمْ في مَجالِ العُلـومِ، لأنَّ الحُرِّيَّةَ هذهِ هي شَـرْطُ التَّسـامُحِ أمامَ شـتّى أشْـكالِ التَّنَوّعِ والاخْتِلاف.

فَهَـلْ أعْبَثُ، وَهَـلْ أقْتَلُ، بِشـهادَةِ التّاريخِ البَشَـرِيِّ، مِـنَ التَّمْييـزِ القائِـمِ علـى العِرْقِ أوْ علـى الدّيـن؟ وَهَـلْ تَحتـاجُ البَشَـرِيَّةُ إلـى عُلـومٍ وفُنـونٍ صَمّـاءَ ثابِتَـةٍ لا تَحـولُ ولا تَـزولَ أمْ أنَّهـا بِحاجَـةٍ، لِتُعَبِّرَ عَنْ نَفْسِـها حَـقَّ التَّعْبيـرِ، إلـى عُلـومٍ وفُنـونٍ، أشـكالَ ألـوان، مُبْدِعوهـا مِنْ كُلِّ ألْوانِ الطَّيْفِ البَشَـرِيِّ في تَـنَوُّعِهِ الدّينـيِّ والجِنْسـيِّ والعِرْقيِّ؟ كُلّـي ثِقَةٌ بِأنَّهُ مـا مِـنْ اثْنَيْـنِ يُسَـلِّمانِ بِهَـذِهِ الأوَّلِيَّـةِ يَخْتِلِفانِ في الجَـوابِ عَـنْ هذا السُّؤال...

IV

لا إخالُنـي أُبالِـغُ أوْ أتجـاوَزُ الحَقيقَـةَ إنْ عَـدَدْتُ إنْشـاءَ «مَعْهَـدِ الدِّراسـاتِ المُتَقَدِّمَـةِ» فـي جامِعَـةِ برينسـتون بولايـة نيوجيرسـي علـى يَـدِ رجـل الأعمـالِ والخَيْـرِ لويـس بامبرغـر، (١٨٥٥ ـ ١٩٤٤)، وشَـقيقَتِهِ كارولين، (١٨٦٤ ـ ١٩٤٤، وكارولين هذِهِ هـي زَوْجُ فيلكـس فولد شَـريكِ شَـقيقِها لويس في أعْمالِـهِ التِّجارِيَّـة)، والازْدِهارَ السَّـريعَ لِهذا المَعْهَدِ، أحَـدَ أبْـرَزِ الاسْـتِجاباتِ لِمـا فَشـا فـي العالَـمِ مـن عُنْصُرِيَّـةٍ بَيْـنَ الحَرْبَيْـن. فَلَقَـدْ بَزَغَـتْ فِكْرَةُ إنْشـاءِ هـذا المَعْهَـدِ فـي عـامِ ١٩٣٠، وحَكَّـمَ علـى اخْتيارِ برينسـتون تَعَلُّـقُ بامبرغر بنيوجيرسـي. علـى أنَّني أُقَـدِّرُ أنَّ مِـنْ دَواعيـهِ إلـى ذَلِـكَ أيْضًـا، عِـلاوَةً على هَـواهُ الشَّـخْصيِّ، مـا بـدا لَـهُ مِـنْ إمكانيَّـةِ التَّعاوُنِ الوَثيـقِ بَيْـنَ المَعْهَدِ المُزْمَعِ تَأْسيسُـهُ وبَيْـنَ كُلِّيّاتِ جامِعَـةِ برينسـتون.

باشَـرَ المَعْهَـدُ نَشـاطَهُ فـي عـامِ ١٩٣٣ مُسْـتَقْطِبًا

عَـدَدًا مِـنْ أَبْـرَزِ العُلَمـاءِ الأميركيّيـنَ فـي مَجـالِ العُلـومِ البَحْـتِ كمـا فـي مَجـالِ الإنسـانيّات؛ بَيْـدَ أنَّ الفَضْـلَ فـي اسْـتِقطابِ المَعْهَـدِ عُلماءَ مِـنْ وَزْنِ آينشـتاين وجـون فـون نويمـان، (١٩٠٣ ـ ١٩٥٧)، في العلومِ، وإرْنِسـت هرتسـفيلد، (١٨٧٩ ـ ١٩٤٨)، وإرْويـن بانوفسـكي، (١٨٩٢ ـ ١٩٦٨)، فـي الفنـونِ والإنْسـانيّاتِ، إنَّما يَعـودُ، إنْ جازَتِ العِبـارَةُ، ومَهْما بـدا فـي الأمْـرِ مِـنْ تَناقُـضٍ، إلـى هِتْلَر!

ضِفْ أنَّ اسْـتِقْطابَ المَعْهَدِ هَـؤلاءِ العُلَماءِ لَمْ يَرْفَعْ مِـنْ شَـأنِهِ كَمُؤَسَّسَـةٍ فَقَـط وإنَّمـا أتـاحَ لجيـلٍ مِـنَ الباحِثيـنَ الأميركيّين الشَّـبابِ أنْ يَتَدَرَّبوا على أيْدي هَـؤلاءِ العُلَمـاءِ الأفْـذاذِ، وأتـاحَ اسْـتِطْرادًا للبَحْـثِ العِلْمِـيِّ فـي الوِلايـاتِ المُتَّحِـدَةِ عامَّـةً أنْ يَتطوَّر.

أمّا بِنْيَةُ المَعْهَدِ فَبَسيطَةٌ وَلَيِّنَةٌ إلى أبْعَدِ الحُدود؛ فهوَ يَتَألَّفُ مِنْ ثَلاثِ كُلّيّاتٍ، (الرِّياضيّات، العُلوم الإنسانيَّة، العُلوم الاقتصادِيَّةِ والسياسيَّة)، وقِوامُ كُلِّ واحِدَةٍ مِنْ هذهِ الكُلِّيّاتِ هَيْئَةٌ دائِمَةٌ مِنَ الأساتِذَةِ وهَيْئَةٌ مِنَ الأساتِذَةِ المُشارِكينَ يَتَبَدَّلُ

أعْضاؤُها سَنَوِيًّا. ولِكَلِّ كُلِّيَّةٍ أنْ تُديرَ شُؤونَها على النَّحْوِ الذي تَرْتأي، ولِكُلٍّ مِنْ أفرادِ هَيْئَتَيْها التَّعْليمِيَّتَيْنِ أنْ يُدَبِّرَ وَقْتَهُ وجَهْدَهُ على النَّحْوِ الذي يَراهُ مُناسِبًا. ولا شَرْطَ لِقَبولِ الأساتِذَةِ المُشاركينَ مِنْ جِنْسِيَّةٍ أو مِنْ خَلْفِيَّةٍ أكاديميَّةٍ سِوى الجَدارَةِ والاسْتِحقاق. ولِهَؤلاءِ، كما تَقَدَّمَ، ما للأساتِذَةِ الدَّائِمينَ، وللواحِدِ مِنْهُم ان يَتَعاوَنَ مَعَ أُسْتاذٍ دائِمٍ أوْ أنْ يُعْمَلَ لِوَحْدَه. بِالمُخْتَصَر، لا قَواعِدَ مُقَعَّدَةً في مَعْهَد الدِّراساتِ هذا، وعَلَيْهِ زِدْ أنَّ المَعْهَدَ مُنْدَمِجٌ في إطارِ الجامِعَةِ كُلَّ الانْدِماجِ فلا تَكادُ تُمَيِّزُ بَيْنَ أُسْتاذٍ مِنْ أساتِذَةِ الجامِعَةِ وآخرَ مِنْ باحِثي المَعْهَد.

هُنا، في هذا الصَّرْحِ، لا شَيْءَ سِوى المُعْرِفَةِ وهَمُّ تَنْمِيَتِها.

لا لِجانَ أكاديميَّةً ولا مَجالِسَ كُلِّيّاتٍ ولا مَنْ يَحْزَنون: لِعالِمِ الرِّياضِيّاتِ أنْ يَنْصَرِفَ إلى رِياضِيّاتِهِ، وللباحِثِ في العُلومِ الإنسانِيَّةِ إلى أبْحاثِهِ، وهكذا في مَنْأى مِنْ أيِّ مُنَغِّصٍ إداريٍّ أو ما شاكَل. مِنْ ثَمَّ، لا يَشْعُرُ بالغُرْبَةِ في هذا

المَعْهَـدِ إلّا مَـنْ لا فِكَـرَةَ عِلْمِيَّةً تَشْـغَلُ بالَـهُ أو مَنْ لا يَمْلِـكُ الصَّبْـرَ علـى الاسْـتِغراقِ بالكُلِّيَّـةِ فـي مـا يَشْـغَلُ بالَـهُ مِـنْ فِكْـرَة.

إقْتَـرَحَ المَعْهَـدُ يَوْمًـا علـى أحَـدِ أسـاتِذَةِ هارفرد أنْ يَلْتَحِـقَ بِهِ فكاتَبَني الأُسْـتاذُ المَحْظوظُ سـائِلًا: «وما عَسـاها أنْ تكونَ واجِباتي عنـدَ الْتِحاقي بالمَعْهَد؟» وجـاءَ جَوابـي علـى اسْتِفْسـارِهِ بَسـيطًا للغايَـة: «لا واجِبـاتٍ علـى الإطلاق. إنَّهـا فُرَصَـةٌ فانْتَهِزْها».

وهاكُـمْ قِصَّـةُ عالِـمِ رياضيّـاتٍ شـابٌّ لامِـعٍ أُتيـحَ لَهُ أنْ يَسْـتَضيفَهُ المَعْهَـد:

علـى خِتـامِ السَّـنَةِ التـي قَضاهـا العالِمُ الشّـابُّ في المَعْهَـدِ طَـرَقَ بابي مُوَدِّعًـا. وإذْ أوْفَينـا المُجامَلاتِ حَقَّها سَـألَني:

- لَعَلَّـكَ تَرْغَـبُ بـأنْ أُطالِعَـكَ فـي مـا قَضَيْـتُ هـذا العام؟

- بالطَّبْع، أُحِبُّ ذلك.

- تَشْـهَدُ العُلـومُ الرِّياضيَّـةُ تَطَوُّرًا سَـريعًا للغايَة. كذلـكَ فـإنَّ نَشَـرَ الأدَبِيّـاتِ ذاتِ الصِّلَـةِ بهـذهِ

العُلـومِ يَطَّـرِدُ أيْضًا علـى وَقْعٍ سَـريعٍ للغايَة. مِنْ بَعْدِ أنْ أَنْجَزْتُ أُطْـروحَةَ الدُّكتـوراه، حاوَلْـتُ وُسْعي، أنْ أُبْقيني مُطَّلِعًا علـى مـا يَجِـدُّ مِـنْ أبْحـاثٍ ومِـنْ نِقاشـاتٍ بَيْـدَ أنَّ مَشـاغِلَ الحَيـاةِ قَطَعَـتْ عَلَـيَّ، أحْيانًـا كَـثيرةً، طَريـقَ المُتابَعَـةِ وَحالَـتْ بَيْنـي وبَيْـنَ تَيْويـمِ مَعارفـي. خِـلالَ السَّـنَةِ التـي قَضَيْتُهـا هُنـا اسْـتَدْرَكْتُ علـى كثيرٍ مِمّـا فاتَنـي، ويَبْـدو لـي أنَّ حُجُبًـا كَثيـرَةً قَـدْ رُفِعَـتْ مِـنْ أمامـي وانْفَتَحَـتْ مَعَهـا آفـاقٌ آمَـلُ أنْ أُتَرْجِـمَ عَنْهـا مِـنْ خِـلالِ بَحْثَيْـنِ اثْنَيْـن.

- وكَـمْ سَيَسْـتَغرِقُك مِـن وَقْـتٍ أن تَضَـعَ هذَيْـن البَحْثَيْـن؟

- خَمْسَ سَـنَواتٍ، أو لَرُبَّما عَشْرَ سَنَوات.

- وماذا في مَشـاريعِكَ بَعْدَ ذلك؟

- أنْ أعـودَ إلى هُنا!

أمّا السّالِفَةُ الثّالِثَةُ الأحْدَثُ عَهْدًا والتي يَحلو لي أنْ أرْويها فَبَطَلُها أُسْتاذٌ يُعَلِّمُ في إحدى كُبْرَياتِ جامِعاتِ أوروبّا. كانَ في خِطَّةِ هذا الأُسْتاذِ عِنْدَ

وصولِهِ إلى المَعْهَدِ لِوَقْتٍ قَصيرٍ خلا أنْ يَتَعاوَنَ مَعَ أحَدِ أساتِذَةِ المَعْهَدِ البروفيسور شارل موري، (١٨٧٧ ـ ١٩٥٥). ثُمَّ كانَ عِنْدَ وصولِ صاحِبِنا إلى برينستون أنِ اقْتَرَحَ عَلَيْهِ موري أنْ يَتَعاوَنَ مَعَ إروين پانوفسكي، (١٨٩٢ ـ ١٩٦٨)، وجيورج زفارزنسكي، (١٨٧٦ ـ ١٩٥٧)، عِوَضًا مِنْهُ لَعَلَّ تعاوُنَهِ مَعَهُما أنْ يكونَ أجدى. أمّا اليَوْمَ فَهُوَ يَتَعاوُنَ مَعَ الثَّلاثَةِ مَعًا! وإذْ طالَعَني مُؤخَّرًا أنَّهُ يَنْوي البَقاءَ في المَعْهَدِ طيلَةَ فَتْرَةِ الصَّيْفِ، وأشْفَقْتُ عَلَيْهِ مِنْ حرارَةِ الطَّقْسِ في نيوجيرسي أجابَني: «لا أظُنُّني مَعَ ما أنا مُسْتَغرِقٌ فيهِ سأُلْقي بالًا إلى حَرارَةِ الطَّقْس!».

وخِتامُها نُكْتَة: «هَلْ إنَّ سَهَرَ اللَّيالي دَأْبُ كُلِّ العامِلينَ في المَعْهَدِ؟»... هذا ما سَأَلَتْنيهِ مُؤَخَّرًا زَوْجُ أحَدِ زُملائِنا البريطانيّين!

لَيْسَ لِلْمَعْهَدِ، بَعْدُ، مَبْنًى خاصًّا بِهِ. مِنْ ثَمَّ فإنَّ العامِلينَ فيهِ يَتَوَزَّعونَ على عَناوينَ عِدَّة: عُلَماءُ الرِّياضِيّاتِ على كُلِّيَّةِ الرِّياضيّاتِ في جامعة برينستون، وعُلَماءُ الإنسانيّاتِ على كُلِّيَّةِ

الإنسـانِيّاتِ، أمّا الاقْتِصاديّونَ فَيَشْـغَلونَ جَناحًا في أحَـدِ فنـادِقِ الحَـيِّ، فيمـا أنـا فـأُزاوِلُ نَشـاطي في مَبْنًـى تجـارِيٍّ يُجـاوِرُ فيهِ المحامي طبيبَ الأسْـنانِ وأخِصّائِـيَّ التَّدْليـك وهَكَـذا.

الشّـاهِدُ فـي مـا تَقَـدَّم أنَّ شَـرطَ البَحْـثِ العِلْمِـيِّ الحُـرِّ لَيْـسَ الأبْنِيَـةَ المُنيفَـةَ الشّـامِخَةَ، وهـذا فـي أيِّ حـالٍ مـا سَـبَقَ أنْ أثْبَتَـهُ المُرَبّـي الكبيـر دانيال چيلمـان، (١٨٣١ ـ ١٩٠٨)، يَـوْمَ أنْ أسَّـسَ جامِعَـةَ جـون هوپكينـز.

على أنَّهُ، وفي سَـبيلِ تَشْـجيعِ التَّواصُلِ غَيْرِ المُقَيَّدِ بقيـودٍ بَيْـنَ العامِليـنَ بالمَعْهَـدِ، فَسَـوْفَ يَكـونُ لَهُ عمّـا قَريـبٍ مَبْنـىً خاصًّا بِـهِ يَحْمِـلُ اسْـمَ كارولين بامبرغـر فولـد اعْتِرافًـا بِفَضْلِهـا عَلَيْـه. خـلا ذَلِـكَ، لَيْـسَ فـي نِيَّـةِ المَعْهَـدِ أنْ يَتَوَسَّـعَ أو أنْ يَتَفَيَّـلَ بَلْ إنَّ خِطَّتَـهُ أنْ يَبْقى مُتواضِـعَ الحَجْمِ ولكنْ وَفِيًّا كُلَّ الوَفـاءِ للمَبـادِئِ التـي تَأَسَّـسَ عَلَيها: حُرِّيَّـةُ البَحْثِ المُطْلَقَـةُ وحُرِّيَّـةُ الباحثيـنَ فـي مَنـأى مِـنَ القُيودِ والرَّسْميّات.

هُنا، في هذا المَعْهَدِ، لا نَقْطَعُ على أنْفُسِنا وعودًا لِنُسارِعَ إلى البِرِّ بِها.

هَمُّنا في هذا المَعْهَدِ أنْ تُثْبِتَ الجُهودُ التي نَبْذُلُ أنَّ السَّعْيَ وَراءَ المَعارِفِ التي تَبْدو غَيْرَ ذاتِ جَدْوى، وغَيْرَ ذاتِ منافِعَ عَمَلِيَّةٍ ـ سَعْيًا لا يَعوقُهُ عائِق ـ هو، اليَوْمَ، كما كانَ في الماضي، سَعْيٌ ذو نَفْعٍ وجَدْوى.

هو كذلكَ ولكِنَّ هذا الهَمَّ لَيْسَ هَمَّنا الأوَّلَ أو الأوْحَد. إنَّما يُريدُ المَعْهَدُ، أوَّلًا وآخِرًا، أنْ يَكونَ فِرْدَوْسًا للعُلَماءِ وللباحِثين... فَمَثَلُ هَؤلاءِ مَثَلُ الشُّعَراءِ والمُوسيقيّين: لَهُم أنْ يَختاروا الظُّروفَ الأوْفَقَ لِتَفَتُّحِ إبْداعِهِم، أيْ لِبَذْلِ ذَواتِ أنْفُسِهِم وإتاحَتِها، بِلا مُقابِلٍ، للآخرين!

لوجْهِ مَالايَلزم

مُتَّخِذًا مِنَ التَّأَمُّلِ في مَفاهيمِ «اللُّزومِ» و«النُّفولِ» و«الجَدْوى» و«اللّاجَدْوى» مُقَدِّمَةً وَمُبْتَدَأً، يَتَقَمَّصُ الآكادِيمِيُّ المَوْسوعِيُّ نوتشيو أوردينه في كِتابِهِ هذا، وهو كِتابٌ لا يَتَحَرَّجُ من وَصْفِهِ بـ«البَيانِ»، (المانيفستو)، تَدْليلًا على نَفْحَتِهِ السِّجاليَّةِ قَميصَ الدَّليلِ والهادي، وَيَقْتَرِحُ على قُرّائِهِ سِياحَةً فِكْرِيَّةً بَيْنَ شَواهِدِ تِلْكَ المَفاهيمِ ومَعالِمِها، في الماضي والحاضِرِ، في الفَلْسَفَةِ والأَدَبِ، في الفَنِّ والعُلومِ، في الجامِعَةِ وفي خَلْوَةِ العاشِقَيْنِ، يَنْتَهي مَعَها إلى أنَّ «اللاجَدْوى» ـ أي ما يَتَهَيَّأُ لنا أنَّهُ نافِلٌ وغَيْرُ ذي جَدْوى ولا لُزومَ لَهُ ـ مِلْحُ التَّجْرِبَةِ الإنسانيَّةِ مِنْ أوَّلِ التّاريخِ إلى اليَوْمِ، وَشَرْطُ الحُرِّيَّةِ المَشْروطُ، مُحَذِّرًا مِنْ مُتَرَتِّباتِ ما يَمْضي فيهِ عالَمُنا، تَحْتَ عَناوينِ «الجَدْوى» و«الرِّبْحيَّةِ» والنُّزولِ عِنْدَ «أَحْكامِ السّوقِ»، مِنْ إفْسادٍ لِهذا المِلْحِ وَمِنْ تَضْييقٍ لِمساحاتِ الحُرِّيَّةِ ومَرافِقِها.



نوتشيو أوردينه
Nuccio Ordine

أُستاذُ الفَلْسَفَةِ والأدَبِ الإيطاليِّ في جامِعَةِ كالابريا.

مِنْ أعْلامِ الباحثين في النَّهْضَةِ الأوروبيَّة.

تَنْزِلُ أبْحاثُهُ وتآليفُهُ في جوردانو برونو، (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠)، اللّاهوتيِّ والفَيْلَسوفِ الإيطاليِّ الذي أدانَتْهُ مَحاكِمُ التَّفْتيشِ بِتُهْمَةِ الهَرْطَقَةِ وَحَكَمَتْ عَلَيْهِ بالقَتْلِ حَرْقًا، مَنْزِلَةَ المراجِع.

تُرْجِمَ لوجْهِ مَالايَلزم، حتّى اليَوْمَ، بِخَمْسَ عَشْرَةَ لُغَةً... والعَرَبيَّةُ!


9 789953 111391